سلسلة بحوث العالم
التركى (١)



المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان

تأليف

الدكتور محمد حرب



سلسلة بحوث العالم التركى (١)

المسلمون فى آسيا الوسطى والبلقان

تأليف

الدكتور محمد حرب

رئيس المركز المصرى للدراسات العثمانية

وبحوث العالم التركى

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة

هذه دراسات عن عَالَم مسلمي آسيا الوسطى والبلقان ، وهي دراسات في واقع شعوب ودول تركستان والقوقاز والبلقان .

هذه دراسات عن هذا العالم الجديد - دوليًا - وهو جزء عزيز من العالم الإسلامي كان ضائعاً بين براثن الشيوعية ، حتى تحرَّر جزء منه والجزء الآخر في الطريق إلى التحرُّر .

وقد أردتُ بهذه الدراسات كشف الهوية الإسلامية التركية في هذه البلاد حتى يعرفها العالم العربي : المثقَّفون والباحثون والقرَّاء العاديون ، وذلك من خلال محورين :

الأول : الوضع الراهن لهذه الشعوب من كل نواحيه تقريباً .

والمحور الثاني : آداب هذه الشعوب ، وأقصد آدابها المعاصرة .

وبذلك أكون قد وضعتُ أمام العربي والقارئ بالعربية شخصية هذه المنطقة العزيزة وسكَّانها وهم مسلمون ، من خلال نافذتين هامتين .

وبذلك أكون قد أدَّيت بعض واجبي في تنفيذ أهداف المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي ، وهو إعادة التآخي بين الشعوب العربية والشعوب التركية لتوطيد عُرى الصداقة بين هذين العالمَيْن اللذيْن يشكِّلان دعامة كبرى في أساس الأمة الإسلامية .

ويبقى بعد ذلك واجب العالم العربي تجاه المسلمين في « آسيا الوسطى » والبلقان أقصد تركستان والقوقاز والبلقان . ولكي أؤكد هذا الواجب أستشهدُ بكلمة الرئيس القرمي مصطفى جميل أوغلو ، عقب انهيار الشيوعية في الاتحاد السوفييتي :

« نعم لم نعد نعرف كيف نصلِّي ، لكنَّا نؤمن بالله ربًا وبسيدنا محمد رسولاً ونبيًا .

ونعرف أننا على الإسلام نحيا وعلى الإسلام نموت ، لكنَّا لا نعرف هذا الجمال الذى يملأ قلوبنا والذى فى سبيله قاومنا الشيوعية .

إنى آمر - الآن - بأن يُرفع الأذان فى كل المساجد التى أغلقها الشيوعيون ، يُرفع خمس مرات فى اليوم ، إلى أن يتعلَّم شعبُنا كيف يصلِّى ، ساعتها يكون الأذان ومعه تُقام الصلاة فى كل أرجاء بلادنا القِزم » .

* * *

والله أسأل أن يتقبَّل منَّا .

الدكتور محمد حرب

مدينة نصر - القاهرة ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

الباب الأول

آسيا الوسطى (تركستان والقوقاز)

الفصل الأول : معاناة مسلمي آسيا الوسطى من الشيوعية وآثارها .

الفصل الثاني : واقع الدول الإسلامية المستقلة في تركستان والقوقاز .

أولاً : آذربيجان .

ثانياً : قازاقستان .

ثالثاً : القرم .

رابعاً : مسلمو جورجيا .

خامساً : طاجيكستان .

سادساً : تتارستان .

الفصل الأول

معاناة مسلمي آسيا الوسطى من الشيوعية وآثارها

١ – روسيا تقتص من المسلمين فى تركستان بإلغاء الحروف العربية .
٢ – الروس يحاربون الإسلام فى اللغة التركية .
٣ – مسلمو العالم أَوْلى بإطعام مسلمى آسيا الوسطى .
٤ – الإسلام والصراع القومى المحتمل فى الاتحاد السوفيتى المنحل .
٥ – هل هناك خوف من المسلمين على المسلمين فى آسيا الوسطى .
٦ – مظاهر ازدواجية الروس فى التعامل مع المسلمين والنصارى .
٧ – هل يُلدغ المسلمون فى آسيا الوسطى من نفس الجحر مرتين .
٨ – العلاقات التاريخية المتأخرة بين تركيا وآسيا الوسطى .

[١]

روسيا تقتصُّ من المسلمين فى تركستان بإلغاء الحروف العربية

تركستان تعنى أرض الأتراك . وهم شعب وقبائل مسلمة ، تتحدث اللغة التركية الشرقية بعدة لهجات . ويكتبون لغتهم هذه بالحرف العربى منذ إسلامهم .

وتركستان قسمان : تركستان الغربية وهى التى كانت خاضعة للاستعمار الروسى السوفييتى . وتركستان الشرقية وهى تخضع – حتى الآن – للاستعمار الصينى الشيوعى (١٩٩٣ م) .

والغريب أن كلمة « تركستان » محظور استخدامها فى الاتحاد السوفييتى ، والدولة هناك كانت تستخدم بديلاً عنها كلمة « آسيا الوسطى » . كما أن كلمة تركستان محظور استخدامها فى الصين الشعبية (الشيوعية) ، والدولة هناك – أى فى الصين – استبدلتها بكلمة صينية هى « سين كيانج » ومعناها « المستعمرة » .

وليس موضوعنا هنا التحدث عن الأهمية الاقتصادية الضخمة لتركستان الغربية وتأثير هذه الأهمية فى الاقتصاد الروسى سابقاً ، من حيث المعادن والثروات الطبيعية ومنها الحديد الذى كانت تقوم عليه صناعة الحديد والصلب فى روسيا كلها ، أو الأيدى العاملة المسلمة الرخيصة والكثيفة العدد ، أو عن العقول المسلمة ذات الأهمية البارزة فى الميدان العلمى السوفييتى .

وكذلك لا يقوم موضوعنا هذا على أهمية اليورانيوم فى تركستان الشرقية الذى يقوم عليه الإنتاج الذرى الصينى كله للحرب والسلم معاً .

وإنما يقوم موضوعنا هذا على قضية اغتيال الحروف العربية الجميلة التى كانت تُكتب بها اللغة التركية فى تركستان .. وسيلة لاغتيال الثقافة الإسلامية وللقضاء على الإسلام وعلى الهوية المسلمة فى هذه الديار .

السياسة اللغوية الروسية فى تركستان :

قامت السياسة الروسية السوفييتية المسابقة على مبدأ تحريم وتجريم استخدام الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية ، وهى حروف استخدمها الأتراك هناك منذ أن عرفوا الإسلام ، وكانت لغتهم هذه بحروفها العربية جامعة موحدة لهم .

وقد وجد الروس أن تركستان منطقة واسعة ذات ثقافة إسلامية واحدة تتحدث لغة واحدة لها حروف ثابتة . وللقضاء على هذه الوحدة كوَّن الروس لجنة علمية بإشراف البروفيسور « كون » مهمتها محددة فى قطع العلاقات الثقافية بين المسلمين فى تركستان وبينهم وبين الإسلام نفسه . واتخذت هذه اللجنة توصياتها التى قالت إن السبيل الأساسى فى هذا الهدف هو تقسيم منطقة تركستان إلى شعوب ، والارتفاع بكل لهجة من لهجات اللغة التركية فى تركستان إلى درجة « اللغة المستقلة » لها حروفها المستقلة ونحوها وصرفها .

واحتج المسلمون فى تركستان على هذا خوفاً من انقطاع صلتهم بعضهم البعض وهم ذوو قربى ورحم ، وخوفاً من انقطاعهم عن الإسلام والتراث الإسلامى . وقام علماء تركستانيون فى مؤتمرات علمية يدافعون عن الحرف العربى ، فقُبض عليهم وحُوكموا بتهمة الرجعية .

إلا أن قرار الحكومة السوفييتية قد صدر عام ١٩٢٤ م بناء على توصيات « لجنة كون » . وقضى هذا القرار بتقسيم تركستان الغربية إلى خمس جمهوريات سوفييتية هى : أوزبكستان وقازاقستان وتركمانستان وقيرغيزستان وطاجيكستان ، على أن يكون لكل جمهورية لغة خاصة مستقلة . ويقصد القرار أن تتخذ كل جمهورية لهجتها لغة لها . وقد أُطلق على هذه السياسة وقتها سياسة « فرِّق تسُد » ثم دبَّر الروس الرسميون مع بعض عناصر إدارية شيوعية محلية فى تركستان مؤتمرات تجمع ممثلين لأتراك تركستان فى الاتحاد السوفييتى ، وكان الهدف من هذه المؤتمرات التمهيد لإلغاء الحروف العربية .

بدأت الإدارة الروسية عام ١٩٢٨ م بتطبيق عملية اغتيال الحرف العربى بين مسلمى تركستان ، وهذا الحرف هو مفتاح ثقافتهم الإسلامية وعلوم الإسلام ،

وأحلُّوا محلَّه أبجدية لاتينية بها بعض الحروف الروسية « الكيريل » وراعت الإدارة الروسية عند الأخذ بالحروف اللاتينية ضرورة اختلاف بعض أشكال الحروف مع كل لهجة محلية . وكان هذا قراراً سياسيًّا يحقق أهدافاً روسية سياسية . وتمثَّلت هذه الأهداف فى :

١ - قطع كل صلة بين تركستان وبين الإسلام .

٢ - تفريق المسلمين وعدم وحدتهم باستخدام أبجدية مختلفة لكل مجموعة منهم .

٣ - قطع الصلات بين المسلمين فى تركستان وبين الثقافة الإسلامية .

٤ - منع الارتباط وقطع الصلات بين مسلمى تركستان وبين الشعوب الإسلامية المجاورة سواء فى داخل الاتحاد السوفييتى مثل القِرْم قبل ضمِّها إلى أوكرانيا أو خارج الاتحاد السوفييتى مثل أفغانستان .

ولم تكن السياسة السوفييتية فى اغتيال الحرف العربى فى تركستان واستبداله بالحرف اللاتينى إلا خطوة نحو تفتيت وحدة مسلمى تركستان . فبإلغاء الحرف العربى قطع الروس صلة جيل العشرينيات من المسلمين بالإسلام لكن هذا الجيل كان يعرف الحرفين العربى واللاتينى ، فكانت الخطوة التالية للسياسة الروسية اللغوية إصدار أمر مركزى يفرض على مسلمى تركستان الغربية ترك الأبجدية اللاتينية أى الحرف اللاتينى واتخاذ الحروف الروسية الكيريلية بديلاً . صدر هذا الأمر عام ١٩٤٠ ، ولم ينس هذا الأمر المركزى ضرورة إيجاد حروف متميزة - فى نطاق الحرف الروسى - لكل شعب من شعوب تركستان ضماناً لابتعاد كل منها عن شقيقه الآخر .

وحدث الأمر نفسه عندما ألغى الروس الحرف العربى وقتلوه : أن أحرقوا وأبادوا الكتب الإسلامية (عام ١٩٢٨) ، وفى عام ١٩٤٠ م عندما ألغوا الحرف اللاتينى الذى أكرهوا المسلمين على استخدامه أحرقوا ما كتب بهذا الحرف .

وبالطبع كان للروس ادعاؤهم فى هذا الاغتيال وفى فرض الحرف الروسى على المسلمين . قال الروس وقتها إن الحروف الروسية أكثر تعبيراً عن اللغة التركية فى تركستان ، وأكثر تعبيراً من الحروف العربية والحروف اللاتينية .

ولم يقتصر الأمر فى قضية اغتيال الحرف العربى فى تركستان على قطع صلة هؤلاء المسلمين بالإسلام فقط ، وبالتالى خضوعهم للنظام الماركسى بسهولة .. وإنما يتعدى إلى هدف روسى آخر هو إجبار المسلمين على ترك الحرف العربى وتَمَثُّل الحرف الروسى - من الوجهة الروسية الرسمية - سيجعل هؤلاء المسلمين التركستانيين أمام إمكان تعلمهم اللغة الروسية وهى لغة الاتحاد السوفييتى ، وسيتيح فرض الحرف الروسى على المسلمين تسرب الكلمات الروسية ومصطلحات هذه اللغة وتعبيراتها بل وروحها إلى اللغة التركية التى يتحدثها أهل تركستان .. وفى هذا يقول العالم السوفييتى « باسكاكوف » عام ١٩٥٢ م :

« إن من أهم الإنجازات التى وصلت إليها شعوب الاتحاد السوفييتى ثقافياً هو اتخاذ الشعوب السوفيتية غير الروسية لنظام الخط الروسى فى الكتابة . إن الحروف الروسية ستعمل على تطوير اللغات المحلية (يقصد اللهجات المحلية فى تركستان) وفى الوقت نفسه تساعد هذه الشعوب على سرعة تعلم اللغة الروسية . وبالتالى يعمل الحرف الروسى عمله فى سرعة تذويب هذه الشعوب غير الروسية وخضوعها للثقافة الروسية وتأثيراتها بشكل واضح » .

ولم ينس الروس - وهم يطبقون قضية إبعاد المسلمين عن إسلامهم وتراثه عن طريق اغتيال الحرف العربى - أن يحذفوا من لغة التركستانيين الكلمات والمصطلحات العربية فى هذه اللغة ، وهى كثيرة بحكم ارتباط الأتراك وغيرهم بالإسلام ، واستبدال ذلك بكلمات روسية ، وملء هذا الفراغ باصطلاحات روسية ، خاصة التكنيكية منها والسياسية والأدبية وغيرها .

ماذا عن اغتيال الحرف العربى فى تركستان الشرقية :

تخضع تركستان الشرقية - حتى الآن - لاحتلال الصين الشعبية الشيوعية . ويطلق عليها الصينيون اسم سين كيانج بمعنى « المستعمرة » ، ويحرم هناك استخدام الاسم الإسلامى وهو « تركستان الشرقية » كما ذكرنا .

كان اغتيال الحكومة الصينية الشيوعية للحرف العربى رسميًّا عام ١٩٥٦ م . يعنى فى ذروة العلاقات الحميمة بين الاتحاد السوفييتى والصين . وعلى ذلك صدر قرار

الصين بإلغاء استعمال المسلمين للحرف العربى فى تركستان الشرقية ، ومقابل هذا أمرت الحكومة الصينية بإحلال الحرف الروسى القبيح ، المسمَّى الكيريل ، محل الحرف العربى الإسلامى الجميل .

ولما توترت العلاقات بين الصين الشيوعية وبين الاتحاد السوفييتى ، أصدرت الحكومة الصينية قراراً فى فبراير عام ١٩٦٠ بتحريم استخدام الحروف الروسية فى كتابة اللغة العربية فى تركستان الشرقية وأمرت باستبداله بحروف جديدة أساسها الحروف الصينية ، لكنها تجمع بين الحرف الصينى والحرف اللاتينى .

وعن طريق هذا التغيير فى الحروف دخلت فى لغة التركستانيين الشرقيين كلمات وتعبيرات واصطلاحات صينية كثيرة بعد أن لم يكن منها شىء قبل احتلال الصين الشيوعية لتركستان الشرقية عام ١٩٤٩ م .

وعن طريق هذا التغيير أيضاً أمرت حكومة الصين أن تكون الكتب المدرسية فى مدارس تركستان الشرقية ترجمات للكتب الصينية المدرسية وغير المدرسية . ومن هذا أيضاً زادت الكلمات الصينية ومصطلحاتها قسراً فى اللغة التركية الإسلامية هناك ، وزاد الأمر سوءاً بعد أن رفعت السلطات الصينية شعار « اللغة الصينية هى الوسيلة الوحيدة للتقدم » . وأخذت الدوائر الرسمية الصينية ترجح النظر فى طلبات المسلمين الذين يكتبونها باللغة الصينية .

وفى تركستان الشرقية يقطن من القبائل التركية المسلمة : الأويغور والأوزبك والقازاق والقيرغيز والتتار وغيرهم . لغة الجميع : التركية ، وحتى لا يتفاهم الجميع عملت السلطات الصينية على جعل كل لهجة من لهجات هؤلاء الأتراك لغة مستقلة تأسيًا بالسياسة الروسية فى هذا الأمر . واستمر هذا الوضع أيام حكم ماوتسى تونج . لكن الأمور فى الصين تغيرت كثيراً بعد زوال تأثير ماو ، واستفاد المسلمون فى تركستان الشرقية كثيراً من انتهاء غمة ماو ، وحدثت تغيرات كثيرة فى حياة المسلمين فى تركستان الشرقية .

[٢]

الروس يحاربون الإسلام فى اللغة التركية

اللغة التركية قضية سياسية وفكرية قذفت بها أحداث تركستان والقوقاز فجأة إلى مصافِّ المشاكل الأولى التى تواجه دول الكومنولث الجديد لتتحكم فى العلاقات الخارجية بين الدّول التى استقلّت حديثاً فى هذه المنطقة وبين العالم الإسلامى من جهة ، وبين تركيا الرائد الطبيعى للمنطقة من جهة أخرى . فاللغة التركية قفزت إلى السياسة بعد زيارة المهندس سليمان ديميريل رئيس وزراء تركيا (عام ١٩٩٣ م) ورئيس حزب المنهج المستقيم ، وهو حزب يمينى ، ونائبه أردال إينونو نائب رئيس وزراء تركيا ورئيس الحزب الاجتماعى الشعبى ، وهو حزب يسارى ، لمنطقة نخجوان فى آذربيجان .

تعود المشكلة السياسية للغة التركية إلى أصل الأتراك ، فأتراك تركستان (ومعناها أرض الأتراك) وأتراك تركيا وأتراك كل دول الكومنولث التى استقلّت حديثاً والتى لم تستقلَّ بعد ، هم من أصل واحد وهو الأصل التركى . وباستثناء طفيف نجد أن كل الأتراك يتكلمون اللغة التركية بلهجات مختلفة كالعرب فى لهجاتهم ، واللغة الفصيحة بين أتراك العالم كله هى اللغة التركية بلهجة استانبول .

والأتراك - عندما اعتنقوا الإسلام - أحبوا الإسلام حبًّا ملك عليهم شغاف قلوبهم ، فأحبوا كل ما يمتُّ إلى الإسلام بصلة من قريب أو بعيد ، أحبوا الله ، وأحبوا رسوله ﷺ ، وأحبوا القرآن ، وأحبوا السنَّة والشرع ، وبنوا على حبهم هذا مجتمعات ودولاً .

اتخذ الأتراك عقب اعتناقهم الإسلام الحروف العربية التى كُتب بها القرآن الكريم حروفاً للغتهم التركية وتركوا الحروف السابقة على الإسلام ، وأصبحت اللغة التركية فى العالم كله تُكتب بالحروف العربية .

وأحب الأتراك اللغة العربية والشرع ونقلوا إلى لغتهم اصطلاحات الفقه كلها ،

ولم يكتفوا بذلك بل أخذوا الكلمات أيضاً ، بل وبالغوا فى حب اللغة العربية مبالغة أدت إلى أنهم تركوا كثيراً من مفردات اللغة التركية الحياتية واستعاضوا عنها بالمقابل لها فى اللغة العربية . ثم قفزت اللغة العربية – عند الأتراك – فجأة إلى العلوم المختلفة كالطب والفلك والصيدلة والجغرافيا ، فدارت فى فلك المصطلحات العربية الإسلامية ، وهكذا انطبعت اللغة العربية فى حروفها ومصطلحاتها وكثير من كلماتها فى الأتراك حتى نسوا الكلماتِ التى كانوا يستخدمونها قبل الإسلام .

استخدم أتراك تركستان الحروف العربية فى كتابة لغتهم التركية على لهجاتها المختلفة ، وتبنوا أيضاً المصطلحات العربية حتى صارت تركية .

واستخدم أتراك القوقاز – مثلهم فى هذا مثل أتراك أذربيجان – الحروف العربية والاصطلاحات والكلمات العربية حتى تجملت لغتهم جمالاً فوق جمال ، فاللغة التركية لغة جميلة حقًّا ، وطلاوة العربية زادت جمال التركية وبهاءها .

واستخدم أتراك تركيا الحروف العربية فى كتابة لغتهم التركية ، واستخدموا المصطلحات والكلمات العربية .

وكان كل هذا سبباً فى تقريب الأتراك من بعضهم البعض ، ومن تقريب الأتراك جميعاً إلى العرب وإلى المسلمين ، وتقريب هؤلاء إلى الأتراك . وكان الأمر يسير سيره الطبيعى إلى أن قامت « هوجة » القومية فى بلاد المسلمين ، وقامت « هوجة » العلمانية فى بلاد المسلمين ، ثم قامت « هوجة » التغريب فى بلاد المسلمين .

خطة الاستعمار الشيوعى :

تزامنت هذه الهوجات على العالم الإسلامى بخطر تقدم الثورة الشيوعية وقيام الدولة السوفييتية التى سارت على نهج استعمارى والتهمت تركستان الغربية والقوقاز بما فيهما من مسلمين .

وطبق الاستعمار الشيوعى خطته الثقافية وهى :

١ – إلغاء الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية فى تركستان الغربية والقوقاز .

٢ – استبدالها أولاً بحروف لاتينية ثم بحروف كيريلية (روسية) .

٣ – إدخال المصطلحات التقنية الروسية فى اللغة التركية للشعوب التى تحتلها روسيا.

٤ – تقنين أبجدية تركية وقواعد نحو تركية خاصة بكل لهجة من لهجات الأتراك (مثلما يفعل الآن دعاة كتابة العامية فى البلدان العربية) .

وكانت النتيجة أن ابتعد المسلمون فى تركستان الغربية والقوقاز – أو من نعرفهم الآن باسم مسلمى آسيا الوسطى – عن تراثهم الإسلامى أولاً ، وعن بعضهم البعض ثانياً ، وعن مسلمى العالم ثالثاً .

لكن الذى يلفت النظر فى هذه المسألة أن المسلمين فى تركستان والقوقاز حافظوا على الكلمات والمصطلحات العربية ولم يطرحوها خارج لغتهم ، بل اعتبروا أن لغتهم التركية نقية بدليل كثرة العربية فيها .

كان هذا هو المحور الأول فى محاولة إبعاد تركيا عن اللغة العربية . أما المحور الثانى فى مسألة اللغة التركية ، فقد تزامن مع ثورة أتاتورك وإعلانه قيام تركيا جديدة منسلخة عن الدولة العثمانية ، فكان له دلالته فى اللغة التركية . كيف ؟

كان العثمانيون يستخدمون الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية فى لهجتها فى تركيا الأناضول (آسيا الصغرى) وأقام العثمانيون دولتهم على أساس الشرع الإسلامى ، وبالتالى كان لا بد من دخول التعبيرات والمصطلحات العربية . والكلمات العربية هى الغالبة على اللغة العثمانية ، حتى أن بعضهم كان يقول : ليس فى اللغة العثمانية من كلمات تركية غير أداة الخبر (دِرْ) بمعنى يكون ، وهذا واقع حدث فى بعض عصور اللغة التركية فى الدولة العثمانية ، فقد غلَّبوا الكلمات العربية ومصطلحاتها على لغتهم التركية ، وهذه حقيقة لا نقاش فيها ، لأنها ماثلة أمام الأعين .

وكانت اللغة العربية لغة العلم ، أى العلم الإسلامى والعلوم الدنيوية أيضاً . وكان هذا احتياج الأتراك ، لأن الإسلام هو حياة كاملة بجوانبها المتعددة والشرع والفقه ، والعلوم تنظِّم علاقة الإنسان بالمجتمع والحياة ، وبالتالى كان لا بد من نفاذ مؤثرات اللغة العربية إلى اللغة التركية .

مفارقة لغوية :

ولما تولى أتاتورك السلطة فى البلاد قام باتخاذ عدة إجراءات جريئة سياسية وفكرية واجتماعية ، فهو قد (ألغى) الدولة العثمانية من الوجود ، و (ألغى) الخلافة الإسلامية من على ظهر الأرض ، و (ألغى) الكيان التاريخى للشعب التركى بصفته أحد الشعوب الشرقية ، واتجه به إلى الغرب ، و (ألغى) المثل الأعلى التركى من الحياة التركية وهو (الإسلام) واستبدل به المثل الأعلى عنده وهو (القومية - العلمانية - الغربية) .

وبناء على هذا أنشأ أتاتورك مجمع اللغة التركية وأوكل إليه أمر تصفية الكلمات العربية والمصطلحات فى كافة المجالات من اللغة التركية واستبدال ذلك بكلمات تركية منحوتة من أصول اختفى التعامل بها ، واستبدالها كذلك بكلمات بديلة ومصطلحات بديلة من اللغات الأوروبية وخاصة اللغة الفرنسية ، فأصبح للأتراك فى (آسيا الصغرى) لغة تركية جديدة على الأتراك أنفسهم . وظل الأمر كذلك حتى جاءت الحكومة الاشتراكية (حكومة أجاويد فى تركيا) لتسرع الخطى فى إخراج الكلمات العربية ومصطلحاتها ونحت بدائل لها . وأصبح الأمر فى الأسرة التركية الواحدة أن الجد يتكلم بلغة عثمانية مليئة بالألفاظ والمصطلحات العربية ، والأب يتكلم باللغة الوسط بين العثمانية وبين اللغة الجديدة ، والولد يتحدث بلغة تركية كلماتها منحوتة من أصول تركية بطُل استعمالها ومصطلحات أوروبية لا يفهمها والده ولا جده .

والتيار القومى التركى يغذى هذا الاتجاه الجديد ، وكذلك الاتجاه الاشتراكى الذى يريد إبعاد الشعب عن تراثه الإسلامى لكى يتجه إلى عالم اشتراكى جديد ملحد ، ناهيك عن أن أتاتورك أمر بإلغاء الحروف العربية فى كتابة اللغة التركية ، لذلك بَعُدَ الأتراك فى تركيا عن التراث . وتبدلت كلمات اللغة التركية فى تركيا وبَعُدت العربية الجميلة عنها وجاءت كلمات منحوتة لا يرضى عنها الشعب التركى ، ودخلتها مصطلحات أوروبية كثيرة فى الحياة العامة . فمن الكلمات العربية التى دخلت التركية واستخدمها الأتراك كلمة « احتمال » نحتها الكماليون فى الأيام الأخيرة

فجعلوها « أولاسيليق » وكلمة « منفى » أصبحت « أولومسز » وكلمة « رسول » أصبحت « يالواج » ولفظ الجلالة « الله » جعله الكماليون « طانرى » و « أفرن » بمعنى الكائنات ، وهى كلمات نحت واشتقاق من اللغة التركية كأن الأتراك قد نسوها .

وأما المصطلحات العربية التى طردها الكماليون وأتوا باصطلاحات أوروبية بديلة لها فمثل : « اكسلانس » بمعنى صاحب الفخامة ، و « لائيك » بمعنى علمانى و « ألرجى » بمعنى حساسية ، و « أليروفيست » بمعنى دون توقيع ، فى حين أن إخوانهم الأتراك فى تركستان والقوقاز ما زالوا يستخدمون لغتهم التركية بمصطلحاتها الحياتية وكلماتها الحياتية العربية الأصل .

وهنا وقف التركى من تركيا أمام أخيه المتحرر حديثاً من الشيوعية فى تركستان والقوقاز وجهاً لوجه ، لا التركى من تركيا يستطيع فهم لغة أخيه فى (آسيا الوسطى) ولا هذا المسلم التركى من تركستان والقوقاز يستطيع أن يفهم أخاه التركى القادم من الأناضول لمساعدته ماليًّا وإسلاميًّا .

وضح هذا التناقض عندما زار رئيس وزراء تركيا إقليم نخجوان فى آذربيجان ، واضطر لمصاحبة مترجم من اللغة التركية إلى اللغة التركية ! واضطر رئيس وزراء تركيا إلى استخدام الكلمات ذات الأصول العربية عندما كان يتباحث فى نخجوان مع إخوانه الأتراك . لكن نائب رئيس الوزراء وهو « أردال إينونو – ابن عصمت باشا إينونو خليفة أتاتورك – لم يكن يستخدم إلا اللغة التركية فى شكلها الجديد الملئ بالكلمات المنحوتة والمصطلحات الأوروبية ، فلم يكن أحد يفهمه هناك . فرئيس وزراء تركيا استخدم – على سبيل المثال – كلمة (تبريك) عندما كان يهنئ شعب نخجوان ، لكن نائب الرئيس استخدم كلمة (قوطلامه) .. وفهم أتراك نخجوان كلمة (تبريك) ولم يفهموا الكلمة التركية الجديدة (قوطلامه) .

العود أحمد :

إذن فالعود أحمد إلى الحروف العربية فى كتابة لغة الأتراك فى كل لهجاتها . والعود أحمد إلى المصطلحات العربية والكلمات العربية وإعادتها إلى اللغة التركية .

فها هو الأوان المناسب لدول آسيا الوسطى (تركستان والقوقاز) التى أسرعت حكوماتها بإعلان العلمانية واتخاذ الحروف اللاتينية حروفاً للغتهم .

وقد تحدث الأخ « على آق » - وهو عضو مجلس الأمة التركى سابقاً ، وصاحب ثقافة عثمانية عالية ، وتلميذ مخلص للشيخ سليمان حلمى طونه خان - عليه رحمة الله - فى هذا الصدد قائلاً : إن ترك الكلمات العربية والمصطلحات العربية خطأ جسيم ، لكن الناس فى تركيا يستخدمون هذه الكلمات وهذه الاصطلاحات فى حياتهم اليومية .

وقال « على آق » : إذا نظرنا إلى سورة الفاتحة من أولها إلى آخرها نجد أن كل كلمة فيها دخلت لغة الحديث اليومى عند شعبنا التركى المؤمن . بسم : نستخدم نحن الشعب التركى كلمة اسم بنفس المعنى العربى . ولفظ الجلالة الله : يستخدمه الناس ، وإن كان الرسميون يستخدمون لفظاً آخر وهو طانرى . الرحمن : تُستخدم نفس الكلمة بنفس المعنى فى لغة الناس ، وعندنا اسم عبد الرحمن اسم شائع بين الأتراك . الرحيم : تُستخدم بنفس المعنى ونفس التلفظ . كذلك الحمد لله ، وكذلك رب العالمين ، إلى آخر سورة الفاتحة .

قالها « على آق » كمثال على أن السياسة التركية اللغوية التى اتُّبعت منذ أول عهد الجمهورية إلى الآن لم تستطع - بعدُ - اقتلاع هذه الكلمات من الوجدان التركى .

وكلما زاد الوعى الإسلامى زادت الحاجة إلى لغة تركية عالمية تستطيع تركيا من خلالها الاتصال بالأتراك فى دول الكومنولث الإسلامية الجديدة بدون حاجة إلى مترجم يترجم بين التركى فى تركيا وأخيه التركى فى تركستان والقوقاز .

[٣]

مسلمو العالم أوْلى بإطعام مسلمى آسيا الوسطى

عانى الاتحاد السوفييتى المنحل معاناة اقتصادية رهيبة نتيجة للسياسة الاقتصادية الشيوعية وامتصاصها لخيرات الدول والشعوب التى احتلتها الروس . وبلغت هذه المعاناة حدًّا جعل انخفاض مستوى الحياة فى الاتحاد السوفييتى رهيباً . ومعنى هذا أن الاتحاد السوفييتى كان فى ذلك أقل من مستوى الحياة فى أفريقيا ، لذلك لم تكن القيادة الشيوعية بإمكانها الدفاع عن ذلك النظام ، كما شرح ذلك يوسف حمد أوغلو رئيس تحرير مجلة آذربيجان وأحد كبار قادة جبهة الشعب الآذرى .

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتى فُوجئت الدوائر الاقتصادية العالمية أن يلتسين يطلب مساعدات مالية خارجية لبلاده « روسيا » وكان حجم المساعدات التى طلبها يلتسين « ١٩ » مليار دولار أمريكى . وقال إن هذه المساعدات المقصود منها « إطعام شعب روسيا » . وكانت إحدى المفاجآت الاقتصادية العالمية أن معهد التمويل الدولى بواشنطون أعلن أن فوضى النظام الشيوعى فى جمهوريات الاتحاد السوفييتى السابق تسببت فى خسارة قدرها عشرين « ٢٠ » مليار دولار تحمَّلتها الخزانة العامة للاتحاد السوفييتى قبل انهياره . وقال معهد التمويل الدولى إن هذا المبلغ هو جزء من عائد الصادرات السوفييتية وأن هذه الأموال تم إيداعها فى البنوك الغربية فى حسابات مختلفة .

ولقد أصبح من المعلوم الآن أن تركستان والقوقاز – التى نسميها تسمية غير دقيقة باسم دول آسيا الوسطى – بلاداً غنية غنى طبيعيًّا ، فيكفى من الأمثلة القليلة أن نقول إن بترول باكو « فى آذربيجان » ليس بترولاً خاماً مثل البترول فى منطقة الجزيرة العربية والخليج العربى ، وليس فى منطقة باكو فقط بل فى كثير من نواحى آذربيجان يوجد البترول كبنزين صاف بنسبة كبيرة . وأنتجت آذربيجان فى « ٢٠ » سنة من البترول أكثر مما أنتجته الكويت فى هذه المدة » .

وأنتجت تتارستان من البترول ما بيع بمبلغ ٢٠٠ مليار دولار كانت روسيا تستولى عليها وتترك المسلمين التتار نهب الجوع والفقر .

كما صرَّح صبار مراد نيازوف رئيس جمهورية تركمانستان – عندما وقَّع على اتفاقية التعاون المشترك من أجل إيصال الغاز الطبيعى من تركمانستان إلى أوروبا عن طريق تركيا (فى استانبول ٥ ديسمبر ١٩٩١) – أن تركمانستان تمتلك مصدراً كبيراً للغاز الطبيعى وأنهم يرحبون بمن يأتى من رجال الأعمال المسلمين ليستثمر هذا الغاز بشكل مشترك . وأشار الرئيس صبار مراد نيازوف إلى مجال البترول التركمانستانى فقال : إن بلاده تنتج ٥,٥ مليون طن من البترول . وكان كل هذا يصب فى الخزانة العامة فى موسكو ، بل إن الفنيين الذين كانوا يستخرجون ثروات الأرض المسلمة كانوا من الروس حتى لا يتمكن المسلمون من إنتاج خيراتهم ، وإن وُجد قليل من المسلمين فى هذا المجال ، لكن المص الروسى جعل دولنا المسلمة المحررة حديثاً فقيرة فقراً أكثر بكثير من الفقر الذى تعانيه شعوب دولة روسيا الآن برئاسة يلتسين . الروس يطلبون الغذاء من أوروبا ، وأوروبا لا تتأخر لأن روسيا استطاعت أن توصل صوتها مبكراً فى فترة الانهيار السوفييتى وحتى الآن . لكن دولنا المسلمة فى تركستان والقوقاز « دول آسيا الوسطى المسلمة » تعانى شظف العيش والحرمان من الطعام ومن المأكل والمشرب بل والملبس .

وبُعيد استقلال هذه الدول تدفق الإسلاميون الأتراك بشكل شخصى جماعات وأفراداً لزيارة هذه الدول ، فأحسوا بمعاناة إخوانهم فى الإسلام ، وفوراً نظَّم الشعب التركى حملات جمع الغذاء والملابس لإخوانهم المسلمين فى هذه الديار ، ورأينا إعلاماً إسلاميًّا « تركيًّا » عمليًّا ، فنظمت الصحف التركية « حملات » للمساعدات الغذائية ، وبدأت ذلك جريدة « زمان » اليومية الإسلامية الصادرة فى استانبول ، فنظمت حملة مد « نخجوان » بالمساعدات الغذائية ، وتسابق المسلمون البسطاء ومتوسطو الحالة والأغنياء فى تقديم هذه المساعدات العينية للجريدة ، وتكفَّلت الجريدة بتنظيم رهط من السيارات الناقلة الضخمة وامتلأت هذه السيارات وأخذت طريقها إلى نخجوان .

وكان هذا الأمر عندما انقطعت اتصالات نخجوان بأذربيجان فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩١ ، فعاش أهل نخجوان فى جوع شديد حتى وصلت إليهم مجموعة سيارات تركية تحمل المعونات الغذائية الشعبية ، ووصلت إلى نخجوان فى ١١ سبتمبر سنة ١٩٩١ م ، فأطلق عليها مسلمو نخجوان « قافلة الإخوة » .

ثم جاء مسلمو « ألبانيا » ليطلبوا من « الشعب التركى المسلم » فى تركيا أن يمدهم بالأكل والشرب والطعام والملابس خاصة الأحذية ولا سيما أن البرد شديد وموجاته قاسية ، وكل الشعب الألبانى المسلم فقير أقل من حد الفقر الذى ألفناه فى مناطق إسلامية أخرى . وكانت المساعدات الغذائية ذات قيمة كبيرة فى الشعب الألبانى فقد أحس أنه « ليس وحده » وأن « المسلمين بخير » .

وينبغى هنا أن نشيد بالشعب الألبانى لأن الكنيسة الأوروبية عرضت على الشعب الألبانى المساعدات الغذائية الوفيرة مقابل « التنصُّر » فرفض هذا الشعب الأبىُّ كل إغراءات السفهاء الذين يقدمون الطعام مقابل الدين .

ولقد وصل الجوع بالشعب الألبانى أنه هاجم الأفران للحصول على الخبز ، بل إن الشعب هناك هاجم القطارات التى تحمل القمح رغم تصريح عبده سنانى رئيس مديرية القمح فى وزارة التموين الألبانية بأن القمح متوافر ، ساعتها وجد الشعب الألبانى أربع قوافل متطوعين من الفاتيكان تمُرُّ على القرى لتستمع إلى احتياجات الناس ، ويصرِّح مفتى مسلمى ألبانيا قائلاً : إننا نموت جوعاً ولا نقبل أن يحدثنا الكفار عن دينهم .

لكن الشعب التركى فى الأناضول وباقى تركيا أسرعوا – عندما علموا بهذا – ونظَّموا حملة « جمع الغذاء لإخواننا فى الدين فى ألبانيا » وسريعاً تحركت قافلة « الإخوة » الإسلامية التركية لتصل إلى « تيرانا » وتورع الطعام على الشعب الألبانى « الشقيق » .

ثم قام الهلال الأحمر التركى بواجبه فقدَّم « ١٤ » طناً من الأغذية والأدوية .

لكن هناك الجمهوريات الست ، وكلها تحتاج إلى الغذاء قدر احتياج ألبانيا ،

التى ذكر مراسل « المسلمون » نبيل شبيب أنها تموت وأن مستوى دخل الأسرة فى الشهر بكامله لا يصل إلى ثمانية دولارات .

كما ذكر أيضاً أن وكالة الصحافة الألمانية قد نشرت مؤخراً تقريراً عن الأوضاع السيئة فى ألبانيا يحوى معلومات مذهلة بدءاً من افتقاد الأدوية والأجهزة وحتى انقطاع الكهرباء فى أثناء عمليات جراحية يتابعها الأطباء تحت الضوء المتسرب عبر النافذة بمشارط ومباضع ظهر عليها الصدأ .

وأخيراً ظهرت الولايات المتحدة الأمريكية على الساحة « الإنسانية » ليعلن وزير خارجيتها أن بلاده بصدد إرسال معونات غذائية وأدوية إلى الدول المستقلة حديثاً – أى دول الكومنولث الجديد – وفى مقدمتها روسيا وأوكرانيا ثم بلادنا المسلمة فى تركستان والقوقاز : قازاقستان وقيرغيزستان وتركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان وآذربيجان .

لقد أعلنت مصادر من حلف شمال الأطلنطى أن طائرات الحلف سوف تشارك فى الجسر الجوى لنقل الإمدادات الغذائية لدول الكومنولث ودولنا الإسلامية .

وصرح جيمس بيكر أن هذا الجسر الجوى قد أطلق عليه أسم « جسر الأمل » وهى عملية تضم ٥٤ رحلة تصل إلى ٢٢ مدينة فى دول الكومنولث . نعم لقد أعلن وزير الخارجية الأمريكى جيمس بيكر أسماء بعض الدول والمعونات التى سوف تساهم بها فى مساعدة الشعوب السوفييتية سابقاً ، منها اليابان التى تعهدت بتقديم ٥٢ مليون دولار لشراء الأدوية ، وعرضت كوريا الجنوبية تقديم ٨٠٠ مليون دولار .

إلا أن فى العالم الإسلامى الخير ، وهو باق إلى يوم القيامة ، ولا بد أن تحذو الحكومات الإسلامية حذو المملكة العربية السعودية . وهذه الدول كثيرة وليس المطلوب منها إمكانات كبيرة ، بل إن المساعدات الغذائية والأدوية بأى قدر كان هو وسيلة للوقوف إلى جانب « الأخ الجديد الجائع » ولكى نقول له إن العالم الإسلامى ما زال بخير .

والتطلع إلى الشعوب الإسلامية لتقديم هذه المساعدات أمر أساسى ، فتجربة الشعب التركى بأن تقوم الجمعيات الخيرية والأفراد والمؤسسات بالتبرع بالمواد الغذائية والطبية ثم تنظيم كل هذا ليصل إلى إخواننا ، أمر نحن الأجدر به ، وينبغى تطبيقه شعبيًّا أيضاً وبسرعة . ودرس المساعدات الشعبية لأفغانستان ما زال ماثلاً أمام أذهاننا ؛ كيف أسهم طلاب وطالبات المدارس والجامعات ، وكيف قدَّم الرجال والنساء من أموالهم ، وكيف تكونت الجمعيات لتلقِّى التبرعات وشحن هذه التبرعات .

إن هذا هو فى روح الأمة الإسلامية ، والاستمرار فيه إنما هو استمرار لهذه الروح التى نَتشرَّفُ بها والتى شرَّفنا الله بها .

[٤]

الإسلام والصراع القومى
فى الاتحاد السوفييتى المنحل

عندما قامت الثورة الصناعية الأوروبية كانت تبحث عن المواد الخام ، وكانت تبحث أيضاً عن الأسواق . نشطت الدول الاستعمارية ونشطت القيصرية الروسية الظالمة واحتلت بلدان المسلمين فى آسيا الوسطى (تركستان) . وبالتالى خضع مسلمونا فى هذه المناطق إلى الجبروت القيصرى الروسى ، ثم الجبروت الشيوعى الروسى ، إلى أن أذن الله بانتهاء الشيوعية وسقوط الاتحاد السوفييتى ، فتحرر مسلمونا هناك .

ولا بد من القول هنا أيضاً أن المسلمين فى ديارنا المسلمة فى آسيا الوسطى وما حولها ينسبون عرقيًا إلى العرق التركى الكريم فى أغلبهم ، وهو العرق الذى أعز الله به الإسلام على مدى قرون طويلة .

ومعلوم ذلك الصراع العظيم الذى راح ضحيته ملايين من هؤلاء الأتراك فى سبيل بقائهم على الإسلام . ومعلوم أيضاً مدى القهر الماركسى الذى طمس الإسلام فى عقول الناس هناك .

أذكر هنا مثالاً هو فى الواقع عبرة : بلاد القِرْم ، عندما تحرَّرت من الشيوعية ، قام مصطفى جميل أُوغْلو فى المجلس الوطنى القومى وقال لمواطنيه التتار (وهم من الأتراك) : نعم إننا لم نعد نعرف كيف نصلى ، لكنا نؤمن بالله ربًّا وبسيدنا محمد ﷺ رسولاً ونبيًّا . ونعرف أننا على الإسلام نحيا وعلى الإسلام نموت ، لكنا لا نعرف هذا الجمال الذى يملأ قلوبنا والذى فى سبيله قاومنا الشيوعية . إنى آمر الآن بأن يُرفع الأذان فى كل المساجد التى أغلقها الشيوعيون ، يُرفع خمس مرات فى اليوم ، إلى أن يتعلم شعبنا كيف يصلى ساعتها يكون الآذان ومعه تقام الصلاة

(عندما أمر جميل أوغلو بوضع أساس مسجد جديد - بعد زمان طويل من المنع - دمعت أعين كل الذين شاهدوا هذا الحفل) .

والمثال الآخر ، هو وأن كان عبرة إلا أنه يرينا نحن المسلمين العرب عظمة الإسلام فى قلوب المسلمين غير العرب وغيرتهم عليه .

قال يلتسين الزعيم السلافى الروسى المعروف : إن روسيا تُواجَه الآن بتيار إسلامى متطرف يأتى من الجنوب ونحن هنا فى روسيا أصبحنا بذلك فى خطر ، لذلك نحن مضطرون إلى إيجاد السبل الكفيلة للتخلص من هذا التيار .

ماذا حدث بعد هذا ؟

أولاً : قام شعب مسلم صغير - مليون ونصف المليون نسمة - يُطلق عليهم اسم جمهورية الشيشان والأنكوش - بالانطلاق فى شوارع كروزنى العاصمة - والشيشان هم أحفاد الشيخ الإمام شامل قائد الجهاد القوقازى ضد روسيا القيصرية ٣٥ عاماً - يرددون فى الشوارع فى حلقات تلو حلقات : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم تجمَّعوا فى عدد هائل ليزكُّوا أحد الجنرالات المسلمين المتقاعدين وهو « جاهار دودايف » ثم لينتخبوه رئيساً لبلادهم التى أعلنوا استقلالها . وأتوا برئيسهم المنتخب جاهار ليُقسم قسَماً حدده علماؤهم وهو : أقسم بالله العظيم أن أحارب من أجل استقلال شعب الشيشان حتى آخر قطرة فى دمى . وهذا قسم كل الشيشانيين .

وقال أحد العلماء المسلمين عقب هذا القسم : « إن هذا اليوم يوم عظيم فى حياتنا . اللهم لا ترينا أياماً سوداء كالتى عشناها تحت سيطرة القوم الكافرين . اللهم بارك لنا فى حركتنا هذه فإنها غزو فى سبيلك . إننا نسير فى سبيل الله ، ولن يستعبدنا كافر بعد اليوم » .

وتألَّفت حكومة إسلامية شيشانية ، وتقاطر الناس فى الشوارع ، معهم أسلحتهم - والسلاح عند الشيشانى حياة - وأقسموا بالفداء وبانتهاز الفرصة لعودة الإسلام إلى ربوع بلادهم . ثم نداءات الله أكبر . وأعلن الشيشانيون على لسان

رئيس جمهوريتهم الجديد ، وهم على قلب رجل واحد ، علماء وقادة وشعباً ، أن يلتسين لو تحرك ضدهم أو لم يعترف باستقلالهم فإنهم :

١ - سيقطعون طريق موسكو - باكو .

٢ - سيقوم الشيشانيون المتفرقون فى مختلف مناطق الاتحاد السوفييتى بعمليات تدميرية للمؤسسات الاستيراتيجية الروسية ، خاصة النووية منها .

وفور هذا الإعلان أيدت الجمهوريات المسلمة فى الاتحاد السوفييتى جهاد شعب الشيشان وهى : كودجستان وقاراطاى وبالطاى وداغستان ، وأعلنوا أن أى اعتداء روسى على الشيشان إنما هو اعتداء عليهم .

والنتيجة : أن الجيش الذى أرسله يلتسين إلى بلاد الشيشان لم يستطع أن يفعل شيئاً ، ونصر الله هؤلاء المسلمين بتصويت برلمان روسيا بعد المعارضة التى قادها « فيكتور أنفاننكو » مدير الشرطة السرية الروسية (كى . جى . بى) ضد قرار يلتسين بإرسال الجنود ، بعد أن وصف هذا القرار بأنه « خطأ استراتيجى » . وعاد الجنود الروس - وعددهم ٨٠٠ - بل سلم هؤلاء الجنود تسع طائرات جاءت لتقلهم - سلموها هدية لرئيس جمهورية الشيشان « جاهار دوداييف » فقبلها على اعتبار أنها « هدية يلتسين للجمهورية الشيشانية المستقلة ! » .

وبناء على تعليمات علماء الدين الشيشانيين ، لم يُمسَّ أحد من الروس الذين يقطنون بلادهم - وكانوا حوالى ١٥ ألف روسى - حتى لا تكون فتنة . لكن العلماء تركوا الطريق مفتوحاً لهؤلاء الروس لمغادرة بلادهم إذا أرادوا . وهذا التصرف أسميه تصرفاً إسلاميًّا ، وغيرى قد يسميه حضاريًّا .

لقد انتهى ما عُرف بالاتحاد السوفييتى ، وقام بدلاً منه فى ٨ / ١٢ / ١٩٩١ م اتحاد « كومنولث » يضم دول : روسيا ، وروسيا البيضاء ، وأوكرانيا . عاصمتها منسك (وهى عاصمة روسيا البيضاء أيضاً) . وشعوب هذه الدول كانوا يشكلون ٧٢ ٪ من عدد نواب البرلمان السوفييتى ، ويجمعها العرق السلافى . وهذه الدول الثلاث دول عنصرية قومية لا شك أنها - رغم إعلانها فتح الباب للانضمام إلى الكومنولث الجديد - لن ترحب فى إخلاص بجمهوريات آسيا الوسطى والقوقاز ،

لأنها مسلمة من ناحية ، وتركية من ناحية أخرى ، والأتراك كانوا دوماً بالمرصاد للروس طوال التاريخ . ولا يأتى ترحيب الكومنولث الجديد بقازاقستان (وتُكتب أيضاً قازاخستان) إلا لأنها تمتلك مخزوناً استيراتيجيًّا نوويًا رهيباً . ومؤتمر ألما - آتا فى عاصمة قازاقستان ما هو إلا مؤتمر التربص بالإسلام ، ولم يكن ليُعقد إلا للاحتياج الاقتصادى الإسلامى إلى دول الاتحاد السوفييتى الآفل ، واحتياج دوله للمخزون الاستيراتيجى الإسلامى . وينتهز السلافيون فرصة الاحتياج الاقتصادى الإسلامى لهم ليضعوا الخطط الكفيلة بإبعاد الإسلام عن الجو السياسى العام فى الاتحاد الجديد ، حتى يمكن - فى صراع القوميات المحتمل - أن يتغلب السلافيون - وفى مقدمتهم الروس - على القومية التركية عند المسلمين ، ثم يبتلعونهم مرة أخرى كما حدث بالضبط أيام التهام القيصرية الروسية السلافية للمناطق المسلمة . والثابت فى التاريخ القريب وحتى البعيد أن القومية يمكن أن تهزم قومية مناوئة لكن لم يستطع أحد أن يهزم الإسلام ، وهذا ما لا يجب أن يغيب عن المثقفين المسلمين فى الاتحاد السوفييتى الآفل .

ثانياً : أن بعض الجمهوريات الإسلامية تعانى ازدواج شخصية قادتها ، فتذكر مجلة « كوبرو » أن « نهادجتين قايا » قد صرح - أثناء حكم مطلّبوف - بقوله : إن مسلمى آذربيجان لا يؤيدون « مطلّبوف » فهو يحمل ذهنية الشيوعى وإن كان يتواءم مع الوضع الجديد بُغية كسب منصبه ، لكن الإسلاميين هناك كانوا يعتبرونه عقبة أمام تقدم إسلامى حقيقى ، بل إن جريدة « زمان » نشرت أنباء حول محاولة شعب أذربيجان انتخاب أحد آخر غير « مطلبوف » وإزاحته من السلطة .

ونجحت المعارضة فى فرض الديمقراطية فى آذربيجان ، وتم بالفعل انتخاب رئيس جبهة المعارضة رئيساً للجمهورية .

ثالثاً : قصر نظرة العالم الإسلامى - خاصة العربى منه - لأنه لم يسارع بالدعم المادى للجمهوريات المسلمة المذكورة ، فلم يكن هناك استثمارات مسلمة عربية ، ولم تكن هناك معونات غذائية عاجلة لمسلمينا هناك ، ولم تكن لدى العالم العربى المسلم إذاعات توجهها لهؤلاء المسلمين الداخلين عالم الإسلام الخارجى حديثاً ،

ولم تُقدَّم اقتراحات تعاون مالى ومادى وصناعى وتجارى من عالمنا العربى المسلم ، بعكس ما فعلته تركيا بدءًا باعترافها بالدول المسلمة الجديدة ، أو ما تفعله – بإصرار شديد – إيران ، التى فتحت إذاعات موجهة لكل مناطق الأتراك المسلمين فيما كان يُسمَّى بالاتحاد السوفييتى ، غير علاقاتها التجارية الجديدة مع هذه البلدان والمساعدات التى قدمتها وما زالت تقدمها ، وبعكس باكستان أول من اعترف بجمهورية آذربيجان بعد تركيا مباشرة ، بل الشعب التركى الذى قدم سيارات نقل ضخمة كثيرة ممتلئة بالمأكولات والمشروبات والملابس ولوازم الحياة الضرورية لشعب نخجوان .

رابعاً : إن استبعاد الكومنولث السلافى النصرانى الجديد للجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز يمثل مشكلة خطيرة لها ويفتح المجال أمام خيارات متعددة للارتباط بدول مجاورة ، وتزداد الخطورة مع إدراك أن هذه الجمهوريات لا تحتفظ بعلاقات ودية – فى الأغلب – فيما بينها ، فضلاً عن مشاكلها الحدودية فيما بينها ، لذلك فإن هذه الجمهوريات هى التى سارعت للانضمام إلى معاهدة ألما – أتا .

ترى هل ينجح يلتسين – بقوميته السلافية ودينه النصرانى – فى أن يجر المسلمين ، فى مناطق آسيا الوسطى (تركستان) والقوقاز والقرم ، إلى صراع جديد بين العرقية التركية – بعد أن يجردها من الإسلام – وبين العرقية السلافية التى التهمت المسلمين زمن الروسية القيصرية ثم الشيوعية .

هنا ينبغى التوقف قليلاً لنقول : إنه سيجد من بين المثقفين المسلمين فى المناطق المحرَّرة حديثاً من الشيوعية من ينجرُّ إلى الصراع القومى المقبل . إن الفكر القومى السلافى هو الذى استمد من الثورة الفرنسية القومية نبراسه ، وظل القياصرة يجمعون الشعوب السلافية مثل بلغاريا والصرب تحت قيادتها الروحية والسياسية ، ثم انطلقت هذه الشعوب التى تؤججها نار القومية لتشارك المشاركين فى تحطيم الدولة الإسلامية الكبرى التى كانت تحمى المسلمين وقتها ، وهى الدولة العثمانية ، ودور روسيا فى تحطيم هذه الدولة الكبرى ، لا يقل عن دور أوروبا .

أقول : إن الخطأ الذى أدى بالمثقفين المسلمين إلى مواجهة الخطر الروسى

القيصرى قديماً يتبنّى فكرة القومية التركية بمعنى قومية تركية لمواجهة قهر القومية السلافية هو الذى جعل المسلمين الآن فى آسيا الوسطى والقوقاز والقرم – فى بعضها – لا يعرف من الإسلام إلا الشعور والشهادتين والإصرار على الاحتفاظ بالإسلام فى القلوب خوفاً من السلطة الغاشمة قديماً . هؤلاء المثقفون هم الذين أفرزوا المفكر التركى القومى المتعصب « يوسف أقجورا » – من دعاة الطورانية – الذى أثَّر فى أتاتورك تأثيراً كبيراً . وأثَّر هذا المفكر وزملاؤه من آسيا الوسطى فى حركة الاتحاد والترقى . وهؤلاء المثقفون من آسيا الوسطى هم الذين أفرزوا « سلطان غالييف » الذى قال إنه لا ضير فى مزج الإسلام بالشيوعية والقومية .

ترى هل سيقع المثقفون المسلمون فى المناطق التى تحررت حديثاً من ربقة الشيوعية فى فخ القومية الذى يخطط له أعداؤهم بدقة ، أم أنهم سيقولون بالإسلام عقيدة الماضى والحاضر والمستقبل عاملاً واحداً لتوحُّدهم أمام التكتلات القادمة ضدهم دون دمج الإسلام فكريًّا فى القومية أو غيرها ؟

ويا ترى هل سيجد المثقفون المسلمون فى عالمنا المسلم – التركى – الجديد على الساحة الدولية (أوزبكستان وآذربيجان وغيرهما) – من عالمنا المسلم – العربى – عوناً لهم فى تبنِّى الإسلام فكريًّا وسياسيًّا وحياتيًّا ؟

هذا العالَم المسلم – العربى – ألّا يجد له دوراً عبر نهر أموداريا الفاصل بين أفغانستان وبين المناطق الإسلامية فيما كان يسمَّى بالاتحاد السوفييتى ، يتمثَّل فى : الدعاة ، محفِّظى القرآن الكريم ، مدرِّسى اللغة العربية ، افتتاح المدارس العربية ، افتتاح المدارس الإسلامية ، الكتب ، أساتذة متطوِّعين من مختلف التخصصات الإسلامية ، مشروعات تجارية ، استثمارات ، هبات ، أوقاف ، إذاعات موجَّهة ، أشرطة كاسيت وفيديو ، دعوات للزيارات المتبادلة ، إنشاءات ، منح طلابية واسعة ، منح فى الجامعات العربية الإسلامية ، منح فى الكليات العسكرية الإسلامية ، مطابع عربية ، ترجمات من العربية تشرح معانى الإسلام فى مختلف الميادين ، إنشاء أقسام لدراسة هذه البلاد الجديدة دوليًّا فى مختلف الجامعات الإسلامية ، اهتمام الصحف العربية بنواحى الحياة فى هذه البلدان ، تكوين رأى عام

عربى فيه من الوعى ما يدفع الشباب الصغار السن إلى تبنى قضايا الإسهام فى التكوين الإسلامى الدعوى فى هذه المناطق .

وليس هذا غريباً ، فقد قام الاستاذ أسعد جوشان – الأستاذ بجامعة أنقره وأحد الزعماء الدينيين الكبار فى تركيا – بزيارة هذه البلاد وافتتاح مدارس لتحفيظ القرآن الكريم فى آذربيجان وأوزبكستان وغيرهما فى رحلة له لم تستغرق طويلاً ، يموِّلها المسلمون فى تركيا ، أى يموِّلون المدارس الأهلية الإسلامية المفتحة فى عالمنا الجديد الذى نتحدث عنه .

ولا شك أن فى عالمنا المسلم العربى عقولاً ذكية ذكاء واعياً سيقوم أصحابها بالتخطيط لبرامج أخوية للتوجه الإسلامى الصحيح السريع فى هذه المساحة العظمى من إخواننا الأتراك فى البلاد الجديدة علينا – معاملةً – والتى مَنَّ الله عليها بالتحرر من كابوس لم يكن أحد منا يحلم منذ سنوات قليلة سابقة بأنها ستُحرَّر منه ، ألَا وهو كابوس الشيوعية المخيف .

[٥]

هل هناك خوف من المسلمين على المسلمين فى آسيا الوسطى

المذهبية الإيرانية والعلمانية التركية تتنازعان على الجمهوريات الإسلامية

انحلَّ الاتحاد السوفييتى واستقلت ست جمهوريات مسلمة عنه ، تبلغ فى مجموع عدد سكانها ٧٤ مليون مسلم . استقلت وهى فقيرة تطلب العون السريع من الخارج ، مع أنها كانت غنية بالموارد الطبيعية لكنها كانت منهوبة امتصها الروس لصالحهم فيما مضى . وعندما طلبت العون وجدنا إيران وتركيا تسارعان به وها هى صحيفة « روسيسكايا » الروسية تكتب عن التنافس « الشديد » بين تركيا وإيران لدعم العلاقات مع الجمهوريات الإسلامية الجديدة .

وهذا هو الإعلام البريطانى يقول : إن إيران تسعى لتنفيذ برامج نووية بمساعدة باكستان والصين وأنها تسعى لتزويد الجمهوريات الست الإسلامية بمختلف السلع التى تحتاجها فى مقابل الحصول على المعدات والتكنولوجيا النووية وتزويدها بعلماء الذرة المسلمين من هذه الجمهوريات ، خاصة بعد تفكك مراكز البحث العلمى فى قازاقستان ومراكز التجارب النووية فيها ، وأن طهران تذكر أن بين إيران والاتحاد السوفييتى المنحل اتفاقاً لإنشاء محطتين نوويتين فى إيران منذ عام ١٩٩٠ .

ثم هذه إذاعة صوت المانيا تقول : إن إيران مستعدة لتقديم مطبعة عربية فوراً لكل دولة من الدول الستِّ ، إذا أعلنت أنها ستتخذ الحروف العربية حروفاً رسمية فى الكتابة .

والعلاقات التجارية سريعة قوية بين إيران والجمهوريات الست الجديدة . وهناك مشروعات استثمارية إيرانية فى آسيا الوسطى .

وعلى الصعيد السياسى شملت زيارة وزير الخارجية الإيرانى على أكبر ولايتى للجمهوريات الإسلامية المناطقَ الشيعية فى هذه الدول السنِّية ، هناك .

والواقع أن إيران نشيطة تعمل بحماسة لكسب مودة شعوب هذه الجمهوريات الست عن طريق الإعلام والاقتصاد والثقافة ، خاصة أن الإذاعات الإيرانية الموجهة تعمل جيداً . وإذا كان على إيران مساعدة الشيعة فى طاجيكستان وقسم من آذربيجان بحكم المذهب الرسمى لجمهورية إيران الإسلامية ، فلماذا يا ترى كل هذا الاهتمام المتزايد بالدول الخمس التركية الأخرى ؟

ترى هل السبب هو نشر الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد واضعين نصب الأعين أن خمس دول من الستِّ سنِّية ؟ وهل يمكن القول أن توجُّه إيران تَوَجُّهٌ إسلامى يبغى إعادة التعريف بالإسلام بين ٧٢ مليون مسلم سنى ؟ وكيف ؟

ترى هل السبب الثانى هو تدمير العراق للمنشآت الاستراتيجية الإيرانية الذى دفع الإيرانيين إلى إعادة بناء قوتهم الحيوية فى كافة المجالات ومنها المجال النووى ؟

أخلص من هذه الافتراضات إلى أن توجُّه إيران نحو الساحة الجديدة هو توجه دنيوى مذهبى وتوجُّه تكنولوجى استراتيجى .

وهل يجول بذهن المراقبين ، احتمالات المستقبل من هذين التوجُّهين على منطقة آسيا الوسطى والشرق الأوسط ؟ وهل هناك خوف من المسلمين على المسلمين ؟

هذا عن إيران ، أما عن تركيا فالأمر الطبيعى أن تنافس إيران وغير إيران فى المسارعة إلى التعاون والتضامن مع الجمهوريات الجديدة ، لأنها تركية وهم أتراك ، فالأصل واحد واللغة واحدة والدين واحد والمذهب واحد .

نقلت الصحافة التركية تصريحاً لرئيس وزراء تركيا المهندس سليمان دميريل فى ١٨ / ١٢ / ١٩٩١ قال فيه : « لقد زارنا رئيس وزراء آذربيجان ورئيس جمهورية تركمانستان ورئيس جمهورية أوزبكستان ورئيس جمهورية قيرغيزستان ، وقالوا جميعاً إننا نعتبر تركيا هى « الأخ الأكبر » لدولنا . إن هذه الدول المستقلة حديثاً فى حاجة إلى تقوية روابطنا معها فى ميادين الثقافة والاقتصاد والتعليم والاتصالات » .

يقول سليمان ديمريل : « لا ينبغى أن نحبط رجاء إخواننا فى هذه البلاد . إن احتياج هذه البلدان لنا لا ينفعها هى فقط بل إنه يقوى مركز تركيا الاستراتيجى فى العالم » .

نعم لقد كان لا بد لتركيا أن تستبدل وضعها العسكرى القديم كحليف استراتيجى فى حلف شمال الاطلنطى بوضع سياسى مساند للمصالح الأمريكية فى آسيا الوسطى ، فكان لا بد أن تسعى لاستغلال قرابتها للدول الجديدة وهى تقدم نفسها للدول الإسلامية الجديدة على أنها - أى تركيا - دولة ديمقراطية فتبهر بذلك هذه الدول لأنها خارجة توًا من القمقم الديكتاتورى الماركسى .

ولا شك أن الولايات المتحدة الأمريكية تحبذ فكرة تقديم تركيا إلى العالم الإسلامى « الجديد » على أنها دولة ديمقراطية غربية حتى تكون أمريكا هناك . وبذلك تكون تركيا « الرسمية » - كما قالت جريدة « تايمز » - التى تصدر فى لوس أنجلوس فى أمريكا - هى - بديمقراطيتها وعلمانيتها - « صمام الأمان من الإسلام فى آسيا الوسطى » .

نخلص من هذا أيضاً إلى أن توجُّه تركيا نحو الساحة الإسلامية الجديدة فى آسيا الوسطى له أهداف واضحة . الأول : قومى ، والثانى : مذهبى (معاصر) . أى إدخال هذه البلاد الجديدة فى إطار من العلمانية والديمقراطية الغربية . والمتابع لهذه العلاقة لا بد وأن يجول فى ذهنه احتمالات المستقبل والخوف على المسلمين من المسلمين . لا أقول المستقبل القريب ، لكنى أقول المستقبل الأقرب . فلقد فاجأتنا آذربيجان بإعلان قبولها للحروف اللاتينية الغربية فى كتابة لغتها ، تماما كما فعلت تركيا فى عهد أتاتورك . وقالت لجنة العلوم والتربية والثقافة بمجلس الشعب الآذرى : إن القرار قد صُودق عليه وسيُعمل به ابتداء من عام ١٩٩٣ . وقالت اللجنة إن الهدف من هذا القرار هو أن تتقارب شعوب آسيا الوسطى المستقلة حديثاً باستخدام أبجدية واحدة .

والآن .. لنُلق نظرة على بعض زيارات رؤساء الدول الست الجديدة لتركيا وما صرحوا به .

زار « أصغر أغاييف » رئيس جمهورية قيرغيزستان ، تركيا ، فى أواخر ديسمبر الماضى ١٩٩١ وخطب فى مستقبليه فى مطار استانبول قائلاً : أعود الآن إلى قيرغيزستان ومعى أجمل البشارات : اعتراف تركيا باستقلالنا واستعداد أمريكا للاعتراف بنا ، وهذا علمته فى أثناء وجودى الآن فى تركيا » .

وفى مكان آخر يقول الرئيس أصغر أغاييف : « لقد تحررنا من الإلحاد ونتجه الآن إلى الله ، وأننا نتطلع إلى مستقبل ليس فيه مكان للإلحاد والظلم والفساد الأخلاق ، وأن تركيا هى الشقيق الأكبر لنا » .

وكل هذا أوردته الصحف التركية المختلفة .

أما عن زيارة رئيس جمهورية أوزبكستان لتركيا فقد قالت فيها إذاعة صوت ألمانيا (الناطقة باللغة التركية) ما يلى :

١ - صرح الرئيس إسلام كريموف رئيس أوزبكستان عقب محادثاته مع الرئيس التركى طورغود أوزال بقوله : فليكن فى علم العالم كله أننا قد اخترنا طريقنا ، اختار شعبنا طريقه ، اختارت أوزبكستان « تركيا » المثل الأعلى لها .

٢ - إن الولايات المتحدة الامريكية لتؤيد تركيا كل التأييد من أجل عدم انتصار « شريعة » إيران فى الجمهوريات الإسلامية الست المستقلة حديثاً عقب انحلال الاتحاد السوفييتى .

عندما تظهر روسيا على المسرح :

أما الصحفى التركى حسين كولرجه فيقول : كان لا بد لأمريكا أن تدفع بقوةٍ جديدة لمواجهة الدول الأوروبية ، فكانت روسيا هى هذه القوة ، لكن جمهوريات آسيا الوسطى المسلمة أصبحت فى حكم « وجع الرأس القاسى » لكل من أوروبا الغربية وأمريكا . وأمريكا تفكر قائلة : إذن لا بد أن يكون الدور على تركيا ، يعنى أن أمريكا تريد أن تقول لنا : ها هى ذى الجمهوريات الجديدة تتدافع إليكم يا أتراك تركيا ، هذه الدول تعتبركم الأخ الأكبر لها . لكن أيضاً حذار يا تركيا لا تضيعى مربط الفرس ، لا تجعلى علاقتك مع هذا العملاق المسلم الجديد (يعنى دول آسيا الوسطى الجديدة) تقوم على أساس أن الإسلام هو الأول ، لا بد أن تكون هذه الدول مثلك يا تركيا علمانية ديمقراطية قومية ، وتكون حليفة لتركيا .

ويقول حسين كولرجه أيضاً فى مقالته « عندما تظهر روسيا على المسرح » : أقيمت فى القصر الجمهورى بأنقرة مأدبة تكريماً للرئيس القيرغيزى أصغر أغاييف

قال فيها : نحمد الله أننا نتوجَّه من الآن إليه بعد زوال الكابوس الماركسى .

وفى صبيحة اليوم التالى كان على الرئيس القيرغيزى زيارة مجلس الأمة التركى . وفى حفل استقباله هناك قال رئيس المجلس واسمه « جن طور أوق » للرئيس الضيف : إن أمامكم أيها الرئيس مهاماً صعبة . لقد كان خلاصنا نحن هنا فى تركيا بفضل من التطورات والإصلاحات التى قام بها أتاتورك . إننا – فى تركيا – أصحاب دولة علمانية ، ونموذج الدولة العلمانية يا سيدى الرئيس هو الأنسب لكم . ستجنى بلادكم قيرغيزستان الفوائد الجمَّة باتخاذكم النموذج العلمانى فى بناء دولتكم الجديدة . إن الخطر الأعظم المحدق بكم يا سيدى إنما يتمثل فى إقامتكم دولة إسلامية وحكم دينى إسلامى فى بلادكم .

هذه هى نصيحة رئيس البرلمان التركى فى أنقره للرئيس الزائر .

ويعقِّب الصحفى التركى على هذا مازحاً قائلاً : « وبعد أن قال رئيس البرلمان كل هذا مال على أذن الرئيس القيرغيزى هامساً : لكن هناك ما لم أقله علناً : أننا لا نستطيع بسهولة أن نخرج عن دفة السفينة الأمريكية » .

حدث هذا فى الوقت الذى كنا نمنى النفس فى العالم الإسلامى بأن جمهوريات آسيا الوسطى ستتلهف على الحروف العربية بعد أن حرمها الروس منها . لا أستطيع هنا أن أكتب رثاء للحروف العربية الجميلة فى آسيا الوسطى بعد اتخاذ دولها من تركيا الرسمية نموذجاً لها . اللهم إنى أسألك اللطف فى قضائك ، وأن يقتصر الخوف على المسلمين من المسلمين على مسألة الحروف فقط ولا يتعدَّاها إلى تبنِّى هذه البلاد الطيبة فى آسيا الوسطى لأى أمر يتعارض مع الإسلام .

[٦]

مظاهر ازدواجية الروس فى التعامل مع المسلمين والنصارى

« عندما احتفلوا بالعيد الألفي للكنيسة وأودعوا المسلمين السجون ! »

نشرت مجلة « الميزاب الذهبى » التركية فى عدد يناير ١٩٨٩ مقالاً يقول : إن الرئيس السوفييتى جورباتشوف شارك فى الاحتفال الألفى لدخول المسيحية روسيا ، وأن الدولة السوفييتية أسهمت فى ترميم الكنيسة الأرثوذكسية احتفالاً بهذه المناسبة ، وفى الوقت نفسه ألقت السلطات السوفييتية القبض على مجموعة من مسلمى الجمهوريات الإسلامية هناك وحاكمتهم وأودعتهم السجون والمستشفيات العقلية ومعسكرات العمل الشاق لكى يمضوا مدة العقوبة فيها .

وكانت التهمة التى وُجِّهت لأفراد هذه المجموعة هى : ترويج القرآن لإحياء عقيدة الإسلام ، وتحفيظه وتعليم قراءته للصغار ، وبيع الكتب الإسلامية .

أوردت المجلة قائمة بأسماء ١٦ مسلماً ومسلمة من هذه المجموعة مع التهم التى حُوكموا بسببها منهم : « نظام الدين أحمد أوف ، وباى مير زاده يف ، وم. رجب أوف » والتهمة الموجَّهة لكل منهم هى تعليم مجموعة من الأطفال قراءة القرآن .

كما وجهت للثانى أيضاً تهمة تعليم الإسلام للأطفال ، وهى نفس التهمة الموجهة لكل من : « ز. أحمد أوف وعمر أوف ، وأحمد بكير أوف » الذى اتُّهم كذلك ببيع كتب إسلامية ، بالإضافة إلى « م. يومان أوف » .

وتضمنت القائمة كلًّا من : « ب. كريم أوف وأ. نيازى أوف وأ. حسن أوف وجميل خوجة مراد أوف وأكبر أسكولووف » والتهم الموجَّهة إليهم هى قراءة القرآن بالإضافة إلى تهمة تعليمه الموجَّهة إلى الأخير ، و « إمام عزيز خوجة » لقيامه بنشاط إسلامى دون تصريح ، و « سلطان أوف وعائشة أحمد أوف » لنشرهما العقيدة الإسلامية .

الخوف من الإسلام :

قالت المجلة : إن النصرانية لا تشكل خطراً على النظام السوفييتى ، إنما الخوف على مستقبل الشيوعية يأتى من الإسلام ، فهو الدين الذى لا يتفق مع الشيوعية . وهناك صحوة أخذت فى التطور فى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى ، وهذا من شأنه فتح الطريق أمام أحداث أكبر حجماً ، ومن ذلك أحداث جمهورية قازاقستان السوفييتية فى عام (١٩٨٨ م) وهى أحداث تدخل فى نطاق الصحوة الإسلامية المذكورة ، وأن المراقبين السياسيين يقولون : إن انتصار الأفغان على القوات الروسية وانسحابها من أفغانستان سيكون له تأثيره الحيوى فى المجتمعات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى ، كما سيعطى المسلمين هناك القدرة على الحركة مستقبلاً .

فإذا أضفنا إلى هذا أن المسلمين كانوا يشكِّلون بجمهورياتهم الإسلامية ما يقرُب من ثلث العدد الكلى للاتحاد السوفييتى ، وأن عددهم فى الجيوش السوفييتية بمختلف أسلحتها قد وصل إلى ما يقرب من ثلث العدد فى هذه الجيوش ، ندرك مدى حرج الإدارة السوفييتية إذا قام المسلمون بالمطالبة باستقلال إدارى .

هناك عوامل أخرى من سوء الإدارة الداخلية فى الاتحاد السوفييتى عبَّر عنها الصحفى الآذرى مهرى بان وزيروف الذى هرب من بلاده آذربيجان أثناء الحكم السوفييتى بقوله : « إن المسلم لا يستطيع أن يعيش فى آذربيجان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية بما يغطِّى احتياجاته الأساسية فى المعيشة ، والذى يريد أن يقدر على المعيشة الطبيعية البسيطة هناك لا بد أن تكون « إحدى يديه فى جيب الدولة » وأن الذى يسرق الدولة فى روسيا يلقى – فى حالة القبض عليه – جزاءه ، لكن « اللصوص الكبار » فى الاتحاد السوفييتى يشنقون اللصوص الصغار » .

وقال مهرى بان وزيروف أيضاً : « إنه لو أُقيم أوليمبياد عالمى للرشوة سيحصل الاتحاد السوفييتى فيه على المركز الثانى بكل تأكيد إذا فات منه – لأى ظرف من الظروف – المركز الأول » .

عريضة إلى الرئيس :

نظراً لتشدُّد الاتحاد السوفييتى فى معاملته للمسلمين ، فى الوقت الذى كان يُظهر تسامحاً كبيراً مع النصرانية ، أخذت جريدة « الفكر الجديد » التركية (مارس ١٩٨٩ م) فى الإعداد لحملة ضخمة للمطالبة بالعفو عن المسجونين المسلمين بهدف الإفراج عنهم . ووُجِّهت هذه الحملة إلى الرئيس السوفييتى ميخائيل جورباتشوف . أخذت هذه الجريدة تجمع التوقيعات على عريضة مقدمة إلى الرئيس السوفييتى لإرسالها إليه عن طريق السفارة السوفييتية .

تقول العريضة : إننا على علم تام بتصريحكم بترميم الكنائس فى الاتحاد السوفيتى ، وهى مراكز للدين المسيحى ، وذلك حتى تظهروا مدى احترامكم لحرية الاعتقاد . كما أن اشتراككم فى احتفالات العيد الألفى للكنيسة الأرثوذكسية – من وجهة نظرنا – مظهر واضح لاحترامكم لحرية العبادة والاعتقاد .

وبينما نعلم كل هذا نجد أن بعض المواطنين المسلمين فى الاتحاد السوفييتى قد عُوقبوا ولم يكن لهم من ذنب إلا الاعتقاد والعبادة ، وقد علمنا بذلك من تصريحات منظمة العفو الدولية .

إن هذا التناقض دفعنا إلى التفكير بأنكم تطبقون مستويين مزدوجين من المعاملة تجاه مواطنيكم .

إننا نطالب ونتمنى أن تبذلوا جهودكم لضمان الإفراج عن مواطنيكم المسلمين المهتمين بالفكر صراحة . ويتردد أن مثلهم المئات مودعون فى سجون الاتحاد السوفيتى ومستشفياته للأمراض العقلية ومعسكرات العمل الشاق فيه ، وغير ذلك من الأماكن المشابهة .

[٧]

هل يُلدغ المسلمون فى آسيا الوسطى من نفس الجحر مرتين

استقلَّت دول آسيا الوسطى الست المسلمة ، أو بمعنى أكثر دقة : دول تركستان الغربية والقوقاز ، استقلالاً فجائيًا نتيجة لانحلال الاتحاد السوفييتى مرة واحدة وبسرعة شدَّت انتباه المراقبين . استقلت دولنا المسلمة هذه بنفس كوادرها القديمة فى السلطة ، وهى نفس كوادر الحزب الشيوعى المنحل . استقلت دولنا المسلمة الست وقياداتها كما هى ، ووضعها الاقتصادى كما هو ، ووضعها العسكرى كما هو : الشيوعيون يحكمون ، والشيوعيون يديرون ، وروسيا ما زالت القابضة اقتصاديًا ، وروسيا هى المسيطرة عسكريًا ، وأنها لَحقيقة أن دولنا الستَّ فى تركستان الغربية والقوقاز « آسيا الوسطى » ما زالت بلا جيش يدافع عنها أو يصد عنها اعتداءً . إنه استقلال - كما نقول - على الورق .

فى الواقع إن تنفُّس الإسلام كان هو الحدث الحقيقى الذى أحسَّ الناس هناك فيه بالاستقلال . وهذا فى حد ذاته المكسب الأسمى ، لكن المكاسب الطبيعية بعد الاستقلال ضرورة لأنها حياتية . فالذين زاروا هذه البلاد عادوا ليقولوا : إن الزعامات الشيوعية المحلية كانت تستغل الشيوعية اسماً ورسماً فقط ، لكن الجميع فى إسلام واعٍ .

أما الواقع فقد كان عكس هذا أحياناً . فعلى سبيل المثال : فطن الطاجيك فى طاجيكستان إلى أنهم ما زالوا أسرى العقلية الشيوعية ، فثار الناس على « نابييف » وأجبروه على سماع كلمتهم ، وكان من الدهاء بحيث استطاع تسكين ثائرة الناس ووقف موقفاً وسطاً . لكن الرئيس السابق « مطلَّبوف » - وكانت شخصيته قوية يستطيع التأثير فى « الجماهير » - وجد وسطاً مختلفاً فى آذربيجان ، فقد شكَّل الإسلاميون هناك تياراً قويًا سبق انتخاب « مطلَّبوف » رئيساً ، وهذا التيار هو الذى

تحوَّل إلى جبهة الشعب الآذرى ، وهى الجبهة التى قادت الشعب الآذرى للوقوف أمام الاجتياح السوفييتى لمدينة باكو عام ١٩٩٠ ، وهذه الجبهة هى التى عزلت « مطلبوف » وقاومت الانقلاب الذى أتى به مرة أخرى . أو فلنقل : توجت معارضتها بانتخاب الشعب فى آذربيجان زعيم الجبهة رئيساً للجمهورية . وفى أوزبكستان جبهة معارضة تحمل اسم « برليك » . وفى قازاقستان جبهة معارضة هى حركة « أزاد » .

والمعارضة فى بلادنا المستقلة حديثاً هى معارضة للنظام المخضرم بين الشيوعية والاستقلال ، معارضة تهدف إلى طلب الاستقلال الفعلى والمجىء بالإسلام .

إن صوت المعارضة فى كل الدول الست له وقفة طويلة مع التعاون الإسلامى الروسى .

وقد عُقد فى طشقند عاصمة أوزبكستان – إحدى الدول الإسلامية المستقلة – مؤتمر قمة هدفه إنشاء حلف عسكرى من الدول المستقلة حديثاً – إسلامية وغير إسلامية – على أنقاض الاتحاد السوفييتى . لم يصادق على إقامة هذا الحلف من هذه الدول إلا ست فقط . وانضم إلى هذا الحلف العسكرى الجديد كل من روسيا وأرمينيا بالإضافة إلى أربع دول إسلامية من مجموع الست دول . وهذه الدول الإسلامية هى : قازاقستان وأوزبكستان وقيرغيزستان وطاجيكستان . ورفضت من الدول المستقلة غير المسلمة كل من : أوكرانيا وبلوروسيا ومولدافيا ، ومن الدول المستقلة المسلمة التى رفضت هذا الحلف : تركمانستان وآذربيجان .

وقد عبر الرئيس الروسى يلتسين عن أمله بل تلهفه على أن الدول الرافضة لهذا الحلف العسكرى الجديد ستعود وتوافق عليه . نعم .. لقد وقَّع على هذا الحلف الذى يحلو لى تسميته باسم « الحلف المصيدة » رؤساء ست دول فقط ، ومع ذلك لا بد أن يرجع الجميع إلى برلماناتهم للمصادقة .

ونعود لمسألة الكوادر مرة أخرى : فالشيوعيون وإن تخفوا الآن تحت اسم الوطنية فى الأجهزة التشريعية والتنفيذية فى « دول آسيا الوسطى » إلا أن لهم الكلمة .

إن هذه غائلة تودى بأحلام المسلمين فى تركستان الغربية والقوقاز ، فكيف أدخل

المصيدة بنفسى للمرة الثانية ؟ وكيف أُلدغ من الجحر مرتين ؟ وعلى ذلك اجتمعت أحزاب المعارضة الإسلامية والمؤسسات الديمقراطية لكل من أوزبكستان وقازاقستان فى مدينة طشقند وناقشت هذا الموقف الخطير حقًّا ، وأصدرت بياناً مشتركاً قالت فيه : « نحن الموقِّعين أدناه قوى المثقفين المسلمين والمعارضة والأحزاب السياسية والقوى الديمقراطية نعلن معارضتنا معارضة كاملة لإقامة حلف عسكرى جديد يربط جمهوريات آسيا الوسطى المسلمة بدول روسيا الاتحادية ، ذلك لأن هذا التكوين العسكرى المنشود لن يشبه حلف شمال الأطلنطى كما قيل . إن الدول المشتركة فى حلف شمال الأطلنطى يربط بينها نوع من التعادل والتوازن من حيث القوة العسكرية فى كل منها ، والعكس هو الموجود تماماً فى حالة هذا الحلف الجديد ، فليس فيه أى نوع من التعادل أو التوازن العسكرى بين روسيا وبين جمهورياتنا التى هى فى الواقع مستعمرات سابقة لروسيا . إن هذا الحلف العسكرى الجديد سيعطى الفرصة مرة أخرى لموسكو لاستعمارنا وامتصاصنا . إننا دول مستقلة لكننا لم ننشىء بعدُ جيوشاً وطنية فى دولنا » .

وقد وقَّع على بيان طشقند الشعبى هذا العديد من قادة وزعماء المؤسسات الشعبية مثل : حركة « بيرليك » و « أرك » فى أوزبكستان ، وحركة « أزاد الشعبية » و « جلنوكسان » فى قازاقستان ، وحركة شعب تركستان فى كلتا الدولتين .

وقد اتَّفقت جميع أحزاب المعارضة على معادلة بسيطة وصحيحة وهى : « طالما لم تنشىء دولنا جيوشاً خاصة بها ولم تسكّ النقود الخاصة بها فلا يمكن أن تُعَدُّ دولاً مستقلة » .

وقد صرَّح محمد صالح رئيس حزب « أرك » الديمقراطى وهو حزب معارض آخر فى أوزبكستان بأنه وجَّه نداءً إلى برلمان أوزبكستان يطلب من أعضائه عدم التصديق على معاهدة هذا الحلف العسكرى .

وكان لتصريح محمد صالح أهمية بالغة . فقد خاطب أعضاء البرلمان بحزم وقوة وقال : إن على أوزبكستان أن تنشىء جيشاً خاصًّا بها وأن تؤمِّن أمنها وتضمن حدودها وتدافع عن نفسها بنفسها . وقال : إنه لا يمكن الثقة فى موسكو بأن تقوم مكان أوزبكستان فى كل هذا .

إن المعارضة فى دول آسيا الوسطى تتعامل باسم الإسلام . والإسلاميون هم الذين يقودون المعارضة فى هذه البلاد . إن نجاح المعارضة الإسلامية فى آذربيجان دليل على قوة المعارضة ، بل قوة الصوت المنادى بالعودة إلى الإسلام ، وإن كان الناس هناك يُدمجون أنفسهم فى الإسلام فيقولون : تورك – إسلام ، أى أن الوطنية التركية جزء من إسلام الأتراك ، وهذه خاصية من خصائص الشعوب التركية .

[٨]

العلاقات التاريخية المتأخرة بين تركيا وآسيا الوسطى

الأصول العرقية الواحدة والجذور اللغوية الواحدة والعقيدة الواحدة تربط تركيا بالدول الإسلامية الجديدة ، التى نطلق عليها أحياناً « الدول الإسلامية فى مجموعة الكومنولث المستقلة » وأحياناً « دول آسيا الوسطى الإسلامية » .

ونتحدث هنا على بدء الاتصال الحديث بين أتراك تركيا وبين أتراك هذه المجموعة الدولية الجديدة ، ثم سير هذا الاتصال حتى يومنا هذا . وأحب أن أنبه هنا إلى أن السلطة المركزية للاتحاد السوفييتى المنحل كانت قد أصدرت مرسوماً بتحريم استخدام تعبير « تركستان » وتجريم استعماله ، والاستعاضة عنه بتعبير « آسيا الوسطى » .

ويبدو أن تعبير « تركستان » بمعنى بلاد الأتراك ، وبمعنى أرض الأتراك ، فيه ما فيه من الدعوة إلى الوحدة بين الأتراك ، وكان هذا يتنافى مع السياسة الأممية للاتحاد السوفييتى المنحل .

فإذا عدنا إلى الموضوع ، وهو بدء الاتصال الحديث نقول : إنه بدأ بالثورة الفرنسية التى كانت أفكارها القومية وفصل الدين عن الدولة معول هدم فى الدولة العثمانية ، التى اعتمدت على الدين وليس على العرق فى تنظيم شئون الدولة .

وقد قام المفكرون اليهود – أو ما يسميهم المتخصصون فى هذا الباب يهود الخارج – بعمل دراسات عرقية للأتراك وتطوير فكرة العرق التركى وضرورة اتحاد شتاته فى دولة واحدة ، وهؤلاء المفكرون اليهود هم : لاملى ديفيلز وليون كاهون وفامبرى .

وعن طريق هذه الكتابات مال بعض المفكرين الأتراك المدنيين إلى تبنى الفكرة القومية الممتزجة بالفكرة الديمقراطية الغربية . وعلى رأس هؤلاء أحمد رضا بك ،

وهو ثائر وسياسى عثمانى ورئيس مجموعة الاتحاد والترقى فى باريس ، وكان يحظى بتأييد الجمعية الإسرائيلية بمصر ، وهو صاحب مجلة « مَشْوَرتْ » الذى بيَّن فيها طرقه فى التفكير الذى اتسم بتبنى المذهب الوضعى الأوروبى .

وهؤلاء المفكرون المدنيون الذين رأسهم أحمد رضا هم الذين كوَّنوا الجناح المدنى فى جمعية الاتحاد والترقى .

أما الجناح العسكرى من جمعية الاتحاد والترقى فكان أبرزهم : أنور باشا وجمال باشا . وقد قضى أعضاء هذا الجناح العسكرى من الجمعية أوقاتهم فى قراءة الفكر القومى واستيعابه ، وخضعوا فى هذا بالذات لكتابات يهود الداخل ، وأقصد يهود خمسمائة سنة من الآن الذين هاجروا من الأندلس إلى بلاد المسلمين ووجدوا فى الدولة العثمانية واحة الأمان لحياتهم وأموالهم ، ونشأوا فيها وأصبح منهم أصحاب الأعمال ، والكتَّاب ، والصحفيون ، وغيرهم .

وأبرز شخصية يهودية عثمانية من يهود الداخل هو موئيز كوهين ، الذى كان يكتب تحت أسماء إسلامية عثمانية . وكان هذا المفكر اليهودى قد انضم إلى جمعية الاتحاد والترقى ، عضواً سياسيًّا ومفكراً منظراً عام ١٩٠٥ . وكان رئيساً لجمعية تعميم اللغة التركية . وقد أخذ على نفسه مهمة التعريف بحركة الاتحاد والترقى فى الصحف الأوروبية . وبدأ تعريفه هذا بمقال باللغة الفرنسية عام ١٩١٢ فى باريس بعنوان « الأتراك يبحثون عن روح قومى » وقد أسهم فى التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التى سارت عليها جمعية الاتحاد والترقى ، وهى السياسة التى أثرت على العلاقات التركية العربية خاصة فى بلاد الشام .

استطاع موئيز كوهين من خلال سيادته على فكر الاتحاد والترقّى ، وعن طريق تأثيره فى المفكر التركى المسلم محمد ضياء كوك ألب ، أن يسود أفكار تضامن أتراك الدولة العثمانية مع الأتراك فى روسيا لتكوين جبهة واحدة . وضياء كوك ألب ، هذا المفكر التركى ذو الأصول الكردية ، يمكن تشبيهه بالأستاذ ساطع الحصرى فى الفكرة القومية العربية بفارق أن ضياء كوك ألب كان داخل تنظيم مؤثر فى الدولة .

فلما قُدِّر لجمعية الاتحاد والترقى الانتصار على مجريات السياسة فى الدولة العثمانية ،

وخلعوا السلطان عبد الحميد الثانى الذى كان رمزاً لفكرة الإسلام فى الدولة ، تزلزلت الأسس الفكرية التى قامت الدولة العثمانية أساساً عليها ، وهى وحدة الدين ، فاستبدلها الاتحاديون بسيادة العرق .

والواقع أنه ليس هناك ضرورة للاستطراد فى هذه النقطة بالذات ، لشعورى بأن المثقفين العرب يعرفون أنه من خلال سبع سنوات فقط من عمر دولة بلغ عمرها ستمائة سنة صبغ الاتحاديون اسم الدولة العثمانية - وهى من هذا براء - باسم الطورانية ، أى سيادة العنصر التركى على عناصر الدولة الأخرى ، ووحدة هذا العنصر بأتراك الخارج . وما فعله جمال باشا فى الشام بدافع الفكرة الطورانية ماثل أمام الجميع حتى الآن .

ولعل الآن هو الوقت المناسب لمسٍّ مفهوم الطورانية من قريب . فالطورانية هى وحدة كل أتراك العالم فى دولة واحدة . والقصد من إشارتنا إليها هنا ليس لبيان الموقف العربى منها ، وإنما لأن الضباط الأحرار أعضاء حزب الاتحاد والترقى عندما سيطروا على الحكومة وزجوا بالدولة العثمانية إلى الحرب العالمية الأولى بعد أن كان السلطان عبد الحميد - الذى عزلوه - حريصاً كل الحرص على حيادها فى الحرب ، نظراً لحرج ظروفها من كل النواحى - قد لعبت الفكرة القومية التركية - أى الطورانية - دورها فى أذهانهم - أى الضباط الأحرار - فركزوا قواهم إلى سَوْقِ جيوشهم إلى الدخول فى تركستان والقوقاز ، لتخليص هؤلاء الأتراك الذين نسميهم الآن بدول آسيا الوسطى من براثن روسيا وتكوين الدولة الطورانية بديلاً عن الدولة العثمانية ، ومات الجنود العثمانيون من كل عرق وجنس مسلم ، ماتوا فى الحرب على الجبهة الروسية القاسية الشتاء .

وبعد أن غرقت الدولة العثمانية هرب أعضاء حزب الاتحاد والترقى من الدولة ، ولم يجد عسكريوهم أفضل من الهروب إلى دول آسيا الوسطى . وكان أنور باشا قد أخذ على عاتقه فى مكان هروبه هذا أن ينظم أتراك آسيا الوسطى لكى يمكن أن يحاربوا روسيا ، وفى هذا أغتيل أنور باشا ، وفعل نفس الشىء جمال باشا أيضاً ، وقد كان اغتياله على أيدى عملاء روس نوعاً من تخلص روسيا من فكرة اتحاد الأتراك .

والواقع أن هذه الصفحة ينظر إليها منظِّرو الفكر القومي الأتراك نظرة إجلال وإقدام ، لكننا ننظر إليها على أنها نوع من العلاقة التاريخية بين أتراك تركيا وأتراك آسيا الوسطى وآذربيجان .

فى عهد أتاتورك :

وبعد أن سقطت الدولة العثمانية على يد هؤلاء الاتحاديين كان ينبغى أن نشير إلى أنهم بفكرهم القومي المتعصب قد فرقوا أجناس الدولة العثمانية ، ولم يكونوا فى صلة بمفهوم الاتحاد فى أى تصرف لهم داخل الدولة العثمانية بأجناسها المختلفة ، ولم ينظروا إلى أن دولتهم العثمانية كانت قد بلغت من الضعف مداه ، ومن الوضع المالى العصيب أشده .

ثم جاءت الدول الغربية واحتلت إستانبول عقب هزيمة الدولة فى الحرب العالمية الأولى ، وكان على أتراك الأناضول النهوض لتكوين جماعات مسلحة لإنقاذ الأناضول من غائلة الاستعمار الأوروبى . وفى هذا الوقت فوجىء الأناضول باحتلال روسيا لآذربيجان بعد أن دسَّ المغرضون إشاعة أن الجيش الروسى الأحمر يريد فقط العبور من آذربيجان ليساعد أتراك الأناضول بقيادة مصطفى كمال باشا (أتاتورك) ضد المحتلِّين الغربيين .

فيما بعد أتاتورك :

قام حزب الحركة الوطنية بقيادة ألب أرسلان توركش بعد انقلاب جمال كورسيل ضد حكومة مندريس . وبرنامج هذا الحزب كان يقوم – قبل إلغائه – أساساً على سيادة وتعميم الفكرة القومية التركية ، وكان يتبع هذا الحزب مثقفون كثيرون ومؤثِّرون فى كل المجالات ، خاصة فى الجماعات والمؤسسات الإعلامية ، فوجدت دول آسيا الوسطى وقضاياها عمقاً شعبيًّا فى تركيا . وكان لهذا الحزب صحيفة ما زالت تصدر حتى الآن تعبر عن الفكرة التركية الشاملة – وحدة كل أتراك العالم – وهى صحيفة (Orta Dogu) ومعناها (الشرق الأوسط) . كما كان لها دُورُ نشر لإذكاء الحماس القومي تجاه أتراك آسيا الوسطى ، والذى سَمَّاهُم الإعلام التركى

أتراك الخارج ؛ أى أتراك الاتحاد السوفييتى السابق والصين وغيرهما ، أو الأتراك الأسرى ؛ أى الأسرى داخل الاتحاد السوفييتى والصين وغيرهما من النظم غير التركية .

وبالضرورة كان الحزب الإسلامى فى تركيا - وهو حزب السلامة الوطنى والذى يُسمَّى الآن حزب الرفاه بقيادة الدكتور نجم الدين أرباكان - يساند قضايا الأتراك فى الاتحاد السوفييتى المنحل ، ولكن ليس بوصفهم أتراكاً بل بوصفهم مسلمين .

وعندما انهار الاتحاد السوفييتى وأعلنت الجمهوريات التركية المسلمة استقلالها كانت علاقات تركيا تجاهها عبارة عن موقف ذى جهتين : **الأولى** : الرسمى ، وقد كانت تركيا أسبق دول العالم بالاعتراف بالجمهوريات التركية الست الجديدة . **والثانية** : على المستوى الشعبى ، كانت الصحافة الإسلامية بالذات هى التى كانت تبدو وكأنها تدفع الحكومة دفعاً إلى الاعتراف بالجمهوريات الجديدة .

وأحب التنويه هنا أننا - فى البلدان العربية - نسمِّى هذه الجمهوريات الست الجديدة دول آسيا الوسطى الإسلامية ، وفى تركيا يسمونها الجمهوريات التركية .

برز الدور الرسمى فى الاعتراف السياسى وتبادل السفراء ثم إفساح الطريق بالتالى لرجال الأعمال الترك ليجدوا لهم مجالاً فى هذه الجمهوريات . كما أرسلت إدارة الشئون الدينية فى أنقره كتباً تركية إلى هذه الجمهوريات . وبدا رئيس الجمهورية التركية « طورغود أوزال » من أشد المتحمِّسين للتعاون مع الجمهوريات التركية الإسلامية الجديدة ، وفتح الجامعات التركية لشبابها . وظهر رئيس الوزراء التركى « سليمان دميرال » متحمساً - وهو المهندس - لدفع رجال الأعمال نحو هذه الجمهوريات ، والتيار الشعبى التركى هكذا فى الواقع .

أما عن الجانب الشعبى فى تركيا - وهو جانب هام - فينبغى القول بأن الشعب التركى فى تركيا قد أدرك أن الجمهوريات التركية المسلمة الجديدة تعانى من نقص فى الطعام والدواء والكتاب الإسلامى ، فتحرك هذا الشعب حركة سريعة مبكرة لنجدة إخوانه بإرسال تبرعات حسب احتياج هذه الدول . وعلى سبيل المثال وليس على سبيل الحصر « نخجوان » وهى منطقة ذات استقلال ذاتى ، أعلن رئيسها

أن الحالة الغذائية فيها قد بلغت ذروة الاحتياج ، فقامت جريدة « زمان » الإسلامية التركية التى تصدرها مجموعة فتح الله خوجه (أحد مجموعات طلبة النور التى كان الشيخ بديع الزمان النورسى قد أسسها) قامت هذه الجريدة بتنظيم حملة شعبية لجمع المساعدات الغذائية والدوائية ، وتنظيم قافلة لحملها وتسليمها إلى أتراك « نخجوان » . وتوالت القوافل الشعبية من الأناضول الغنية بالروح الإسلامية إلى هذه الديار ، والقوافل هنا بالضرورة مجموعة حافلات نقل كبيرة .

وعلى المستوى الشعبى فى جانبه التعليمى كان واضحاً أن هذه الدول المسلمة تعانى قحطاً فى العلوم الإسلامية ، فاندفع العلماء الأتراك ورجالهم والدعاة الإسلاميون وشيوخ الطرق الصوفية إلى هذه الجمهوريات ليتعرفوا على الاحتياجات العلمية والمعنوية لإخوانهم فى الدين والعرف .

والأمثلة الأكثر بروزاً على هذه الساحة الدكتور أسعد جوشان شيخ الطريقة النقشبندية والأستاذ بجامعة أنقرة فى كلية الإلهيات فى رحلته مع رجاله إلى هذه الجمهورية وإقامة المدارس الدينية فيها . وقد قامت مجلة « إسلام » الإسلامية الأسبوعية ذات التوزيع الكبير فى تركيا والتابعة للدكتور أسعد بدور هام فى التوعية الشعبية باحتياجات الجمهوريات الجديدة .

وكذلك قامت مجموعة تلامذة سليمان حلمى أفندى باستضافة طلاب من هذه الجمهوريات لتعليمهم والإنفاق عليهم حتى يكونوا نافعين لمواطنيهم بعد أن يكتمل تعليمهم .

اتخاذ تركيا المثل الأعلى :

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الجمهوريات تعتبر تركيا الأخ الأكبر . وكانت هذه الجمهوريات حريصة مع استقلالها على مسألتين :

١ – اتخاذ تركيا « الكمالية » نموذجاً لها ، والديمقراطية بمفهومها الغربى فى تركيا واجهة لها .

٢ – اعتراف الولايات المتحدة الأمريكية بهذه الدول وتعاملها معها .

وعلى اختصار نقول : إن هذه الدول قد اتخذت بالفعل وفى وقت مبكر قبيل الاستقلال مباشرة من النموذج التركى نبراساً لها ، فلم تتمسك إحداها بالإسلام فى الدولة وإنما اتخذت كلها العلمانية مثلاً ، وأعلنت كل هذه الدول - باستثناء طاجيكستان - اتخاذ الحروف اللاتينية فى كتابة لغتها التركية - وهى على لهجات - تماماً مثلما فعل أتاتورك ، وتسير على فعلته هذه تركيا الحالية .

استشراف آفاق المستقبل :

إن السياسة ، سواء فى تركيا أو فى هذه الجمهوريات التركية ، من حيث العلاقات بينها ، ومن حيث تزايد التعامل مع تركيا ، وتغلغل تركيا فى هذا الصدد ، ثم تحرك العالم الإسلامى نحو هذه الجمهوريات وإن كان تحركاً بطيئاً ، يبدو من خلاله أن أفق استمرار هذه الدول فى الكومنولث الجديد مصيره التمرد عليه وتكوين رابطة جديدة بين هذه الدول وبين تركيا يمكن أن أن يسمى بالكومنولث التركى .

ويبدو أن هذا الكومنولث التركى المتوقع حدوثه سيسير فى فلك الولايات المتحدة الأمريكية ، خاصة وأن للولايات المتحدة دوراً هامًّا فى العمل على انهيار الاتحاد السوفييتى وتخليص هؤلاء الناس من السطوة الشيوعية ، وكانت الولايات المتحدة فى أوقات مضت توجه الإذاعات إلى شعوب هذه الدول الجديدة لتوعيتهم بأوضاعهم فى الاتحاد السوفييتى ، ونظراً لأهمية دورة الولايات المتحدة الأمريكية فى الشئون التركية والعلاقات الوطيدة بين تركيا والولايات المتحدة .

الفصل الثانى

واقع الدول الإسلامية المستقلة فى تركستان والقوقاز

أولاً : آذربيجان :

١ - روسيا تحارب المسلمين بالسموم .
٢ - حق آذربيجان الطبيعى فى إقليم قاراباغ .
٣ - أرمينيا والمسلمون فى القوقاز بعد الزوال السوفييتى .

ثانياً : قازاقستان :

١ - تأثير التجارب النووية الروسية على بنية المسلمين فى قازاقستان .
٢ - التعاون الاقتصادى الشامل بين إسرائيل وقازاقستان .

ثالثاً : القرم :

١ - قصة القرم الدامية .
٢ - القرم المسلمة فى النزاع الروسى - الأوكرانى .

رابعاً : مسلمو جورجيا :

١ - شعب الأباظة يقاوم فى سبيل استقلاله .
٢ - شعب الأخسقا المسلم يعانى التشريد .

خامساً : طاجيكستان :

- طاجيكستان والصراع الحاد بين المسلمين والشيوعيين .

سادساً : تتارستان :

- شعب التتار المسلم يطالب بحقه .

[أولاً]

آذربيجــان

١ – روسيا تحارب المسلمين بالسموم .
٢ – حق آذربيجان الطبيعى فى إقليم قاراباغ .
٣ – أرمينيا والمسلمون فى القوقاز بعد الزوال السوفييتى .

[١]

روسيا تحارب المسلمين بالسموم

انتشار العقم والإعاقة وأمراض الكُلى فى الجمهوريات الإسلامية !

تعرَّض المسلمون فى جمهوريات : آذربيجان وتركمانستان وأوزبكستان وطاجيكستان لعمليات تسمم كبيرة .

فقد كشفت مجلة « المرأة والعائلة التركية » فى عدد يناير ١٩٨٨ م أن السلطات السوفييتية تضع المواد الكيميائية المسممة فى الأراضى الزراعية فى جمهورية آذربيجان . قالت المجلة : إن هذه المواد تفقد السيدات والفتيات المسلمات العاملات فى الحقول الزراعية قابليتهن للأمومة . وأثبتت المجلة أن السموم أدت إلى ولادة أطفال معوقين ، وإلى زيادة أمراض الكُلى .

وهذه الظاهرة تكررت فى بعض الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى .

فى البدء ظهرت الصحف فى آذربيجان تقول : إن مواد كيميائية مسممة أكثر من اللازم بأربع مرات قد وُضعت فى الحقول وأدى هذا إلى تسمم الأرض .. ظهرت حالات تسمم من أكل البطيخ والفراولة والفواكه الأخرى . وأعقب ذلك مناقشات واسعة حول مسألة تسمم الأرض الزراعية .

هذه النكبة جعلت المواطن المسلم فى آذربيجان يتردد فى الحصول على الخضراوات والفواكه . واقترح البعض ضرورة كتابة عبارة « خال من السموم » على الفواكه والخضراوات السليمة .

تم فى أواخر عام ١٩٨٧ حظر بيع كميات من الخضراوات والفواكه فى باكو العاصمة وهى : ١٧٣١ طن خضراوات ، ١١٦٩ طن بصل ، ٢٠٢ طن بطاطس ، ١٩٨ طن كرنب ، ٩٤ طن بطيخ ، ٣٠ طن شمام ، ١١ طن طماطم ، بالإضافة إلى ٦٠٠ كيلو جرام من الجزر .

ونشرت جريدة « ترود » فى آذربيجان مقالة فى عددها الصادر فى ٢٥ أغسطس عام ١٩٨٨ م بعنوان « الأرض المسمومة » ، كاتبها هو « قاسم أوف » وزير الصحة فى آذربيجان ، قال فيه : « إن آذربيجان هى أكثر جمهوريات الاتحاد السوفيتى التى رُشَّت فيها الأراضى الزراعية بمادة « بستيسيدين » السامة .

وتحدث عن هذه الكارثة فى اجتماع مجلس إدارة كتَّاب آذربيجان الكاتب « صابر آذرى » ، وكتب عنها فى مجلة « أدبيات » فى العدد المؤرخ فى ٧ أغسطس ١٩٨٧ م ، وفى جريدة « الشيوعى » فى عدد ١٢ نوفمبر ١٩٨٧ م .

وقام شاعر آذربيجان المشهور « بختيار وهَّاب زاده » بالكتابة عن هذه الظاهرة الخطيرة فى مجلة « أدبيات » فى ٢٣ أكتوبر ١٩٨٧ فقال :

« تفقد الفتيات والنساء العاملات فى الحقول استعدادهن للأمومة بسبب استخدام الأدوية السامة فى زراعة القطن والشاى والفواكه ، ويُولد أطفالنا معاقين ، وينتشر بيننا وباء اليرقان أو الصفرة » .

وظهرت عشرات المقالات التى تناولت هذه النكبة ، وكلها قد تحدثت عن ولادة الأطفال معاقين ، لكن لم تشر إحداها قط إلى ماهية الأمر ، لكن وزير الصحة فى آذربيجان أصدر بياناً حول عدم استخدام هذه الأدوية السامة ، وقال : إن قراراً صدر بهذا الشأن . ونشرت هذا البيان وهذا القرار جريدة « ليتاراتورنايا غازته » فى عددها الصادر فى ١٨ مارس ١٩٨٧ م بعد أن سبق السيف العزل .

وأخذت الحكومة المحلية فى آذربيجان فى مراقبة الخضراوات والفواكه المرسلة إلى الأسواق ، لكن هذه الحكومة لم تستطع أن تمنع بيع الخضراوات والفواكه التى تحمل من مادة النترات أربع مرات أكثر من الحد الطبيعى ، مما أدَّى إلى انتشار الفزع بين مسلمى آذربيجان .

ورغم كل هذا فقد صدرت بعض الصحف هناك تقول : « لم يُصب أحد بالتسمم » ويرد الكاتب التركى ياسين أرسلان فى مقاله « تسمم أراضى آذربيجان ونتائجه المفجعة » بقوله : « ليت ادِّعاء الصحافة فى آذربيجان بعدم تسمم أحد يكون صحيحاً ، والصحيح هو العكس ، الصحيح هو تفاقم ظاهرة التسمم فى شعب آذربيجان » .

لماذا الكارثة ؟!

آذربيجان جمهورية مسلمة من ست جمهوريات إسلامية كانت فى الاتحاد السوفييتى الذى كان يضم ١٥ جمهورية . وتتبع آذربيجان مناطق تتمتع بالحكم الذاتى منها « نخجوان » ومقاطعة « قره باغ » التى كانت فيها الاضطرابات الشهيرة بين الآذربيجانيين والأرمن قبيل وقوع زلزل أرمينيا الأخيرة واستمرت .

وكان الإسلام قد وصل إلى آذربيجان أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أول والٍ مسلم عليها من قِبَلِه هو حذيفة بن اليمان ، ثم عتبة بن فرقد السلمى .

وشعب آذربيجان تتار يُنسبون إلى عناصر تركية ومغولية ، ولغتهم فرع من فروع اللغة التركية . عاصمتَهم باكو ، ويتزايد عددهم بمعدل واضح .

فى إحصاء عام ١٩٧٩ : فى آذربيجان ٣٦١ امرأة من بين كل ألف امرأة ليس لها أطفال أو أنها لم تنجب بعدُ . وعدم الإنجاب هذا لا يتعلق أبداً بعدم الرغبة فى الإنجاب . فالمناطق الإسلامية التى كانت جزءاً من الاتحاد السوفييتى السابق عموماً كانت تسجِّل الإحصائيات فيها زيادة سكانية طبيعية لافتة للنظر إذا قيست ببقية شعوب ذلك الاتحاد السوفييتى غير المسلمة . والإحصائية التالية دليل كاف على هذا ، وهى إحصائية جرت عام ١٩٨٤ عن نسبة الزيادة السكانية الطبيعية فى بعض الجمهوريات المسلمة .

« فى آذربيجان ١٩,٨ فى الألف . فى طاجيكستان ٣٢,٤ فى الألف . فى أوزبكستان ٢٨,٨ فى الألف . فى تركمانستان ٢٧,٠٠ فى الألف » يقابل ذلك نسبة الزيادة السكانية الطبيعية فى بعض الجمهوريات السوفييتية غير المسلمة فى نفس السنة (١٩٨٤ م) كالآتى : « فى روسيا الاتحادية ٥,٣ فى الألف . فى روسيا البيضاء ٦,٥ فى الألف . فى ليتوانيا ٥,٣ فى الألف . فى ليتوفيا ٢,٨ فى الألف . فى استونيا ٤,٢ فى الألف » .

الهدف من المقارنة هو إبادة الشعب المسلم الذى كان يشكل مصدر قلق للاتحاد السوفييتى الذى انحلَّ .

[٢]

حق آذربيجان الطبيعى فى إقليم قاراباغ

« أرمنة » الإقليم المسلم بدأها ستالين ودعمها جورباتشوف
أعادوه إلى آذربيجان عام ١٩٨٩ وأعطوا ميزانيته لأرمينيا

« ناجورنو – قاراباغ » هو الاسم الروسى لمنطقة « داغليق قاراباغ » أو « قاراباغ » وهى منطقة تبلغ مساحتها ٤٥٠٠ كم داخل جمهورية آذربيجان الإسلامية . نعرفها نحن العرب فى كتب تراثنا باسم « أران » وهى المنطقة التى كانت مشتى لجيوش سلطاننا المسلم المجاهد ألب أرسلان صاحب موقعة ملازكرد الشهيرة التى غُلبت فيها الروم . وكانت آخر إمارة مسلمة أُقيمت على أرض « ناجورنو – قاراباغ » هى « خانية قاراباغ » وعاصمتها شوشة . وآخر « خان » لها كان اسمه إبراهيم خليل ، وقد حكم بين عامى ١٧٥٩ – ١٨٠٦ م . وفى السنة الأخيرة من حكمه استولى الروس على إقليم « قاراباغ » ومنذ هذا الاستيلاء (١٨٠٥) والروس يحتلونها كما احتلوا آذربيجان . وأهلها كانوا وما زالوا من المسلمين الأتراك الناطقين باللهجة التركية الآذرية .

وهذا الإقليم له موقع استراتيجى هام ، فهو باب آذربيجان وإيران ، لذلك ركز الروس على « قاراباغ » فاحتلوها فى ١٤ مايو ١٨٠٥ م ، وكان قائد القوات الروسية المحتلة هو « سيسيانوف » قائد جيوش القوقاز الروسية .

كان أول ما فعلته روسيا بعد احتلالها « قاراباغ » هو توطين الأرمن فيها عن طريق تهجيرهم إليها وذلك لكى يقضى على الشخصية الإسلامية للإقليم ، ولكى تقضى أيضاً على شخصيته الوطنية الآذرية .

وكانت سياسة التهجير هى السياسة الروسية القيصرية فى محاولتها الجادة المخططة

لمحو الإسلام من تركستان والقوقاز . وسارت روسيا الشيوعية على نفس الدرب فى ذات المسألة ، لذلك أخذت البيئة السكانية فى التغير فى هذا الإقليم على أساس قيام روسيا بالعمل على تمكين العنصر الأرمنى من التفوق العددى على العنصر المسلم فى قاراباغ ، وهى سياسة أطلق عليها الروس أنفسهم تعبير « تهجير الأرمن إلى منطقة « قاراباغ » .

وبكل أسف أخذت البيئة السكانية المسلمة فى التناقص بالفعل ، ففى عام ١٨٢٣ كان فى قاراباغ ٢٠,٠٩٥ عائلة ، كانت المسلمة منها ١٥,٧٢٩ ، والأرمن منها ٤,٣٦٦ ، وما أن جاء عام ١٩٠٨ إلا وكان عدد الأرمن النصارى الذين هاجروا إلى كل منطقة القوقاز قد بلغ المليون نسمة ، لذلك وجدنا فى عام ١٩١٧ م مع الثورة الشيوعية أن سكان قاراباغ بلغ ٥٧٤,١٩٤ نسمة مقسمة كالآتى : ٣١٧,٨٦١ مسلماً آذريًّا ، و ٢٤٣,٦٢٧ نصرانيًّا أرمنيًّا ، والباقى من سلالات أخرى . وبالنسبة المئوية نقول : إن نسبة الأرمن عام ١٨٢٣ كانت ٢٠ ٪ من السكان ونسبتهم هذه عام ١٩١٧ وصلت إلى ٤٣ ٪ .

فى العهد الشيوعى :

وفى العهد الشيوعى أعلن ستالين سياسته الرامية إلى إنهاء الإسلام فى دولة الاتحاد السوفييتى . وتنفيذاً لهذه السياسة فقد أصبح المسلمون الآذريون أقلية فى بلادهم قاراباغ ، لكن نظراً للتكوين التاريخى لقاراباغ فقد ضمَّها السوفييت إلى آذربيجان ، فقاراباغ منطقة تركية وآذربيجان بلاد تركية . وعلى هذا أخذت قاراباغ حكم منطقة ذات استقلال ذاتى فى إطار جمهورية آذربيجان ، خاصة وأن هذه المنطقة تقع فى وسط آذربيجان . وتنفيذاً لسياسة ستالين فى إنقاص عدد العنصر المسلم من الإقليم فقد أضحت بالضرورة نسبة المسلمين فى بلادهم قاراباغ ٢٥ ٪ من عدد السكان وارتفعت نسبة المهجَّرين من الأرمن إلى قاراباغ إلى ٧٥ ٪ وهذه هى النسبة القائمة الآن .

وبهذه النسبة استطاع الأرمن السيطرة على الأعمال الإدارية فى الإقليم ، وقاموا بأمور غريبة ، فقد ألغوا الأسماء المسلمة من الشوارع والطرقات والمدن والقرى فى

إقليم قاراباغ وجعلوها أسماء نصرانية أرمنية . وأبلغ مثال لهذا هو اسم إقليم قاراباغ نفسه ، فقد جعلوه « ناجورنو – قاراباغ » بعد أن كان «قاراباغ » ، وحوَّل الأرمن اسم عاصمة الإقليم من « خان كندى » إلى اسم أرمنى هو « ستيباناكيرت » وجعل الأرمن اللغة الرسمية فى الإقليم هى اللغة الأرمنية . ولم تعد تصدر فى الإقليم أى جريدة أو مجلة بلغة المسلمين أصحاب البلاد الشرعيين ، وهى اللغة التركية فى لهجتها الآذرية ، وسيطر الأرمن على الدوائر الرسمية فى الإقليم بل على كوادر الحزب الشيوعى ومنظماته فيه حتى لا تعطى الفرصة لأى مسلم لاختراقها .

ومع أن قاراباغ إقليم مسلم تاريخيًّا ، وداخل جمهورية إسلامية وهى آذربيجان ، والمسلمون فيه آذريون – يعنى أرض مسلمة وأهل مسلمون – يفرض الروس القياصرة ثم الشيوعيون زيادة رهيبة على الإقليم فى عدد النصارى الآرمن بالذات ، حتى تناقص عدد المسلمين إلى ربع عدد السكان ، ثم يساند الروس وغيرهم أرمينيا لكى تنضم هذه المنطقة « قاراباغ » إلى أرمينيا .

بداية الانفجار :

فى أغسطس ١٩٨٧ م طالب مجلس إقليم قاراباغ بعد ازدياد نسبة الأرمن فيه هذه الزيادة المدهشة أن تنضم قاراباغ إلى أرمينيا ، وقدَّم المجلس طلباً رسميًّا بذلك إلى موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتى المنحلّ ، وبدأ الأرمن فى الضغط على الحكومة السوفييتية ، فقد أرسل الأرمن ثلاثة وفود إلى موسكو بين نوفمبر ١٩٨٧ وفبراير ١٩٨٨ م ليحثُّوا الحكومة السوفييتية على إلحاق إقليم قاراباغ الآذربيجانى بأرمينيا ! وأعقبوا ذلك بسياسة مظاهرات منظمة بدأت فى ١١ فبراير ١٩٨٨ م فى ستيباناكيرت « خان كندى » .

وفى ١٨ فبراير ١٩٨٨ طلب جورباتشوف من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى للاتحاد السوفييتى أن تتولى الشعوب داخل الاتحاد حل مسائلها بنفسها . وحرَّك هذا الطلبُ الأرمن فى قاراباغ فاجتمع مجلس الإقليم فى ٢٠ / ٢ / ١٩٨٨ – يعنى بعد يومين فقط من طلب جورباتشوف – وقرر إلحاق قاراباغ بجمهورية أرمينيا . وللعلم فإن عدد أعضاء هذا المجلس ١٤٠ عضواً منهم ١١٠ أعضاء أرمنيون .

ورفضت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى لعموم الاتحاد السوفييتى قرار مجلس إقليم قاراباغ بدعوى أن هذا القرار مخالف لمنفعة الجمهوريتين : آذربيجان وأرمينيا . ومع تكاثف المظاهرات الأرمينية فى قاراباغ وفى أريوان عاصمة أرمينيا بدأت عملية هجرة متعاكسة : الآذريون فى أرمينيا يهاجرون إلى آذربيجان ، والأرمن فى آذربيجان يهاجرون إلى أرمينيا .

وفى نهاية ذلك الشهر – يعنى فبراير ١٩٨٨ م – بدأتِ المصادمات الدامية فى إقليم قاراباغ بين الآذريين والأرمن ، وكان محصول هذه البداية قتل مسلمين آذريين فى الإقليم .

ولما وصل هذا النبأ إلى « باكو » عاصمة آذربيجان حدثت مصادمات دامية فيها وفى « صومكا ايت » يومى ٢٨ و ٢٩ فبراير راح ضحيتها ٦ مسلمين و٢٦ أرمينيًّا .

وتدخلت موسكو عقب ذلك ، وعُقد اجتماع وقتها فى موسكو فى ٩ مارس ١٩٨٨ حضره جورباتشوف وبعض رجال السلطة فى الاتحاد السوفييتى ، مع سكرتيرى الحزبين الشيوعى فى كل من آذربيجان وأرمينيا وهما : الأرمنّى « دميرجيبان » والآذرى « كارام بكيروف » ونتج عن هذا الاجتماع فصل « جهانكير مسلم زاده » سكرتير الحزب الشيوعى فى « صومكا ايت » وفُصل « توكل يعقوب أوغلو » رئيس بلديتها ، وكان ذلك فى ١٧ مارس ، أما فى ٢١ مارس من نفس الشهر فقد فُصل كل من « دميرجيبان وبكيروف » من منصبيهما .

وحدث فى الموقف أمر مزعج ، إذ قامت مظاهرات ضخمة فى « أريوان » عاصمة أرمينيا فى ١٣ يونيو ١٩٨٨ ضد آذربيجان ، وحدث إضراب أرمنّى عام فى أريوان للضغط على حكومة أرمينيا لانتهاج سياسة متشددة فى المسألة القاراباغية ، فقام مجلس السوفييت فى أرمينيا باتخاذ قرار بإلحاق إقليم قاراباغ بالدولة الأرمينية السوفييتية استناداً إلى المادة رقم ٧٠ من دستور الاتحاد السوفييتى ، لكن آذربيجان تمسّكت بنص المادة ٦٨ من الدستور السوفييتى نفسه وأعلنت بطلان القرار الأرمنى ، وهذه المادة الأخير تقول : « إنه لا يمكن تغيير حدود جمهورية ما دون رضائها » وقاراباغ داخل حدود آذربيجان ، وآذربيجان ترفض تغيير حدودها لصالح أرمينيا ، وكان هذا أمراً طبيعيًّا .

وأعلن جورباتشوف بصراحة أنه لا يمكن الاعتراف برغبة أرمينيا فى ضم إقليم قاراباغ إليها ، فقامت المظاهرات والاضطرابات فى أرمينيا أيام ٣ و ٤ و ٦ و ٧ يوليو من نفس العام ١٩٨٨ م وحدثت مصادمات بين المتظاهرين وبين الشرطة الأرمينية . وبناء على ذلك قرر مجلس قاراباغ الذى تسيطر عليه أكثرية أرمينية إلحاق قاراباغ فى ١٢ / ٧ / ١٩٨٨ بأرمينيا بوصف الإقليم منطقة ذات استقلال ذاتى فى إطار التبعية لأرمينيا .

وبدأت عقب ذلك عملية إرهاب شديدة للآذريين الموجودين فى أرمينيا . ولم يتحمل أهل آذربيجان هذا ، فقامت فى « باكو » وفى « كيروف آباد » وفى « نخجوان » مصادمات بين المسلمين الآذريين وبين النصارى الأرمن ، جُرح فيها ١٢٦ شخصاً . وقامت مظاهرات إسلامية ضخمة فى « باكو » اشترك فيها ٨٠٠, ٠٠٠ شخص تطالب بوقف المطالبات الأرمينية ، وأن الإقليم المتنازع عليه يدخل فى سيادة آذربيجان . وعقب هذه المظاهرة اضطر ١٨٥ , ٠٠٠ نصرانى أرمنى إلى الفرار من آذربيجان .

وكانت المحصلة لهذه الاضطرابات والمصادمات فى عام واحد – يعنى من فبراير ١٩٨٨ إلى فبراير ١٩٨٩ – مقتل ٨٧ مدنيًّا و٤ جنود وجرح ١١٧ جنديًّا و٣٢ من الشرطة و ١٥٠٠ مدنى . وطبَّقت موسكو نظام الإدارة الخاصة لإقليم قاراباغ ، ووافقت آذربيجان على ذلك بعد سحب موسكو اختصاصات الإدارة الأرمينية للإقليم ، وهذا يعنى بالضرورة – كما علقت موسكو – أن تكون قاراباغ إقليماً آذريًّا .

بعد ذلك هدأت الأحوال فى مثلث قاراباغ – آذربيجان – أرمينيا .

اعتداءات أرمينية وإنشاء جبهة الشعب الآذرى :

كوَّن الأرمن – بعد ذلك – عصابات من جنود غير نظاميين ، وقام هؤلاء بإرهاب القرى المسلمة فى قاراباغ فى شهرى يونيو ويوليو ١٩٨٦ ، ولم يكتفوا بذلك بل دمَّروا خطوط السكة الحديد فى الإقليم .

وعلى إثر ذلك كوَّن المسلمون جبهة الشعب الآذرى فى آذربيجان لتتولى الدفاع عن حقوق المسلمين ، سواء فى قاراباغ أو فى آذربيجان نفسها . ورفضت الجبهة التعامل مع العلم الشيوعى السوفييتى ، وإنما أحيت هذه الجبهة العلم الآذرى الإسلامى بألوانه الثلاثة . وقامت هذه الجبهة بقطع الاتصالات الحديدية والبرية بأرمينيا ، حيث إن ٨٧ ٪ من حاجيات أرمينيا تمر من آذربيجان . وقد أعلنت الجبهة برنامجها كاملاً بعد تسجيلها رسميًا فى ٥ أكتوبر ١٩٨٩ .

وفى ٢٨ نوفمبر من نفس العام قرر مجلس السوفييت الأعلى فى الاتحاد السوفييتى إعادة قاراباغ إلى آذربيجان مع اشتراط بقاء قوة عسكرية سوفييتية فى الإقليم قوامها ٥٠٠٠ جندى . وقد دفعت موسكو بهذا القرار « باكو » دفعاً إلى موقف الصراع الواضح ، ذلك لأن الأرمن لم يعترفوا بهذا القرار العالى . واجتمع المجلس الوطنى الأرمنى فى أريوان عاصمة أرمينيا فى أول ديسمبر ١٩٨٩ م ليقول إن قاراباغ – رغم كل الظروف الجغرافية والتاريخية تابعة لآرمينيا .

لذلك قامت جبهة الشعب الآذرى فى جليل آباد بالهجوم على مبانى الحزب الشيوعى السوفييتى ، وطالبت الجبهة بإقالة كل المسؤولين فى آذربيجان لعدم وقوفهم الوقفة المطلوبة شعبيًا . والسبب فى ذلك أن موقف الحكومة الآذرية المتَّسِم بالسياسة والهدوء لم تعجب جبهة الشعب الآذرى .

فى أعقاب ذلك ظهرت على الحدود الأرمينية الآذرية المدافع الرشاشة والأسلحة الأوتوماتيكية ومدافع الهاون والقنابل . ومما زاد الطين بلة أن الميزانية الأرمينية لعام ١٩٩٠ كانت تحتوى على ميزانية لقاراباغ .

تدخل الجيشين الأرمنى والآذرى :

وقام الجيش الوطنى الأرمنى – وهو الفرع العسكرى للحركة القومية الأرمينية – بالاعتداء المنظَّم على القرى المسلمة الآمنة بكثافة .

ثم انتُخب « عياض مطلّبوف » رئيساً لجمهورية آذربيجان فى ١٨ مايو ١٩٩٠ . وتواصلت المصادمات بين الطرفين وبلغت حدًّا جعل « نور سلطان نظرباييف »

يتوسط بين أرمينيا وآذربيجان ، ولم تسفر الوساطة عن شيء ، وكان ذلك بعد أن أسقطت القوات الأرمينية طائرة مروحية آذرية بدون وجه حق وهي فى سماء إقليم قاراباغ ، وهو إقليم آذرى ، وراح ضحية هذا الحادث ٤٠ مسلماً آذريًّا . وزاد الأمر سوءاً أن أرمينيا أخذت تعتدى اعتداء منظماً متوالياً على المدن الآذرية باستخدام الأرمن غير النظاميين .

وأخبار يوم أول فيراير من هذا العام ١٩٩٢ م تقول إن الأرمن اعتدوا على مدينة « أغدام » فاضطرت آذربيجان إلى اتهام دولة أرمينيا بأنها تقوم بعمليات إرهابية منظَّمة ، وسمَّت ذلك إرهاب الدولة . وفى أخبار ٢ فبراير أُذيع مقتل ١٠٠ أرمنى و١٧ مسلماً ، مما حدا بمجموعة الدول الأوروبية إلى إرسال وفد بصفة مراقب إلى قاراباغ لمشاهدة الموقف على الطبيعة . وأُذيع فى نفس اليوم أن العصابات الأرمينية المسلحة قد أخذت فى اجتياز الحدود الآذرية للعمل داخل آذربيجان وقد أخذت فى اجتياز الحدود بالفعل . ثم اشتركت القوات الأرمينية الرسمية فى العمليات القتالية .

والجدير بالذكر أن الدولتين : آذربيحان وأرمينيا قد وسطت إيران فى النزاع القائم بينهما حول قاراباغ . وقام بالفعل على أكبر ولاياتى وزير خارجية إيران بزيارة باكو فى ٢٥ / ٢ / ١٩٩٢ ، وعندما أراد أن ينتقل إلى أريوان فى ٢٦ / ٢ فى اليوم التالى فوجىء باستيلاء القوات الأرمينية على مدينة خوتشالى . وقد أُذيع أن قوات الكومنولث فى قاراباغ تساند الأرمن . وقد مات فى أحداث هذا الاستيلاء مائة مسلم آذرى .

وكان من الطبيعى أن تذيع وكالات الأنباء خبر هجوم اشترك فيه آلاف الجنود الآذريين تدعمهم الدبابات وأربع طائرات هجومية من طراز « ميج – ٢٤ » وأن بطاريات صواريخ « ميج – جراد » الآذرية تقصف التجمعات السكنية العسكرية الأرمينية ، وكان ذلك ردًّا على استيلاء الأرمن على خوتشالى .

وقام اللوبى الأرمنى فى أمريكا بدفع أربعة نواب من مجلس الشيوخ الأمريكى لكتابة قرار وقَّعوا عليه مستهدفين منه أن يتخذ الكونجرس الأمريكى قراراً لتأكيد القيود المفروضة على آذربيجان .

والواقع أن الصحافة الغربية لم تقصِّر فى تأييد الأرمن تأييداً مطلقاً رغم أن الواقع لصالح آذربيجان ، والقرارات السوفييتية الرسمية والتاريخ والحدود والجغرافيا تقول إن آذربيجان صاحبة الحق الطبيعى فى قاراباغ .

وأخيراً أراد مطلَّبوف تحكيم الأمم المتحدة فى الأمر حتى تستقر الأوضاع ، وصرح بأنه سيطلب قوة سلام دولية لتعمل على استقرار الأمور فى قاراباغ ، فإذا بالمظاهرات الضخمة تجتاح آذربيجان تطالب بعزل رئيس الجمهورية مطلَّبوف لأن طلبه لقوات من الأمم المتحدة معناه – فى نظر المتظاهرين – أنه غير متمسك بموقف الشعب الآذرى الذى تمثله جبهة الشعب الآذرى من أن قاراباغ جزء طبيعى من آذربيجان ، وأن زيادة نسبة الأرمن فيه إنما كان بقهر سابق مارسه ضد المسلمين الروس القياصرة والروس الشيوعيون .

ولقد صرح الجنرال الروسى شابوشنيكوف رئيس هيئة أركان مجموعة الدول المستقلة لمجلة « لوفيجارو » الفرنسية أنه لا يجد أى معنى لإرسال قوات الأمم المتحدة إلى إقليم قاراباغ ، وأنه يمكن حل هذه المسألة فى اجتماع لرئيسى الجمهوريتين ذوى العلاقة : آذربيجان وأرمينيا . كما يرى هذا الجنرال أن رغبة الأرمن فى ضم الإقليم لأرمينيا رغبة غير معقولة وغير منطقية .

وفى الوقت الذى اهتم فيه الغرب بالأرمن لم نجد اهتماماً عمليًّا بأمر المسلمين فى آذربيجان وقاراباغ ، غير خبر هنا وخبر هناك . إلا أن زيارة الأمير السعودى سعود الفيصل وزير خارجية المملكة السعودية إلى آذربيجان فى ٢٥ / ٢ / ١٩٩١ واجتماعه بمطلَّبوف رئيس جمهورية آذربيجان فى هذا الوقت بالذات من العلاقات العربية بدول آسيا الوسطى الإسلامية والإعلان عن قيام علاقات دبلوماسية بين البلدين والعمل على تطوير العلاقات بين العرب وآذربيجان – أعطت الأمل فى اهتمام إسلامى حقيقى ومخلص بآذربيجان وبقضايا هذا البلد المسلم .

تعليق بختيار وهَّاب زاده :

عبَّر بختيار وهاب زاده السياسى الآذرى المحنَّك ، عضو مجلس الأمة فى آذربيجان وشاعر آذربيجان الأول والذى رافق نيازى مطلبوف رئيس الجمهورية للدعاية

للدولة الجديدة ، عبَّر وهَّاب زاده عن المشكلة القاراباغية تعبيراً طيباً فقال : إن التاريخ أمامنا وهو معروف فى كتب التاريخ التى كتبها الروس ، وفى كتب التاريخ التى كتبها الألمان والفرنسيون والأرمن : أن الأرمن لم يكن لهم وجود ولم يسمع بهم أحد فى إقليم قاراباغ إلا فى عام ١٨٢٨ م .

والغريب فى الأمر أنهم - أى الأرمن - أرادوا أن يخلدوا تاريخ أول هجرة لهم - أى أول وصول لهم إلى قاراباغ عام ١٨٢٨ م - فأقاموا نصباً تذكارية سجلوا فيه تاريخين : ١٨٢٨ - ١٩٧٨ م يعنى ١٥٠ سنة « مائة وخمسون سنة فقط » .

وعندما قامت الأحداث والمصادمات فى قاراباغ بين الآذريين والأرمن مسح الأرمن هذا النصب التذكارى ، لكن لهذا النصب صور .

إن للروس كاتباً كبيراً هو جريباديف ، وهو يكتب خلاصة أمر الأرمن فى الإقليم ، فيقول : إننا معشر الروس قد أجبرنا خمسين ألف أرمنى على الهجرة من مراغة فى إيران إلى إقليم قاراباغ فى آذربيجان . لقد اعترض حكام آذربيجان على هذا ، لكننا - نحن الروس - قلنا لهم : إن هذه الهجرة مؤقتة .

إن جريباديف يكتب صراحة أن الروس استغفلوا المسلمين الآذريين .

إنى أرى - والكلام للسياسى الآذرى بختيار وهاب زاده - أن على الأرمن أن يرفعوا أيديهم عن قاراباغ ، فهى أرضنا ولن نفرط فيها ، يمكن لكل مسلمى آذربيجان أن يموتوا لكنهم لن يسلِّموا قاراباغ لأحد .

[٣]

أرمينيا والمسلمون فى القوقاز بعد الزوال السوفييتى

حاول الرئيس الأرمنى « ليفون بطرس يان » تزوير التاريخ وتقديم معلومات مغلوطة فى حديث أجرته معه إحدى الصحف العربية . ولما كان هذا الحديث الذى يخاطب القارىء العربى خطيراً ودعاية واضحة للتعاطف مع الأرمن ضد مسلمى قاراباغ ، فإنه لا بد من توضيح حق المسلمين الآذريين فى قاراباغ .

المعروف أن قاراباغ منطقة تبلغ مساحتها ٤٥٠٠ كم مربعاً ، وهى جزء طبيعى جدًّا فى آذربيجان ، مثل أسيوط فى مصر والحجاز فى السعودية والبقاع فى سوريا . ولما احتل الروس آذربيجان كان لا بد من أن يحتلوا قاراباغ ، وكان ذلك فى ١٤ مايو سنة ١٨٠٥ م ، وكان الناس فى قاراباغ آذريين (من آذربيجان) وكانت روسيا – سواء فى عهد القيصرية أو فى عهد الشيوعية – تنفّذ فى الشعوب التى تستعمرها سياسة « التهجير الإجبارى » لتختلط الشعوب المستعمرة ببعضها البعض حتى يذوب الجميع فى البوتقة الروسية .

وكانت روسيا تهدف إلى أمرين :

الأول : إذابة الأعراق (الأجناس) التى تحتلها ، أى القضاء على الشخصية الوطنية .

الثانى : إلغاء الهوية الدينية للشعوب الخاضعة لروسيا .

وبناء على سياسة التهجير الجبرى الروسى أرادت روسيا إقامة ما يسمى عند العرب « مسمار جحا » فوجدت روسيا أن إقليم قاراباغ يمتلك موقعاً استراتيجيًّا هامًّا ، فهو باب آذربيجان وباب إيران ، ولم يجد الروس بُدًّا من محاولة محو الشخصية الوطنية والإسلامية فى هذا الإقليم الآذرى الهام ، فأخذت روسيا فى جلب الأرمن من إيران إلى إقليم مراغة ، ومن أرمينيا إلى إقليم قاراباغ ، حتى ازداد عدد الوافدين على عدد الأهالى .

الدليل التاريخى على هذا الكلام سجَّله الأرمن أنفسهم والروس أنفسهم وليس المسلمون . سجَّل الأرمن – والعبرة هنا – تاريخ أول وصول لهم إلى قاراباغ ، وكانت نيَّتهم تخليد ذكرى وصول أول هجرة أرمينية نصرانية إلى إقليم قاراباغ الآذرى المسلم ، فأقاموا نصباً تذكاريًّا لهذا الحدث وسَجلوا فيه تاريخ ١٨٢٨ م .

معنى هذا أن الإقليم إقليم آذرى مسلم طوال التاريخ ، لم يشارك أهله أحد إلا منذ عام ١٨١٨ م (ونحن الآن عام ١٩٩٣) ومعنى هذا أيضاً أن وجود العنصر الأرمنى النصرانى فى إقليم قاراباغ عمره ١٦٥ سنة فقط .

والدليل التاريخى الروسى أن الكاتب الروسى جريباياديف يقول : « إننا معشر الروس قد أجبرنا ٥٠,٠٠٠ أرمنِّى على الهجرة من مراغة فى إيران إلى إقليم قاراباغ فى آذربيجان . لقد اعترض حكام آذربيجان على هذا التهجير ، لكننا – نحن الروس – قلنا لهم إن هذه الهجرة مؤقتة » .

أحداث هامة :

هجَّرت روسيا القيصرية ٥٠,٠٠٠ أرمنى عام ١٨٢٨ م ، وفى عام ١٩١٧ م عام الثورة الشيوعية كان فى إقليم قاراباغ ٣١٧,٨٦١ مسلم آذرى ، معهم ٢٤٣,٦٢٧ وافداً أرمينيًّا نصرانيًّا ، وأرقام أخرى . وكانت نسبة الأرمن النصارى بالنسبة لأهل المنطقة المسلمين الآذريين ٢٠ ٪ قبل الثورة الشيوعية ، وعند قيام الثورة أوصلت السلطات الشيوعية فى موسكو هذه النسبة فجأة إلى ٤٣ ٪ .

ثم طبَّقت موسكو سياسة ستالين ضد المسلمين عموماً وضد الآذريين خاصة ، وهذه السياسة هى إنقاص عدد المسلمين فى بلادهم ، وتحت الإرهاب الستالينى انقلبت النسبة فى قاراباغ حيث أصبح المسلمون الآذريون أصحاب الأرض والبلاد ربع السكان ٢٥ ٪ وأصبح الآرمن الوافدون المهجرون ثلاثة أرباع السكان يعنى ٧٥ ٪ !

وبالتالى أصبح الأرمن هم المسيطرين على الإدارة ، وجعلوا اللغة الأرمينية هى اللغة الأولى فى الإقليم (الرسمية) وسيطرت الأغلبية الأرمينية على كوادر الحزب الشيوعى .

ونادى الأرمن الوافدون المهجَّرون – بعد أن أصبحوا أغلبية – بضم إقليم قاراباغ إلى أرمينيا (أغسطس ١٩٨٧) واجتمع مجلس إقليم قاراباغ ، والمجلس من الأرمن ، وأقرَّ الضمَّ إلى أرمينيا ف ٢٠ / ٢ / ١٩٨٨ ، وكان لا بد من الصدام المسلح بين أهل الإقليم الحقيقيين وهم الآذريون وبين الأغلبية الوافدة وهم الأرمن . وقامت أرمينيا باتخاذ قرار بإلحاق قاراباغ بأراضيها ، وأعلن جورباتشوف صراحة أنه لا يعترف بهذا الضم .

واستمرت العلاقات الدامية بين الآذريين أهل البلاد والأرمن الوافدين بعد أن شكَّلوا أغلبية . وكوَّن الآذريون ميليشيات مسلحة فى آذربيجان (جبهة الشعب الآذرى) للدفاع عن حقوق المسلمين . والجدير بالذكر أنه ليس لآذربيجان جيش مستقل ولا قوات مسلحة ولا حتى قوات شرطة مدرَّبة تدريباً قتاليًّا .

رئيس أرمينيا يحاول تحييد المسلمين :

قال الرئيس « بطرس يان » إن الصراع بين الأرمن وبين الآذريين أصحاب البلاد لا يحمل طابعاً دينيًّا : « إن هذا الصراع لا يحمل طابعاً دينيًّا أبداً ، والعامل الدينى لا يلعب أى دور فى هذه المشكلة ، ونعتبر كل التوجُّهات الدامية لإضفاء الطابع الدينى على هذا الصراع توجهات غير صحيحة وغير موضوعية ، وسنبذل كل مساعينا حتى لا تتحول أرمينيا إلى حلبة صراع بين الشرق والغرب والإسلام والمسيحية » .

وفى هذا يريد الرئيس « بطرس يان » أن يحيِّد الرأى العام المسلم فى العالم العربى ، إذ أن المعروف أن الصراع الأرمنى التركى والصراع الأرمنى الكردى والصراع الأرمنى الآذرى صراع تاريخى دينى يقوم على أساس أن المسلمين أعداء الأرمن ، وأن الأرمن لا بد أن يقيموا دولتهم الكبرى دولة أرمينيا ، وهى دولة يتصور الأرمن إقامتها على حساب أراضى البلاد المجاورة لهم ، ومن ضمن هذه البلاد تركيا وآذربيجان بما فيها قاراباغ .

ومن المعروف أيضاً أن الإسلام قد توحَّد مع الوطنية التركية ، فالأتراك يقولون

« تورك – إسلام » عندما يصفون أنفسهم ، والتركى فى أى مكان فى العالم لا يفرق بين الإسلام وبين عنصره التركى ، لأن العنصر التركى كله مسلم وليس عندهم مشكلة وجود لبضعة ملايين نصرانى أو يهودى بين الشعوب التركية . إن الشعوب التركية – باستثناء بضعة آلاف فقط – مسلمون .

إن قيام جبهة الشعب الآذرى وهى جبهة إسلامية قامت فى الأصل للدفاع عن حقوق المسلمين الآذريين .

(وفى سنة ١٩٨٨ قرر المجلس الأعلى لمنطقة قاراباغ ذات الحكم الذاتى الخروج من آذربيجان . هذا القرار تبعه اندلاع المذابح وتفجر الموقف ، وأخذ الشعب الأرمنى يدافع عن نفسه) .

هذا الكلام موجَّه للشعوب العربية لتتعاطف مع الأرمن ، مع أنه كلام بعيد عن الحقيقة ، إنه كلام دبلوماسى ، ذلك لأننا إذا سألنا الرئيس « بطرس يان » : مِمَّن يتشكَّل هذا المجلس الأعلى لمنطقة قاراباغ الذى قرر الخروج من آذربيجان ؟ إنه مجلس مكوَّن من ١٤٠ ممثلاً شعبيًّا يجمع بين الآذريين والأرمن الوافدين بالقوة ، المتكاثرين بالقوة . إن الأرمن يشكِّلون ١١٠ ممثلاً فى هذا المجلس ، وثلاثون فقط مسلمون آذريون . فهل من حق الأكثرية الظالمة المفروضة انتزاع إقليم من سيادته لتهديه إلى أرمينيا ؟ إن الذى ينظر إلى هذه الجملة التى صدرت من الرئيس « بطرس يان » ولا يدرى الحقيقة التاريخية ، يتصور أنه طالما أن المجلس قرر شيئاً فلا بد منه . وكان لا بد للرئيس أن يقول إن هذا المجلس مكوَّن تكويناً غير شرعى ، ولذلك فقراراته غير شرعية .

قال الرئيس « بطرس يان » : « أصرَّ الأرمن فى ناجورنو – قاراباغ – وليس نحن – على فتح ممر يصل إقليم قاراباغ إلى أرمينيا » .

ونقول : إن الأرمن فى قاراباغ مسلحون تسليحاً أرمينيًّا ، وأرمينيا تمدُّهم بالسلاح وبالقوات وتدعمهم إحدى الدول الإسلامية . ثم إن هذا الممر الموصل بين قاراباغ وأرمينيا الذى أصر الأرمن على فتحه أين يقع ؟ إنه يقع فى أرض آذربيجان وليس فى أرمينيا ، وهذا يعنى أنه احتلال أرض الغير بالقوة المسلحة .

ويؤكد الرئيس « بطرس يان » أن : « لا أرمينيا ولا أهالى ناجورنو – قاراباغ لديهم أى نية لاحتلال أراض عبر هذا الممر » .

وهذا كلام مضحك ، لأن الأرمن بمساعدة الجيش الأرمنى قد احتلوا الممر فعلاً .

ويضيف « بطرس يان : إلى قوله السابق : « وإذا كانت المنظمات الدولية تستطيع أن تقدم ضمانات لحماية هذا الطريق فسكان الإقليم مستعدون فى أية لحظة لإعادته إلى آذربيجان » !

ويكاد المريب يقول خذونى ، لأنه اعترف بالاحتلال .

كفاح الشعب الآذرى :

لا شك أن نجاح أبو الفيض (أيلجى بى) أو (ألشى بَىْ) فى انتخابات الرئاسة فى آذربيجان يتوِّج كفاح الشعب الآذرى فى التوق إلى سلطة خالية من الشيوعيين ، سلطة تواجه العدو الأرمنى بسلام الإيمان الإسلامى والإصرار على الجهاد حسب تصريحات الرئيس الآذرى أبى الفيض . إن الرئيس المسلم له موقف واضح : فالإسلام أولاً ، وقاراباغ أرض مسلمة آذرية ليس للأرمن فيها إلا حقوق المواطنة فى كنف آذربيجان .

الرئيس الآذرى بإمكانه – بإذن الله – توحيد الشعب الآذرى فى الجبهة الإسلامية المسمَّاة : « جبهة الشعب الآذرى » التى سبق القول فى أنها هى التى واجهت دبابات الاجتياح السوفييتى الشهير لمدينة باكو بأمر جورباتشوف عام ١٩٩٠ م ، وهى التى أطاحت بحكومة « مطلّبوف » الشيوعى المخضرم ، لأنه قال بضرورة استدعاء قوات الأمم المتحدة إلى قاراباغ لتحل المشكلة ، ويقترح حلولاً مائعة . ومطلّبوف يتحد فى ذلك مع كل من إيران وأرمينيا . والقيادة المسلمة الجديدة فى آذربيجان تقول إن الأمم المتحدة لا ينبغى لها التدخل للمحافظة على الوضع الراهن الذى هو خطأ تاريخى وإجرائى : فالأرض آذرية ، والأرمن يشكّلون أكثرية نتيجة الإرهاب الستالينى الذى أراد يوماً أن يقلب الوضع فى قاراباغ ليكون أهل البلاد أقلية والأرمن أكثرية مطلقة ، لأنه لا انتماء – فى رأيه ، أى ستالين – إلا للشيوعية (فلا أرض لأحد ولا أحد يؤمن بدين) .

وترى القيادة الآذرية الجديدة أن أرمينيا تحتل الممر الموصل بين قاراباغ وأرمينيا وهو ممر فى آذربيجان ، ولا بد من إخراج المحتل . وأرمينيا تدخل عسكريًّا لصالح الأرمن فى قاراباغ وتساعدها إيران .

وتذكر صحيفة « تركية غزته سى » أن هناك ٣٠٠,٠٠٠ أرمنى فى إيران يستعدون للهجرة إلى قاراباغ حتى يتم تدعيم الأرمن بعناصر أرمينية أكثر قوة ، وبالتالى يمكن سيطرة الأرمن على قاراباغ ، وبذلك يضعف العنصر الآذرى المسلم .

كما تذكر نفس الصحيفة أن الإذاعات الروسية من موسكو قد أعلنت صراحة أنها ضد آذربيجان وأنها تؤيد بطرس يان . وهذا ما تقوله إيران ولكن بشكل مستتر ، على حد قول الرئيس أبو الفيض ، ولا أحد يتدخل لصالح مسلمى قاراباغ ، وآذربيجان لا تملك جيشاً ولا أسلحة ولا أحد يساعدها . ويعترف أبو الفيض (ألشى بَىْ) أن أرمينيا تملك السلاح وآذربيجان لا تملكه ، والأرمن يملكون القوة والمسلمون الآذريون لا يملكونها ، ولكنه قُدِّرَ على الآذريين المسلمين الجهاد لتحرير قاراباغ .

وماذا بعد الانتخابات الآذرية ونجاح جبهة الشعب الآذرى ؟

أصبح الرئيس بطرس يان الآن فى مواجهة رجل « مسلم » صلب : لا تنازل عن حق آذربيجان فى قاراباغ ، لا تنازل عن حماية آذربيجان لأهل قاراباغ .

وتقدَّم الشعب الآذرى للحرب فى ١٢ / ٦ / ١٩٩٢ ، وصرح الرئيس الأرمنى بطرس يان أن أرمينيا ستمدُّ أرمن قاراباغ بالأسلحة إذا لم تتوقف القوات الآذرية عن التقدُّم فى قاراباغ ، مع أن أرمينيا هى محور القتال منذ أول احتكاك بين الأرمن والآذريين .

وبعد تولِّى الرئيس الآذرى أبو الفيض (ألشى بى) تقدَّمت القوات الآذرية لأول مرة بجرأة لتحارب الأرمن . وقالت مصادر غربية إن القوات الآذرية استعادت ما كان الأرمن قد استولوا عليه .

إلَّا أن الشيوعيين القدامى وتدعيم أرمينيا لبعضهم وتأييد روسيا لبعضهم الآخر ، تحرَّكوا ليطيحوا بسلطات أول رئيس وطنى مسلم وليأتوا بكلٍّ من صُورَتْ حُسَيْنُوف وحَيْدَر علييف على رأس السلطة فى باكو . وفى مقابل ذلك استولت القوات الأرمينية على قاراباغ فى يوليو ١٩٩٣ م .

[ثانياً]

قـازاقستـــــان

١ – تأثير التجارب النووية الروسية على بِنية المسلمين فى قازاقستان .
٢ – التعاون الاقتصادى الشامل بين إسرائيل وقازاقستان .

[١]

تأثير التجارب النووية الروسية على المسلمين فى قازاقستان

التعريف ببلاد قازاقستان :

قازاقستان : إحدى الجمهوريات الإسلامية فى الاتحاد السوفييتى سابقاً . وتقع فى وسط آسيا . وتحيط بها : أوزبكستان وقيرغيزيا جنوباً ، وجمهورية روسيا الاتحادية شمالاً ، والصين شرقاً .

وقازاقستان : بلاد متسعة ، تحتل المرتبة الثانية فى المساحة بين أقاليم الاتحاد السوفييتى بعد روسيا . وعاصمة قازاقستان هى مدينة « آلما - آتا » وسكان هذه الجمهورية الإسلامية (حسب إحصاء ١٩٧٥ م) ١٥ مليون نسمة ، وبذلك تحتل المرتبة الثالثة فى عدد السكان فى الاتحاد السوفييتى بعد جمهورية روسيا الاتحادية وجمهورية أوكرانيا .

وقازاقستان (وهى من كلمتين : القازاخ أو القازاق ، وستان بمعنى أرض) والقازاق شعب من الشعوب التركية يتحدث بالتركية ، وهو شعب مسلم سُنِّى .

المأساة :

أنعم الله على « قازاقستان » بالموقع الاستراتيجى المتفرد الهام ، والسعة فى المساحة بين الجمهوريات السوفييتية ، كما أنعم عليها بكثرة سكانها وكثرة إنجابهم .

وأنعم الله على « قازاقستان » بالنِّعم الكثيرة الاقتصادية . وهى درَّة فى عقد الاتحاد السوفييتى . تأتى بلاد القازاق الثانية فى البلاد السوفييتية سابقاً فى إنتاج الحبوب ، والثانية أيضاً فى إنتاج الصوف ، والثالثة فى إنتاج اللحوم ، والثانية فى إنتاج النحاس ، والثالثة فى إنتاج الفحم والبترول ، والثالثة فى حجم الإنتاج الصناعى . كما أن قازاقستان هى المصدر الرئيسى للاتحاد السوفييتى السابق فى إنتاج الرصاص والزنك .

كل هذا كان وبالاً على المسلمين فى قازاقستان ، ذلك لأن الحكومة المركزية فى موسكو عملت على تهجير هؤلاء المسلمين من أرضهم وبلادهم إلى خارجها ، وتوطين هؤلاء المهجَّرين – وهم بأعداد ضخمة – فى سيبيريا بحجة أن تعميرها جزء من السياسة السوفييتية المركزية . وفى مقابل ذلك قامت الحكومة المركزية السوفييتية بإحلال أعداد كبيرة من الروس ومن الأوكرانيين محل القازاقستانيين المهجَّرين . واستمرأت الحكومة ذلك حتى تراجعت نسبة أصحاب البلاد الأصلية « القازاق » إلى ٦٨ ٪ من مجموع سكان جمهورية قازاقستان .

إن نسبة المتعلمين من المسلمين القازاق كبيرة فهى ٧ , ٩٩ ٪ ، والذين يحملون الشهادة الثانوية والجامعية ٢ , ٥٢ ٪ . وفى قازاقستان أكاديمية ضخمة للعلوم يتبعها ٣٤ مركز بحوث (عام ١٩٩٣ م) .

وأقامت الحكومة المركزية السوفييتية فى قازاقستان – قبل استقلالها – « بيكونر » لإطلاق سفن الفضاء السوفييتية .

كما جعلت موسكو من قازاقستان المسلمة ميداناً لتجاربها النووية .

مؤتمر صحفى كبير :

وصل الأمر بالتجارب النووية الروسية فى قازاقستان المسلمة أن تحولت هذه البلاد إلى شرنوبل أخرى ، والعالم لا يدرى عن ذلك شيئاً .

انكشفت هذه الحقيقة عندما عقد بعض أساتذة معهد الطب الشرعى القازاق مؤتمراً صحفيًّا فى استانبول نشرته مجلة « الميزاب الذهبى » وحضره من هؤلاء الأساتذة الدكتور « آق زاد آقين قولو » والدكتورة « ضميرة آيتقول » وكان المتحدث باسم أساتذة المعهد الدكتور « صائم بالقومان » رئيس معهد الطب الإشعاعى فى قازاقستان .

بدأ الدكتور « صائم » قوله بأن التجارب النووية التى أجراها الاتحاد السوفييتى فى أراضى قازاقستان المسلمة قد أدَّت إلى نتائج سلبية تماماً .

وعدَّد الدكتور صائم فى مؤتمره هذا التجارب النووية التى قامت بها روسيا فى قازاقستان حتى وصلت إلى ٧٠٠ (سبعمائة) تجربة نووية حتى مايو ١٩٩٠ م .

وكانت مفاجأة هذا المؤتمر هو تصريح الدكتور صائم بأن التجارب النووية السبعمائة قد حولت المنطقة إلى شرنوبل أخرى .

ثم قام مدير معهد الطب الإشعاعى القازاقى بذكر المآسى التى يعانيها مسلمو قازاقستان من جرَّاء قيام روسيا بإجراء تجاربها هذه فقال :

- مات من مسلمى قازاقستان نتيجة التجارب الروسية النووية مائة ألف قازاق (١٠٠,٠٠٠) نتيجة الإشعاع النووى .
- مات قبل أن يُولد ٢٩ فى الألف من أطفال مسلمى قازاقستان بفعل تأثير الإشعاعات النووية على الأمهات .
- ارتفاع نسبة الأمراض النفسية فى قازاقستان إلى ٤٨ ٪ نتيجة التجارب النووية .
- إصابة مائة ألف قازاقى (١٠٠,٠٠٠) بمرض السرطان من جراء تنفيذ هذه التجارب النووية .

وأنهى الدكتور صائم رئيس معهد الطب الإشعاعى فى قازاقستان مؤتمره الصحفى بقوله :

« لم تكن الأحداث التى وقعت فى بلادنا قازاقستان إلا محاولة من الحكومة المركزية السوفييتية فى موسكو لإنهاء الوجود الإسلامى فى بلاد قازاقستان ، إنها تريد القضاء علينا » .

بقى القول بأن وجهة النظر الرسمية السوفييتية فى هذا الأمر الخطير وفى نتائجه الفظيعة حسبما أذاعته حكومة موسكو وقتها تعليل هذا بنقص الفيتامينات ، وأن ذلك هو الذى أدى إلى الإضرار بصحة المسلمين فى قازاقستان ، وأن كل ما فى الأمر هو انتشار مرض « البلاجرا » فى هذه البلاد ، وأن الحكومة جادة فى سدِّ النقص فى الفيتامينات .

ولهذا أشار الدكتور صائم ، وقام بتكذيب وجهة النظر الرسمية السوفييتية فى هذه المسألة .

إن الحكومة المركزية السوفييتية قد اضطرت للكذب حتى لا يثور الرأى العام العالمى والإسلامى ، كما حدث فى شرنوبل .

لكن كذب بيان الحكومة لا ينفى الواقع المرير الذى تعرض له مسلمو قازاقستان ، كما مرَّ فى التقرير .

[٢]

التعاون الاقتصادى الشامل بين إسرائيل وقازاقستان

مغزى التعاون الاقتصادى بين « إسرائيل » وقازاقستان
و ١٥٠ مشروعاً بين البلدين

لا شك أن ما أعقب انهيار الاتحاد السوفييتى من عودة المناطق التى كان يحتلها على مدى التاريخ القيصرى والتاريخ الشيوعى إلى أصولها ، تشد انتباه المراقبين ومتتبعى أخبار ما بعد هذا الانهيار .

وعودة الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز إلى هويتها تقف أمامها عقبات منها : أن ما عانته شعوب آسيا الوسطى والقوقاز فى الحفاظ على إسلامها كان شديداً وعبر قنوات . قد أدت الطرق الصوفية دوراً محدَّداً فى حفاظ الناس هناك على هويتهم الإسلامية . وقد حرصت الإدارة القيصرية ثم الشيوعية على قتل رؤوس الحركات الإسلامية من العلماء ومن علماء المتصوفة أيضاً .

والمعروف أن الطريقتين النقشبندية والقادرية قد اتحدتا عام ١٨٧٧ م للقيام بثورة كبرى فى بلاد الشاشان وداغستان ، فأعدمت السلطات الشيخ محمد بن الشيخ عبد الرحمن وكان نقشبنديًّا . وكان أغلب الذين قاوموا الطغيان الروسى قادريين . وأعدم الروس كل شيخ كبيراً كان أو صغيراً نجا من المعارك التى قامت بين المسلمين والروس ، ونفى الروس آلاف المريدين إلى سيبيريا .

وبرغم فظاعة قمع حركة ١٨٧٧ / ١٨٧٨ م هذه وقتل كل رؤوس الحركة ، إلا أن الحركة عادت من جديد . لكن هزيمة ١٨٧٧ م التى عانى منها المسلمون كثيراً قد أحدثت تغييراً جذريًّا فى حركة « الحركة الإسلامية » كما أحدثت تغييراً فى « فعاليات » الطرق الصوفية فى كل شمال القوقاز . ذلك لأن الطريقتين : النقشبندية والقادرية قد تركتا فكرة الجهاد ولجأت الطريقتان إلى العمل السرى وترك الجهاد العسكرى .

ولم يكن هذا يعنى أن السلطات الحاكمة قد تركتهم برغم تركهم للجهاد العسكرى ، فقد مات فى سيبيريا منفيًّا عام ١٨٩٠ م الشيخ شدى يورطلو على خان ، وهو شيخ مشهور من مشايخ النقشبندية . وتحول خليفته وهو الشيخ دنى أرسلان إلى متمرد فى منفاه حتى أنه قتل بيديه حارسه الروسى . وأعدم الروس الشيخ النقشبندى منتوبه لى مادالى الذى أدار تمرد أنديجان عام ١٨٩٦ م . ومات الشيخ بهاء الدين وزيروف فى مستشفى روسى للأمراض العقلية ، وهو شيخ نقشبندى فى منطقة قازان .

ويسجل المختصون أنه فى نهاية القرن التاسع عشر كان كل عالم فى داغستان وفى شاشانيستان عضواً فى طريقة صوفية ، وأدوا دورهم فى حفاظ الناس على هويتهم .

إلا أن التصورات الإسلامية لدى الناس فى آسيا الوسطى والقوقاز قد أخذت مجرى مقاوماً غريباً . أضرب هنا مثالاً على أن السوفييت كانوا قد اعتبروا أن « الإسلام » خارج عن القانون ، وبالتالى فقد حاولوا إلغاءه ، ومنعوا بالتالى الحج إلى الحرمين الشريفين ، فأصبح المسلمون هناك يعتقدون فى « المزارات المقدسة المحلية » .

وأقدم هنا فقرة من كتاب صدر فى موسكو عام ١٩٦٧ م يقول فيه مؤلفه « ماقاطوف » : إن الشعب فى داغستان والشاشان والأنكوش قد ترك الذهاب إلى الجوامع منذ زمن طويل ، ولم يعد الناس يستمعون أو يحترمون رجال الدين الرسميين المعينين من قِبَل السلطات الروسية الرسمية ، وتركوا الكثير من أوامر دينهم ، لكنهم ما زالوا متمسكين بإيمانهم الخاص بالأماكن المقدسة .

وفى قازاقستان ، وبالضبط فى منطقة جيمكند ، قضاء يُسمَّى قضاء تركستان ، وفى هذا القضاء (قبر الصحابى عكاشة الذى استشهد وهو يحارب الكفار) وقد لاحظ الدارسون أن هذا القبر قد عاد إلى حيويته مرة أخرى عقب الحرب العالمية الثانية . وما معنى : عاد إلى حيويته ؟ يعنى هذا فى التعبير المحلى هناك أنه أصبح مزاراً دائماً ليس لمناطق جنوب قازاقستان فقط بل مُتجهاً لشد الرحال من مناطق أنديجان ونمنكان ومرغلان فى أوزبكستان ، بل من كل طاجيكستان .

وقال صحفى قازاقستانى : إن عربات النقل تنقل يوميًّا أعداداً كبيرة من الزوار من الناس العاديين ومن المثقفين المسلمين ، بل ومن رؤساء الحزب الشيوعى وأعضاء

مجلس السوفييت الشيوعى ، وأعضاء منظمة الكومسمول الشيوعية . واختلط الحابل بالنابل ، كما يقول التعبير العربى .

البحث عن هوية :

ولما انهار الاتحاد السوفييتى سعت شعوبه إلى الاستقلال واستقلت ، وأخذت شعوبه تبحث عن هويتها . وهنا مربط الفرس . أية هوية ؟ فمناطق الجمهوريات المسلمة الخمس : أوزبكستان وقيرغيزستان وقازاقستان وطاجيكستان وآذربيجان حصلت على استقلالها ، والقائمون على السلطة فيها هم أنفسهم الذين كانوا قد عُيِّنوا من قِبَل موسكو وقت سلطة الاتحاد السوفييتى . وهنا لجأت شعوب المنطقة إلى تكوين جبهات معارضة كان الأساس فيها الإسلام ، لكن المشكلة هنا هى مفهوم الإسلام . والمشكلة الإدارية أن الاستقلال قام على أعضاء الحزب الشيوعى فى كل جمهورية منها . فأصحاب السلطة لا يريدون إلا الاستمرار فى عهد ما بعد الاستقلال ، وأعلنوا أنهم ينتمون إلى الإسلام . وقيام الجبهات المعارضة نادت بإسلام - تراه حقيقيًّا - وتنفِّر من السلطات الشيوعية القائمة .

وبدأت آذربيجان بالمعارضة من أجل الإسلام ، وتجمع الناس هناك حول جبهة الشعب الآذرى التى قادت البلاد - قبل تشكلها رسميًّا - فى مقاومة محمومة ضد جحافل الروس ودباباتهم التى أرسلها جورباتشوف لتأديب المسلمين فى باكو . لكن الجبهة - لأنها تنادى بالإسلام - دخلت أول انتخابات فى البلاد وقضت على الديكتاتور الشيوعى مُطلِّبوف ، ونجح أبو الفيض - وهو رئيس جبهة الشعب الآذرى - فى أن يكون رئيساً للجمهورية . وأبو الفيض شخصية آسرة مخلصة للإسلام ، يكره الشيوعية ويكره « الشيعية » ، يكره روسيا ويكره إيران ، ويرى أن الإسلام هو الحل .

ولكن ليسمح لى قارئى هنا أن أستعرض فكرة عامة عن مفهوم الإسلام لدى شعوبنا فى منطقة آسيا الوسطى والقوقاز من خلال نموذجين :

الأول : آذربيجان متمثلة فى بعض آراء الرئيس أبى الفيض (ألْتشى بَىْ) .

والثانى : قازاقستان متمثلة فى بعض آراء السيدة سلطنت أرْمُكوفا عضو اللجنة المركزية لحزب « ألاش » الدينى فى قازاقستان .

النموذج الأول :

يرى الرئيس أبوالفضل ألتشى بَىْ الرئيس المنتخب والمحبوب من شعبه فى آذربيجان (نقلاً عن مجلة كوبرى عدد أغسطس ١٩٩٢ م) ما يلى :

« إن ما فى إيران ليس هو الإسلام الحق » و « إن الذين فى السلطة فى إيران يسيئون إلى الإسلام ، وإن هذا أخوف ما يخيفنا فى آذربيجان » و « إنى أطالب بأن يختار سكان إقليم آذربيجان فى إيران مصيرهم بأنفسهم عن طريق انتخاب حر » و « إن استخدام إيران للإسلام بهذا الشكل الذى هم فيه يضرنا نحن الآذريين الأتراك » و « إن تعاون دولة إسلامية هى إيران مع دولة كافرة هى آرمينيا تعاوناً يجعل إيران تمد يد العون بالسلاح والدواء والغذاء للآرمن لكى يقتلوا المسلمين الآذريين فى قرة باغ لأمرٌ يثير دهشة المسلم وغير المسلم » و « أى أن إيران تناصر أرمينيا فى حربها ضد آذربيجان على إقليم قرة باغ الآذرى » و « إن الذى يتحدث عن الدولة وينقدها فى إيران يُعدم شنقاً . هل هذا هو الإسلام ؟ إن سيدنا محمد ﷺ أمرنا بألّا نروِّع أولادنا . يقول الفلاسفة غير المسلمين : إن الإسلام هو أكثر الأديان مجاراة للحياة الإنسانية فى كل زمان ومكان . إننا فى آذربيجان نريد هذا الإسلام » .

النموذج العلمانى :

والرئيس أبو الفيض مخلص فى هذا ، فتاريخه فى حركة المقاومة ضد الكفر والشيوعية شاهد بذلك . لكنه – وهو فى السلطة – تُرى إلى أى حد يستطيع إلغاء القوانين التى اتخذها الرئيس السابق له وهو مطلبوف الشيوعى . وهذه القوانين التى اتخذها مطلبوف وأيدته فيها السلطة الشيوعية وقتها ، وهى اتخاذ تركيا بوصفها العلمانى نموذجاً لآذربيجان ، واتخاذ تركيا بحروف الكتابة اللاتينية نموذجاً لحروف كتابة اللغة التركية الآذرية .

إذا كان الرئيس أبو الفيض ألِتشى بَىْ – وهو من أفضل رؤساء المنطقة الجدد

إسلاميًا حتى الآن - يرى أن النموذج الإسلامى فى إيران مرفوض شعبيًا وحكوميًا فى آذربيجان ، فليس بالضرورة أن يكون النموذج التركى - الرسمى - إسلاماً ، لأن الحكومة التركية منذ إنشاء الجمهورية على أساس تفكير مصطفى كمال أتاتورك كانت - وهى أمور معروفة - لفصل الدين عن الدولة بالمفهوم الشرقى ، أى موقف المواجهة بين الحكومة والشعب المسلم . والمعروف أن فصل الدين عن الدولة فى المفهوم الأوروبى أرقى منه فى المفهوم الشرقى ، فالحكومات الأوروبية لا تُنصِّب نفسها عنصراً مضادًا للدين كما هو الحال فى الشرق العلمانى .

وعلى كل حال يظل الرئيس أبو الفيض ألتشى بى هو الرئيس الوحيد - حتى الآن (عام ١٩٩٣ م) - الذى جاء مسلماً وطنيًا غير شيوعى على رأس السلطات فى منطقة آسيا الوسطى والقوقاز .

النموذج الثانى :

ثم نأتى بعد ذلك إلى محاولة فهم الإسلام فى عقل القازاق . فالمعروف أن قازاقستان هى أكبر جمهورية فى الإمبراطورية الروسية بعد جمهورية روسيا . هذا تعبير الأستاذ محمود شاكر الجغرافى السورى الذى خدم المكتبة الإسلامية فى مجال آسيا الوسطى والقوقاز قبل أن تكون هذه المناطق تحت مجهر الإعلام الدولى .

وقازاقستان منطقة غنية فى ثرواتها الزراعية والحيوانية والمعدنية والكروم والبترول والفحم الحجرى والفضة وتحكمها الآن المجموعة الشيوعية نفسها التى كانت تحكمها قبل الاستقلال ، مجموعة الرئيس نظر باييف . وقد قامت مجموعة هذا الرئيس فور الاستقلال بتبنى العلمانية التركية الغربية رسميًا والأخذ بالحروف اللاتينية فى كتابة اللغة التركية القازاقية ، والتقرب من الغرب ، والتعاون مع اليهود .

تغيير الأسماء :

وتيار المعارضة الإسلامية قوى فى قازاقستان ، وعلى قدر شدة السلطة يكون انتشار الفكرة الإسلامية . والفكرة الإسلامية قوية فى قازاقستان ، لكن القضية هى مفهوم « المعارضة » للإسلام . والمعارضة تسير بخطى ثابتة واثقة نحو السلطة ،

فشعوب منطقة آسيا الوسطى والقوقاز غير راضية عن السلطة القديمة أو الحرس القديم ، أى السلطة الشيوعية بالأمس ، وهى سلطة اليوم فى عهد الاستقلال .

وقد نجحت شعوب المنطقة فى إرساء إرادتها بفرار مُطلّبوف من آذربيجان وتولّى الإسلاميين السلطة ، وطرد عبد الرحمن نابى - يبف من السلطة فى طاجيكستان ، والمنطقة تغلى ، و « حزب حركة الشعب الأوزبكى بقيادة عبد الرحمن بولاطوف » تسعى حثيثاً بتنظيم واضح ورعاية قوية إلى قلب حكم الرئيس كريموف ، والرئيس كريموف من « الحرس الشيوعى القديم » قلبه من السلطة واستبدال السلطة بأفرادها الشيوعيين السابقين إلى إسلاميين . ووصل الأمر بعبد الرحمن بولاطوف - زعيم المعارضة - أن قال فى بيان صحفى نشرته جريدة آسيا الجديدة « يكى آسيا » فى عددها الصادر فى ٢٦ / ٨ / ١٩٩٢ م : إن كل إنجازات الرئيس الحالى فى أوزبكستان لم تتعد أكثر من تغييره لاسم « الحزب الشيوعى » إلى اسم « الحزب الديمقراطى الشعبى » .

وفى قازاقستان أعلن الرئيس باييف أنه مع العلمانية الغربية وأن هذا هو النموذج الصالح للبلاد الإسلامية ، وقد طبقته تركيا ، وأنه مع الحروف اللاتينية ويجتهد نظر باييف فى الحصول على سمعة دولية قوية ، فهو يزور تركيا كثيراً - وعلى وزن جورباتشوف فى زياراته للغرب - فقد أصبح له اسم واسع الصدى فى الخارج ، لكنه يقف حائراً أمام الأحزاب المعارضة وعلى رأسها حزب « آلاش الإسلامى » .

وهنا نحاول أن نفهم الإسلام فى فكر « آلاش » من خلال حديث السيدة سلطنت أرمكوفا عضة اللجنة المركزية فى حزب « آلاش الإسلامى » المعارض للرئيس نظر باييف فى قازاقستان :

« إن حزب « آلاش » حزب غير معترف به رسميًّا فى قازاقستان (برغم الحرية التى نالتها الأحزاب الأخرى الإسلامية فى كل المنطقة) لذلك لا يُقْبِل المواطنون على تسجيل أسمائهم فى الحزب ، فهم يخافون . المؤمنون برسالتنا كثيرون . حكومة الرئيس نظر باييف لم توافق على قيام حزبنا لأن هذه الحكومة تخاف من قوتنا وتأثيرنا وتخاف من الديمقراطية . هناك مجموعة من قادة حركتنا مُلقى بهم فى غياهب السجون فى قازاقستان ، وقسم من هؤلاء القادة يختبئون لوقت الضرورة » .

الإسلام المستقل :

وقد سأل أحد الصحفيين السيدة سلطنت سؤالاً محرجاً قال فيه : « تُرى هل هناك نية فى اللجوء إلى السلاح وإلى القوة لفرض الديمقراطية فى قازاقستان ؟ »

فأجابته قائلة :

« إن نشاطنا يتلخص فى تنظيم المظاهرات وإلقاء الخطب للتوعية . إننا نعمل على التحدُّث إلى الشعب القازاقى ، لكننا ضد التطرف وضد الإرهاب . إذا كان لا بد للديمقراطية أن تأتى فلتأت بالخطب والتوعية ولا تأتى بالمسدس والبندقية . إن الحركة الديمقراطية فى قازاقستان تعمل منذ السنتين الأخيرتين (من كلامنا هذا) لإقامة حزب سياسى ، لكن الحكومة فى قازاقستان – حكومة الرئيس نظر بابيف – لا تريد معارضة لها فى البلاد . إن رغبتنا هى التحدث عن الحقائق أمام الشعب » .

وعن الإسلام ومفهوم القازاق عنه قالت السيدة سلطنت :

« إن شعارنا هو : الإسلام والوطنية التركية والديمقراطية . يعنى نريد أن تتحد الدول التركية (دول آسيا الوسطى وآذربيجان وأتراك روسيا وتركيا) نريد الإسلام ونريد الديمقراطية المتعددة الأحزاب فى قازاقستان . نريد أن يكون الإسلام مستقلاً فى قازاقستان ! لكن لسنا قوميين متطرفين . نريد إسلاماً كإسلام أختنا الكبرى تركيا . نريد تحقيق الإسلام فى بلادنا قازاقستان كما طبَّقه إخواننا الأتراك فى تركيا . إنه النموذج الإسلامى لنا ، أما النموذج الإيرانى فلا ، إن الذى فى إيران ديكتاتورية وليس الإسلام . إننا نريد إسلاماً ديمقراطيًّا . إن الديمقراطية هى لب الإسلام . كل واحد حر فيما يؤمن به مسلماً كان أو مسيحيًّا . هناك أناس كثيرون ينظرون إلى ما فى إيران فيخافون من الإسلام . نحن لا نستطيع الضغط على الناس لكى يتَّبعوا الشريعة الإسلامية ، فالقضية قضية إيمان . مؤمنون كثيرون يطبِّقون الشرع ولا يطبِّقه من لا يؤمنون به . فأنا مثلاً سيدة مؤمنة وأرتدى الحجاب كما ترون ، أما مترجمتى هذه التى تترجم أقوالى إليكم إيمانها منقوص ، فهى لا ترتدى الحجاب فى كل أوقاتها ، فتخرج إلى الشارع فى أوقات كثيرة وذراعاها عاريان وشعرها مرئى ، وليس من حقنا أن ندفعها بقوة لكى تتحجب » .

ويضيف كاظم كولر يوز الصحفى بجريدة « آسيا الجديدة » التركية إلى حديث السيدة سلطنت ما نصه (وقد أدلت به إلى مجلة النقطة التركية) : « إن رؤية السيدة سلطنت هى كالتالى : إن للناس احتياجاً فطريًا إلى الإيمان ، وإن الإسلام هو الطريق الوحيد الذى سيخلص الناس من الفراغ الإيمانى الذى عاشوا فيه كل الوقت الطويل الذى رزحوا فيه تحت وطأة الكفر الماركسى » .

تسلل « إسرائيل » :

من هذا المدخل نستطيع إلقاء الضوء على كيفية تفكير إخواننا « الجدد » على الساحة الدولية : مسلمى آسيا الوسطى والقوقاز . ومن هذا المدخل نستطيع رؤية تحركهم فى الساحة العالمية ، ومن فَهْمِ تفكير السلطة القائمة فعلاً الآن والسلطة القادمة — فى أغلب التوقعات — فى هذه البلاد .

تفكير السلطة الشيوعية فى عهد الشيوعية ، والمسلمة فى عهد الاستقلال ، هو تفكير تربَّى — سياسيًا واجتماعيًا — فى إطار التفكير الحزبى الشيوعى ، وفى إطار التفكير الأممى الذى لا يفرق بين مسلم وكافر ولا بين مسلم ونصرانى ولا بين مسلم ويهودى . تفكير السلطة الشيوعية قديماً ، المسلمة حديثاً ، إسلام فورى يمد يده لشركات الاستثمار الأوروبية والأمريكية والعربية .

أذاعت وكالات الأنباء أن إسحاق رابين رئيس وزراء « إسرائيل » عقد مع ممثلى قازاقستان « اتفاقية للتعاون الاقتصادى الشامل » وأن الوفد القازاق حمل معه ١٥٠ مشروعاً للتعاون الاقتصادى والاستثمار المشترك بين قازاقستان و « إسرائيل » وخاصة فى المجال الزراعى . وكان مكان الاجتماع تل أبيب .

وكان من أهداف « إسرائيل » فى هذا التعاون الوثيق منع قازاقستان من « تسريب أسلحة نووية من قازاقستان إلى إيران وعدد من الدول العربية » .

[ثالثاً]

القِـــــــرْم

١ – قصة القِرْم الدامية .
٢ – القِرْم المسلمة فى النزاع الروسى – الأوكرانى .

[١]

قصة القِرْم الدامية

كما أن فلسطين هى مأساة العالم العربى فإن القرم هى مأساة العالم التركى . إن هناك تشابهاً كبيراً بين مأساة فلسطين العربية ومأساة القرم التركية . فشعب فلسطين أُخذت منه أرضه وطُرد من دياره ، وشعب القرم (٧ ملايين نسمة) أُخذت منه أرضه وطُرد من دياره .

فى فلسطين حدثت هجرات يهودية إلى فلسطين إلى أن استولى اليهود بالقوة المسلحة على هوية الأرض الفلسطينية وأعلنوا فيها دولة يهودية (عام ١٩٤٨) . وفى القرم حدثت هجرات يهودية روسية وصقلبية روسية إلى القرم ، إلى أن استولى الروس بالقوة المسلحة على هوية الأرض القرمية (عام ١٩٤٦) .

(لاحظ فى هذا الصدد أن ستالين حاول إقامة دولة يهودية فى القِرْم) .

لكن العالم يتذكر فلسطين وينسى القرم ، حتى قصة مصطفى جميل ، المثقف القرمى الذى طالب بجرأة من السلطات السوفييتية فى عام (١٩٧٨) السماح لشعب القرم بالعودة إلى بلاده . هذه القصة لم يسمع بها العالم إلا عندما نقل العالم الروسى زخاروف أنباء التعذيب الرهيب الذى مارسته السلطات السوفييتية على مصطفى جميل ، وهو الآن (١٩٩٣ م) رئيس المجلس الوطنى القرمى .

أهل القرم : أتراك مسلمون ، يتحدثون اللغة التركية بلهجتها القرمية . والقرم (معناها القلعة) شبه جزيرة تقع فى شمال البحر الأسود . وهى اليوم مجرد إقليم عاصمته آق مسجد (أى المسجد الأبيض . لاحظ أن الروس غيروا اسمها إلى سيمفروبول) . وبموجب قرار مجلس السوفييت الأعلى فى ٢٠ / ٦ / ١٩٤٦ ضُمت القرم إلى جمهورية أوكرانيا السوفييتية الاشتراكية .

مساحة القرم ١٤٠ , ٢٦ كم . وهى منطقة غنية بالموارد الطبيعية . ومواردها تكفى حاجة أهلها وتصدر إلى البلدان والأقاليم الأخرى ، كما يشير إلى ذلك بتفصيل : مستجيب أولكوصال رئيس منظمة لاجئى القرم فى دراسته « أتراك القرم (أنقرة ١٩٧٦) ، ففيها – أى القرم – البترول والفحم الحجرى والليينيت والغاز الطبيعى والحديد والمنجنيز والرصاص والنحاس . وكل ذلك بوفرة . ويعادل حديد القرم فى جودته حديد ألمانيا ولكسمبورج .

والقمح القرمى المشهور باسم « قريمكا » جيد ووفير . والفواكه كثيرة ومتعددة الأنواع (فى القرم ٤٥٠ نوعا من العنب و ٥٥٠ نوعاً من الكمثرى ، والأمثلة كثيرة) .

والغابات الكثيفة والملح والمرمر والتبغ من الشواهد على غنى القرم .

القرم .. التاريخ :

كانت القرم ولاية فى دولة التون أوردو (الجيش الذهبى) التى أسسها أحد أحفاد جنكيز خان وهو : باطوخان (١٢١٨ م) . وعندما دمَّر تيمور لنك هذه الدولة تفرقت إلى ثلاثة (خانيات) ، كانت القرم واحدة منها .

تولَّى الحكم فى خانية القرم عائلة كيراى (منذ ١٤٢٧ إلى ١٧٨٣) التى فطنت إلى خطورة روسيا على القرم ، فوقفوا ضد توسعها : حاصر محمد كيراى موسكو عام ١٥٢١ م وأخضع حاكمها واسيلى وأجبره على دفع الجزية ، ثم فتح دولت كيراى موسكو عام ١٥٧١ م .

وعندما أصاب الضعف خانية القرم بدأت اعتداءات الروس عليها . وفى عام ١٧٧١ قتلت الجيوش الروسية ٣٥٠ , ٠٠٠ قرمى (مستجيب أولكوصال – المرجع السابق) .

وعندما تنبه شاهيم كيراى آخر حكام عائلته (١٧٧٧ – ١٧٨٣) إلى ضعف بلاده حاول إعادة بنائها وتقويتها فلم تمهله كاترينا الثانية (١٧٢٩ – ١٧٩٦) إمبراطورة روسيا ، فبادرت بإرسال الجيوش الروسية بقيادة الجنرال بوتمكين عام ١٧٨٣

إلى غزو القرم . وتلاه أمر الإمبراطورة كاترينا بإلحاق القرم بالإمبراطورية الروسية . وقد دخل الجنرال بوتمكين القرم وهو يحمل الصلاحية الكاملة لطرد شعب القرم والقضاء على دينه وثقافته ، رغم التعهدات الشكلية التى وعدت بها الإمبراطورة الروسية بالمحافظة على كل حقوق القرميين .

يقول إدوارد دانييل كلارك ، وهو شاهد عيان على العدوان الروسى فى القرم (١٨١٢) : « إنهم (أى الروس) هدموا وأحرقوا القرم ، كسروا الأشجار ، خربوا المنازل والمساجد والأماكن العامة والقنوات ، سرقوا أهل القرم ونهبوهم ، وأظهروا السخرية بدينهم وبتقاليدهم ، هدموا قبورهم ونبشوها .. » .

قال هذا أيضاً الكاتب الروسى سوماراكوف (١٨٠٣) ، والكاتب الفرنسى دوبوا (عام ١٨٣٩) .

ونتيجة لتطبيق السياسة الروسية الرامية إلى طرد الأتراك القرميين من بلادهم وتحويلهم إلى أجراء فى أرضهم بعد سحب ملكيتها منهم وتركهم بلا عمل يتعيشون منه ، بدأت الهجرات من القرم إلى تركيا ، حتى وصل عدد المهاجرين منهم قرب نهاية القرن التاسع عشر إلى مليون و ٢٠,٠٠٠ نسمة ، وحول الروس ٨٣٠ مسجداً (من مجموع ١٥٥٦) إلى أغراض غير عبادية .

يقول الجنرال الروسى لفيتسكى فى مذكراته المنشورة عام ١٨٧٩ : « إن الحكومة الروسية لم تتخلَّ – وهى فى سبيل الوصول إلى المضايق والمياه الدافئة – عن اقتراح الأمير منشكوف الخاص بتهجير أتراك القرم إلى داخل روسيا وإلى الولايات الروسية البعيدة أيضاً ... » .

وفى ١٣ / ١٢ / ١٩١٧ تم إعلان استقلال جمهورية القرم الشعبية فى ظل الثورة البلشفية ، يقوم على إدارتها حكومة وطنية ، لكن البلاشفة « لم يكونوا جادين » فى إعطاء القرم الاستقلال لأن ٣٠,٠٠٠ من بلاشفة مدينة (آق يار) – غيَّر الروس اسمها إلى (سيفاستبول) – من جنود البحرية والعمال لم يعترفوا بسلطة الحكومة الوطنية ، وقاموا بمساعدة الروس المهجَّرين إلى القرم من يهود وصقالبة بإسقاط الحكومة وإعدام رئيس جمهورية القرم جلبى نعمان وإلقاء جثته فى البحر (٢٣/ ٢/ ١٩١٨) .

وفى عام ١٩٢٠ أعلنت موسكو قيام جمهورية القرم ذات الاستقلال الذاتى وعينوا لرئاستها بلشفيًا قرميًا يُدعى ولى إبراهيم .

وفى عام ١٩٢٨ اعترض ولى إبراهيم وأعضاء حكومته القرمية على فكرة ستالين بإقامة دولة يهودية فى القرم وبالتالى على تدفق الهجرات اليهودية إلى القرم ، فصدرت الأوامر من موسكو بإعدام رئيس جمهورية القرم ولى إبراهيم وكل أعضاء حكومته وبإخماد الحركة الشعبية القرمية المعترضة . صحيح أن فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى القرم لم تُنفَّذ ولم تتم ، إلا أن الهجرات اليهودية الروسية إلى القرم كانت قد استقرت فيها .

وعلى إثر الاعتراضات الوطنية على قرار ستالين أصدر هذا أمره المشهور عام ١٩٢٩ بنفى ٤٠,٠٠٠ قرمى من بلادهم إلى منطقة (سفرد لوفلك) فى سيبيريا حيث معسكرات العمل الإجبارى الشاق ، فمات الكثيرون منهم من الجوع وقسوة البرد (درجة الحرارة فى سيبيريا تتراواح بين ٣٥ - ٤٠ تحت الصفر) .

وعندما اعترض محمد قوباى رئيس جمهورية القرم على سياسة التجويع التى اتبعت تجاه البلاد (١٩٣١ - ١٩٣٣) نتيجة لاستيلاء حكومة موسكو على محاصيل القرم الزراعية وبيعها بالخارج ، نفاه الروس من بلاده (لاحظ أن مجاعة مماثلة حدثت فى القرم عام ١٩٣١ ، أودت بحياة ٦٠,٠٠٠ قرمى) .

وعند احتلال الألمان للقرم فى الحرب العالمية الثانية تعاون القرميون معهم ضد الروس ، فانتقم الجيش الأحمر - بعد هزيمة ألمانيا - من القرميين . ففى تاريخ ١٠ - ٢٥ / أبريل عام ١٩٤٤ نفى الروس البقية الباقية من شعب القرم من بلاده إلى آسيا الوسطى وسيبيريا ومناطق الأورال .

يقول رئيس منظمة اللاجئين القرميين : « ظل كل فرد من شعب القرم فى المناطق التى نُفى إليها خاضعاً لمراقبة الشرطة ليلاً ونهاراً ، خلال عشر سنوات . أما بعد هذه السنوات العشر فقد خُففت هذه المراقبة بحيث سمحت السلطات السوفييتية بإمكان تغيير القرميين لأماكن إقامتهم وسكنهم بشرط ألّا يتعدى هذا حدود الولايات التى تمَّ النفى إليها .

وبعد انتهاء الحرب اجتمع مجلس السوفييت الأعلى فى ٢٠ / ٦ / ١٩٤٦ ، وأصدر قراره بإلغاء جمهورية القرم نتيجة « لخيانة شعب القرم للدولة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وتعاونه مع الألمان » وبإلحاق بلاد القرم بجمهورية أوكرانيا .

صحيح أن مجلس السوفييت الأعلى اتخذ قراراً عام ١٩٦٧ بإلغاء قرار اتهام شعب القرم بالخيانة ، لكن شعب القرم لم يعد من المنفى إلا بعد انهيار الاتحاد السوفييتى بعد أن كان الاعتقال والحبس مصير كل قرمى ينادى بعودة شعب القرم من منفاه إلى أرضه ، وكان من هؤلاء عالم الفيزياء النووية المسلم المشهور قاضى ييف .

[٢]
القرم المسلمة فى النزاع الروسى – الأوكرانى

ذكرت إذاعة لندن فى نشرتها العربية يوم ٧ / ٢ / ١٩٩٢ م خبراً تقول فيه : إن أوكرانيا تحذِّر الحكومة الروسية بأنها سترفض أية مطالبة بشبه جزيرة القرم التى يوجد بها أسطول البحر الأسود والتى قُدِّمت هدية من موسكو قبل أربعين سنة إلى أوكرانيا ، وأن البرلمان الروسى صوَّت قبل أسبوعين لصالح إعادة دراسة شرعية إعادة القرم إلى روسيا وتشكيل لجنة تحقيق فى المسألة .

والواقع أن النزاع بين دولتين جديدتين هما الاتحاد الروسى أو روسيا الاتحادية وبين جمهورية أوكرانيا ، وهو النزاع الذى حدث عقب انحلال الاتحاد السوفييتى ، كان نزاعاً بين دولتين سلافييتين نصرانيتين ، قهرتهما الماركسية من قبل وتحررتا منها حديثاً .

وانصبَّ النزاع بينهما على :

١ – أسطول الاتحاد السوفييتى ملكية من ؟ روسيا أو أوكرانيا ؟

٢ – ترسانات الأسطول السوفييتى فى القرم ، وبالتالى فالقرم ملكية من ؟

والمواجهة بين روسيا وأوكرانيا على قيادة الأسطول والسيادة على القرم إنما هو خلاف إذا لم يحل فسيتبعه توقع انحلال الكومنولث الجديد ، على الأقل فى جانبه العسكرى . والمعروف أن البرلمان الروسى رفض مطالبة أوكرانيا بالسيطرة على القوات البحرية السوفييتية ، وهى الأسطول البحرى الضخم الذى تتواجد الأغلبية الساحقة منه فى البحر الأسود .

والغريب فى أمر هاتين الدولتين : روسيا وأوكرانيا أنهما تتنازعان على ملكية أرض لا حق لإحداهما فى امتلاكها ، ألا وهى أرض القرم أو شبه جزيرة القرم . وشبه جزيرة القرم أرض إسلامية يسكنها القرميون وهم أتراك مسلمون .

والقرم المسلمة : شبه جزيرة فى شمال البحر الأسود . يحيط بها بحر القازاق شرقاً والبحر الأسود من الجنوب والغرب . وعاصمتها تسمى « آق مسجد » بمعنى « المسجد الأبيض » . وكانت دولة تركية ، تحكمها خانية القرم ، وانضمت للدولة العثمانية .

وكانت مشكلتها مع الروس هى نفس مشكلة بقية المسلمين مع الغرب ، فالنظرة الحضارية للمسلمين كانت قاصرة على مبدأ : (إذا دب الضعف فينا فلا بد أن نأخذ كل شيء من الغرب) بما فى ذلك بعض القيم وتعميق العلاقات فى الضرورى منها وغير الضرورى .

والتاريخ هنا فى هذا الموضوع خطير إذ أن العبرة تأتى من تحرُّك حاكم القرم المسلم « شاهين كيراى » عام ١٧٨٣ م ، وكان هذا الحاكم تابعاً للدولة العثمانية ، وكان يريد لبلاده نهضة مادية فلجأ إلى عدوته كاتريا الثانية لتحديث جيشه ، فأرسلت له مجموعة مستشارين روس ليكونوا فى خدمته ، وكان له تصوُّر إنشاء أسطول قرمى ضخم فى البحر الاسود ، فزيَّنوا له هذا الأمر ، فأعقب ذلك أنه فرض الضرائب الباهظة على شعبه ثم ألغى الأوقاف وأدخل العادات الروسية فى بلاد المسلمين . فما كان من شعبه إلا أن ثار عليه ، ففر إلى روسيا ولم يفر إلى بلاد مسلمة ، فانتهزت « كاترينا » الفرصة فأرسلت جيشاً روسيًّا احتل القرم بحجة إعادة الحاكم الفارِّ إلى عرشه . لكن الذى حدث أن لم يعد واستمرت روسيا بفظيعها : القيصرى والماركسى تحتل شبه جزيرة القرم.

حدث فى أثناء هذه الفترة أن القياصرة ثم الماركسيين اتبعوا طريقة إفناء الشعب القرمى وتهجيره من مكانه الاستراتيجى الخطير . وكان شعبنا المسلم فى القرم يبلغ مليوناً ونصف المليون نسمة فى سنة الاحتلال وهى ١٧٨٣ م ، بلغ عددهم فى القرم بفعل التهجير الجبرى ٣٠٠,٠٠٠ نسمة فقط عام ١٩٣٩ م أى ما يقارب ربع عدد السكان الأصلى . أما فى عام ١٩٥٦ م فقد وصل عددهم إلى ١٥٠,٠٠٠ مسلم فقط فى بلادهم القرم .

والجدير بالذكر هنا أن ستالين كان يريد من ذلك طرد مسلمى القرم من بلادهم

« القرم » ليسكن مكانهم يهود الاتحاد السوفييتى ويجعل منها دولة يهودية تابعة للاتحاد السوفييتى . ومن أجل ذلك أصدر ستالين فى ١٨ مايو عام ١٩٤٤ م قراره الخطير بطرد كل مسلمى القرم من موطنهم الأصلى إلى البلاد المجاورة : سيبيريا وأوزبكستان ومناطق آسيا الوسطى . والمأساة التى لا بد أن يتذكرها كل مسلم أن تنفيذ هذا القرار كان « آنيًّا » لذلك سخرت السلطة السوفييتية عربات السكة الحديد المخصصة لنقل الحيوانات والبضائع وكل سيارات الحكومة الشاحنة بنقل « شعب » كامل من أرضه وبلاده إلى معسكرات وخيام ظل يعيش فيها إلى قبيل انحلال الاتحاد السوفييتى .

صحيح أن خروشوف وعد شعب القرم - عندما قدم ممثلو هذا الشعب المنفىّ مذكرة لمجلس « الشورى » السوفييتى يطلبون فيها السماح لهم بالعودة إلى بلادهم شبه جزيرة القرم - أثناء إدانة ستالين وفترة حكمه - وجعل خروشوف المجلس يوافق على هذا الطلب ، لكن الأجهزة الحكومية السوفييتية رفضت تطبيق القرار .

وكذب خروشوف عندما وجد أن الحكومة السوفييتية تتعقَّب المنفيين القرميين فى شتى أرجاء المنفى لتقدمهم إلى المحاكمة العسكرية الجماعية . لذا لجأ شعبنا المسلم فى القرم إلى تكوين « اتحاد شباب أتراك القرم » واختاروا « مصطفى جميل أوغلو » رئيساً له ، فوجهت إليه إدارة الشرطة السرية السوفييتية « كى - جى - بى » تهمة القيام بدعاية مضادة للشيوعية وتشكيل منظمة تعمل ضد النظام السوفييتى ، لكن أوروبا وأمريكا قد سمعت بعمليات تعذيب « مصطفى جميل أوغلو » فقامت حملة فى الغرب ضد الاتحاد السوفييتى كان من جرائها إطلاق سراح هذا القائد المسلم الشجاع من سجنه ، وقام جزء من العالم الإسلامى بالاحتجاج لدى الحكومة السوفييتية .

وبعد إعلان البروسترويكا تجمع ممثلو الشتات القرمى وذهبوا إلى موسكو وقادوا مظاهرة ضخمة فى الميدان الأحمر وطالبوا بالسماح لشتاتهم بالعودة إلى القرم ، وبالفعل أخذوا يعودون إلى ديارهم وكونوا مجتمعهم وانتخبوا السجين المعذَّب الشهير « مصطفى جميل أوغلو » رئيساً للجمعية الوطنية . وهو القائد الذى قال فى خطبته

المشهورة فى المجلس الوطنى القرمى أنه يأمر بأن يُؤذَّن فى مساجد القرم خمس مرات فى اليوم ، حتى يأتى اليوم الذى يتعلَّم فيه شعبه العائد الإسلام جيداً ، فتُقام الصلوات الخمس فى المساجد . وطالب العالم الإسلامى بإرسال الدعاة ليعلِّموا شعبه الصلاة وبقية العبادات . وأقام أول مسجد جديد فى شبه جزيرة القرم بعد ٧٠ عاماً لم يُبْنَ فيها مسجد ولا زاوية واحدة فى كل أرجاء البلاد .

فى المجلس الوطنى قال مصطفى جميل أوغلو : لقد عادت إلينا شخصيتنا الإسلامية ولا يمكن التفريط فيها ، إننا مسلمون وسنظل مسلمين ، والدين نتعلمه .

والمسلمون فى القرم الآن يسعون للاستقلال ، ليس من روسيا الاتحادية بل من أوكرانيا ، ذلك لأن روسيا كانت قد « أهدت » إهداء منطقة القرم المسلمة إلى جمهورية أوكرانيا عندما كانت الدولتان فى إطارا لاتحاد السوفييتى ، وقد ندمت روسيا أنها « فرطت » فى القرم عندما أهدتها إلى أوكرانيا . وأوكرانيا الآن تتمسك بحقها فى « القرم » بحكم أن روسيا قد تنازلت عنها إلى أوكرانيا « إهداء » فلا يحقُّ لها استرجاعها !!

والعجيب فى أمر هاتين الدولتين أن القرم بلد مسلم ، احتلَّه الروس بالاغتصاب المسلَّح عام ١٧٨٣ م ، ثم طردوا شعبه من أرضه خلال أعوام طويلة . والآن عاد الشعب المشرد إلى أرضه وإلى أملاكه وإلى حياته ، وأخذ ينظم حياته هناك رويداً رويداً ، وأخذ يقيم شعائر دينه ويتصل بالشعوب الإسلامية لمدِّه بالمصاحف وكتب التفسير وعلوم الإسلام ، وبالتالى يخطو خطوات طيبة نحو الاستقلال عن أوكرانيا .

وبعد ذلك يقف الروس والأوكرانيون المختلفون عرقاً وديناً ولغة عن القرميين الأتراك المسلمين ليتنازعوا على ملكية أرض القرم المسلمة وتبعية شعب القرم المسلم . فيا ترى هل هان المسلمون إلى هذا الحد ، أم فى الأفق صحوة ؟

[رابعاً]

مسلمـــو جورجيـــا

١ – شعب الأباظة يقاوم فى سبيل استقلاله .

٢ – شعب الأخِسْقا المسلم يعانى التشريد .

[١]

شعب الأباظة يقاوم فى سبيل استقلاله

ما هى جمهورية الأباظة ؟ وما تاريخها مع الجهاد ؟ وما قصتها مع جورجيا ؟ ثم ما تاريخ « إدوارد شيفرنادزه » مع كل من البلدين ؟ وما قصة هذه الحشود العسكرية واحتمالاتها ؟ هذا ما تجيب عنه هذه الدراسة .

شعب الأباظة شعب مسلم سنى مشهور . وعائلات أباظة فى العالم الإسلامى وفى مصر خاصة عائلات عريقة محافظة ، خدمت التاريخ الإسلامى والتاريخ العربى . وقد ظهرت فى التاريخ الإسلامى شخصيات قديرة وقوية من باشوات ووزراء وصدور عظام وشعراء وكتَّاب . ولا أستطيع أن أحصر خدمات الأباظة للعالم الإسلامى ، فهى أكبر من أن أحصرها ، لكنى أشير إلى أسماء قليلة للتذكرة فقط : محمد باشا أباظة ، وبشير باشا أباظة ، وخير الدين باشا التونسى ، وعزيز بك أباظة الشاعر ، والكاتب ثروت أباظة .

وبلاد الأباظة تُسمَّى بمسميات عديدة ، أو بمعنى أصح تُكتب بأشكال عديدة هى : أبخازيا – بلاد الأبخاز – أبهاظيا – أباظيا .

وهى بلاد صغيرة سكانها أربعمائة ألف نسمة ، ومساحتها ٨٧٠٠ كم٢ . وهى عبارة عن شريط ساحلى بين البحر الأسود وسلسلة جبال القوقاز . ذات موقع استراتيجى هام ، وكانت تقع على طريق الحرير التاريخى القديم ، لذلك كانت بلادهم عرضة لعمليات استيلاء استعمارية كثيفة وقوية ، لكن شعب الأباظة رغم قلة عدده قاوم ببطولة طوال التاريخ وحافظ على كيانه ، لذلك نجد الأباظة أقوياء البنية وأقوياء الشخصية ، محبين للحرية ، يكرهون الظلم يتربصون به وينتصرون عليه .

وكان الرومان قد أطلقوا على الأباظة اسم « أباسك » وعلى بلادهم اسم « أباسيا » وسماهم اليونانيون القدماء « كولخيدة » .

وأسس الأباظة دولة قوية فى القرن الثامن . وجاء « جلال الدين منكبرتى » (جلال الدين خوارزمشاه) فى القرن الثالث عشر والتهم بلادهم ، ثم فعل نفس الفعل المغول .

وحدث أن جاء السلطان العثمانى « محمد الفاتح » فاتح القسطنطينية ليجعل من بلاد الأباظة عام ١٤٥٥ م جزءاً من الدولة العثمانية – التى أحبها الأباظة – وظل ذلك الوضع حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

ونتيجة لرغبة روسيا القيصرية فى تنفيذ وصية بطرس الأكبر بضرورة النزول إلى المياه الدافئة رأت روسيا ضرورة الاستيلاء على كل بلاد القوقاز ومن ضمنها دولة الأباظة . وتحرك الروس نحو القوقاز وشعوب القوقاز . ففى أوائل القرن التاسع عشر احتل الروس « صوخوم » عاصمة بلاد الأباظة . ويُطلق عليها الآن « سوخومى » . وقاوم الأباظة وكان معهم الشركس ، قاوموا الروس مقاومة بطولية . وبرغم المقاومة فقد احتل الروس بلاد الأباظة . وقاوم أيضاً شعباً « داغستان » و « الشاشان » وغيرهما من الشعوب المسلمة ، لكن الروس وإمكاناتهم ودسائسهم جعلت الاحتلال الروسى أمراً واقعاً .

سالت الدماء أنهاراً فى القوقاز ضد جحافل الروس المتوحشة ، لكن الشعوب المسلمة صنعت أعظم حرب عصابات فى تاريخ البشر ضد القوات الروسية ، على حد قول الكاتب السياسى التركى « مصطفى نجاتى أوزفاطورا » ، لكن المقاومة الإسلامية القوية – برغم أنها أبرأت ذمتها أمام الله – إلَّا أن الروس اكتسحوا القوقاز وأصبحت فى قبضة القياصرة الروس .

وفى الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧ – ١٨٧٨ م) تمكن ١٢٠٠ مجاهد أباظى من تحرير مدينة « صوخوم » عاصمة بلادهم من الاحتلال الروسى ، وقاوم هؤلاء مقاومة رهيبة استمرت أربعة أشهر كاملة ، ولما لم يأت لهم أى مدد ولا مؤن تمكّن الروس من إعادة احتلال عاصمتهم .

لقد خسر شعب الأباظة نصف عدده تماماً فى حروبه ضد الهجمات الروسية الوحشية على بلادهم ، وهاجر منهم أعداد ضخمة إلى الدولة العثمانية والبلدان

العربية ، وقام الروس - بعد أن احتلوا بلاد الأباظة - بإخلاء البلاد من أصحابها وأسكنوا محلهم جورجيين (من جورجيا) حتى يكون الشعب الأباظى أقلية فى بلاده .

ونتيجة لسياسة تغيير الهوية ، تلك السياسة التى كانت العمود الفقرى للاحتلال الروسى ، أصبحت نسبة الشعب الأباظى فى بلاده ١٨ ٪ فقط من عدد سكان البلاد ، وهجَّرت روسيا أعداداً من الروس إلى بلاد الأباظة وجعلتهم يستقرون فيها حتى بلغت نسبتهم ١٥ ٪ والأرمن ١٣ ٪ والروم ١٠ ٪ بالأضافة إلى ٤١ ٪ من السكان جورجيين .

لكن لا بد أن نقف هنا لنفهم اصطلاح « جورجى » وماذا يعنى ؟

إنه عدة شعوب هى : الكرج (الجورجيون) ، والمسلمون الآجارا ، والميركال (اللاز) .

وبالتالى يمكن القول إن هناك فى بلاد الأباظة الآن خمس مجموعات عرقية : الأباظة - أصحاب البلاد الأصليون - والروس والأرمن والروم والكرج . وأكثرهم عدداً هم الأباظة أصحاب بلاد الأباظة .

لكن ينبغى القول إن الحروب الجائرة التى شنتها القوات الروسية بشكل دائم وكثيف على بلاد الأباظة ما بين ١٨١٨ و ١٨٦٤ م جعلت ٧٠ ٪ من شعب الأباظة يضطر إلى الفرار بدينه من دياره ليتبعثر بعد أن هاجرت هذه الكتلة الضخمة (٧٠ ٪ من الشعب الأباظى) فى أرجاء العالم الإسلامى .

وعندما حدثت الثورة الشيوعية فى أكتوبر عام ١٩١٧ م كانت الأغلبية فى بلاد الأباظة من الأباظة وجعلت هذه الثورة من أباظيا جمهورية سوفييتية ، لكن « ستالين » و « بريا » وكان أمر الدولة فى أيديهما . جعلا من أباظيا جمهورية ذات استقلال ذاتى تابعة لجمهورية كرجستان السوفييتية (جورجيا) وبذلك فتحا الطريق لكى تلحق جورجيا بلاد الأباظة بها .

وأُقدِّم هنا إحصاءين تاريخيين يقدِّمان فكرة عن شعب الأباظة وبلاده . ومدى القهر الروسى فى محاولة للقضاء على هوية هذا الشعب فى أرضه وبلاده .

يقول إحصاء عام ١٨٨٦ م إنه برغم هجرة وتهجير وطرد شعب الأباظة من بلاده فقد بقى منه فى بلاده ٥٨٩٦٠ نسمة وكان عدد الكرج ٣٩٨٩ نسمة . لكن إحصاء عام ١٩٥٩ م سجل أن عدد الأباظة ٦١١٩٣ نسمة فى حين وصل عدد الكرج (الجورجيين) إلى ١٥٨٢٢١ نسمة . ومن هذين الإحصائيين يتضح مدى القهر الروسى فى تغيير الهوية المسلمة .

جورجيا وشيفرنادزه :

جعل « ستالين » و « بريا » بلاد الأباظة جمهورية ذات استقلال ذاتى تابعة لجمهورية « جورجيا السوفييتية » و « جورجيا » هى إحدى جمهوريات القوقاز الواقعة على المياه الدافئة فى البحر الأسود وهى - أى جورجيا - بلاد محصورة بين تركيا من الغرب وجمهوريتين قوقازيتين من الشرق هما أرمينيا وآذربيجان . وعاصمة جورجيا هى تفليس .

وجورجيا هى ما تسميها مراجعنا ومصادرنا العربية بلاد الكرج ، وتطلق المصادر الإسلامية الأخرى على بلاد الكرج اسم كرجستان . وهى البلاد نفسها التى أنجبت « جوزيف ستالين » وأنجبت « إدوارد شيفرنادزه » وهما مشهوران : واحد بديكتاتوريته الدموية والآخر بادعاءاته الديمقراطية .

وبلاد الأباظة - كما قلنا - كانت جمهورية ذات استقلال ذاتى تابعة لجورجيا أيام أن كان فى الدنيا شيء اسمه الاتحاد السوفييتى ، إلا أن « شيفرنادزة » لعب دوراً فى هذا الاستقلال ، لذلك يجب أن نتحدث عن « شيفرنادزة » حديثاً متصلاً ببلاد الأباظة المسلمة .

وُلد شيفرنادزه عام ١٩٢٨ م بعد وفاة لينين بأربع سنوات . وعندما بلغ العشرين من عمره - يعنى عام ١٩٤٨ م - انضم إلى منظمة الشبيبة الشيوعية ومنها أخذ طريقه فى السياسة والإدارة . وبعد عشرين سنة أخرى - أى عام ١٩٦٨ م - أصبح وزيراً للداخلية بجمهورية « جورجيا » .

وأحب أن ألفت النظر هنا إلى أنه وهو فى هذه السن ، وفى هذا التاريخ ، وفى ظل

هذه المسؤولية ، أخذ فى تطبيق البروسترويكا فى بلاده « كرجستان » (جورجيا) قبل أن يعلن « جورباتشوف » مبدأ البروسترويكا فى موسكو .

وفى عام ١٩٨٥ م أصبح وزيراً للخارجية السوفييتية وأصبح عضواً فى المكتب السياسى للحزب الشيوعى « السوفييتى » لكنه ظل - والعجب هنا فيما يتصل بأحداث بلاد الأباظة فيما بعد - يمثل الجناح الليبرالى داخل الحزب .

وفى أواخر عام ١٩٩٠ م قدم استقالته التى أدهشت العالم كله ، والغريب أيضاً - بالنسبة لأحداث دولة الأباظة - أنه قرن هذه الاستقالة بتحذير البرلمان السوفييتى (٢٠٠٠) عضو من الديكتاتورية القادمة ، وأن المتشددين ظاهرون ودعاة الإصلاح مختفون .

وبعد استقالته أسس مركز الدراسات السياسية الخارجية ، ووضع فيه خبرته السياسية والدبلوماسية ، وأصدر كتابه المشهور « اختيارى » وبيَّن فيه لماذا اختار الانشقاق على الحزب الشيوعى ، ولماذا اختار تشكيل حركة ديمقراطية جديدة تطورت فيما بعد إلى حزب سياسى معارض لكل من جورباتشوف ويلتسين .

وبعد تفكك الاتحاد السوفييتى عاد « إدوارد شيفرنادزه » إلى جورجيا حيث أصبح رئيساً للدولة .

وقالت إذاعة موسكو فى ٢٣ / ٣ / ١٩٩٢ م : إن بياناً أصدرته الجماعة الأوروبية فى لشبونة (أسبانيا) ذكرت فيه أن جمهورية جورجيا قد وافقت على قبول الشروط التى حددتها الجماعة الأوروبية فى شهر نوفمبر - السابق على تاريخ البيان - وقد قدم « إدوارد شيفرنادزه » تأكيدات على أن جورجيا ستضمن حكم القانون والديمقراطية وحقوق الإنسان ، كما تضمن جورجيا أيضاً حقوق الأقليات العرقية والقومية (!) إلى جانب الأقليات الموجودة داخل جورجيا ، كما ألزم البيان جمهورية جورجيا بنزع السلاح وعدم انتشار الأسلحة النووية .

ثم تمكن « إدوارد شيفرنادزه » من الحكم فى جورجيا فاتبع سياسة أطلق عليها الصحفى « مصطفى نجاتى أوزفاطورا » لقب « السياسة التوسعية » ذلك أن « إدوارد شيفرنادزه » قد أصدر قراراً بإلغاء الاستقلال الذاتى الذى كانت جمهورية الأباظة

تتمتع به فى إطار دولة « جورجيا » ، فقام الأباظة – وهذا حقهم وهو أمر طبيعى قام به كثير من شعوب الجمهوريات الإسلامية ذات الاستقلال الذاتى مثل : تتارستان وبلاد الشاشان – قام شعب الأباظة يبحث عن ذاته ونادى بضرورة أن يعيش حرًّا مثل بقية الشعوب التى كانت أسيرة فى الاتحاد السوفييتى ، وبالتالى تحرك الشعب وأجرى انتخابات حرة تكوَّن على أثرها مجلس وطنى (برلمان) ثم اختاروا أستاذاً جامعيًّا فى مادة التاريخ رئيساً لجمهوريتهم وهو الأستاذ الدكتور « أرضيزنبا » . ولوحظ أنه قام بزيارة أنقرة – كما فعل إخوانه رؤساء دول تركستان الغربية والقوقاز – لأن تركيا تمثل لديهم الأخت الكبرى للدول التركية كافة . وكانت هذه الزيارة يوم ٢٤ يوليو ١٩٩٢ م ، وهذه الزيارة لها دلالاتها السياسية .

سلامة موقف الأباظة :

نستطيع القول الآن إن فى بلاد الأباظة سلطة تولت الحكم بأسلوب ديمقراطى نتيجة انتخابات حرة . وفى بلاد الأباظة برلمان ديمقراطى . وفى هذا المجلس – أى هذا البرلمان – أعضاء مجلس منتخبون من أصول كرجية (جورجية) من بينهم وزير داخلية الإقليم ، أى وزير داخلية بلاد الأباظة .

وكانت الأمور تسير سيراً طبيعيًّا ، وكل الأعراق التى تعيش فى بلاد الأباظة يعيشون فى سلام ، حتى قامت حكومة تفليس (عاصمة جورجيا – بلاد الكرج – كرجستان) بإصدار أوامرها لأعضاء برلمان بلاد الأباظة الذين هم من أصول جورجية بالانسحاب من برلمان هذه الجمهورية الأباظية الصغيرة . ثم اضطر برلمان أباظة نفسه إلى إصدار قرار بطرد عضو البرلمان وزير الداخلية وهو من أصل جورجى ، لأنهم لاحظوا أنه يشكل قوات ميليشيا موازية للجيش ، فاشتبهوا فى أمره خشية أن يكون تكوينه لهذه القوات بقصد مساعدة القوات الجورجية فى حالة التهامها بلاد الأباظة ، أو إذا قامت حرب استقلالية فى بلاد الأباظة ضد أى هجوم جورجى ، فمن المحتمل أن تكون هذه الميليشيات بمثابة ميليشيات الصرب فى البوسنة والهرسك ، تقتل المسلمين الأباظة بلا رحمة وتدَّعى أنها حرب داخلية .

على إثر هذا قامت على الفور القوات المسلحة الجورجية بالتحرك نحو الحدود الأباظية فى انتظار الأوامر باقتحام الحدود الأباظية لسحق هذه البلاد الصغيرة المؤمنة بالله ثم باستقلالها .

ترى هل يمكن لشيفرنادزه – الذى أوقف حياته على الديمقراطية والحرية والذى حارب فى صف جورباتشوف من أجل الحرية – أن يذبح حرية شعب الأباظة الصغير ويدمجه قسراً فى جورجيا ؟

تُرى هل يسقط « شيفرنادزه » من نظر الرأى العالمى عندما اقتحمت قواته حدود بلاد الأباظة لممارسة القمع والتطهير القومى ، نفس الذى يمارسه الصرب فى البوسنة والهرسك ، أم سيضبط نفسه ويتصرف كما تصرف يلتسين فى موقف مشابه عندما أمر قوات روسيا الاتحادية بتحطيم استقلال بلاد الشاشان ، لولا أن برلمان روسيا الاتحادية هدَّأ من أعصابه وذكَّره بمبادئه المعلنة ، فعاد إلى صوابه وتراجعت قوات روسيا الاتحادية عن مرادها فى إقامة مذبحة فى بلاد الشاشان ؟

الفرق بين الاثنين أن « يلتسين » لم يحشد قوات ولم ينتظر نزاعاً داخليًّا فى بلاد الشاشان ، وأن « إدوارد شيفرنادزه » حشد قوات جورجيا المسلحة على حدود الأباظة ، وقد يكون ينتظر حركة من ميليشيا الجورجيين فى داخل أباظيا ليتحرك .

لكن الدكتور « نوزاد يالجين طاش » يحسن النية ويكتب قائلاً : إنه لا يمكن لإدوارد شيفرنادزه أن يضحى بتاريخ كفاحه من أجل الحرية ثم يخنق حرية شعب مسلم صغير هو الأباظة ، خاصة وأن لجورجيا مصالح مشتركة مع أتراك تركيا الأخت الكبرى للأباظة وشعوب آسيا المسلمة التى عاشت فى كنف الدولة العثمانية ، وأبسط هذه المصالح جوار الحدود .

ترى هل يقف العالم كله فى صف ٤٠٠,٠٠٠ أباظى ضد ٢٠٠,٠٠٠ جورجى فى بلاد أباظة ؟ أم يترك أهل أباظيا لقدرهم يذبح فيهم الجيش الجورجى الدخيل والميليشيات الجورجية من الداخل ؟ أم أن هذا قدَر الإسلام هذه الأيام ؟

[٢]

شعب الأخِسْقا المسلم يعانى التشرد

شعب « الأخِسْقا » شعب مسلم تركى ، يبلغ تعداده نصف مليون مشرد . يأتى فى بعض المصادر باسم شعب « المسكت » وفى أخرى باسم شعب « المشكت » . موطنه الأصلى فى جورجيا « والتى تذكرها المصادر الإسلامية باسم كرجستان » .

أقول : فى جورجيا فى المناطق الملاصقة لتركيا ، حول مدينة أخسقا ، وهى مدينة تبعد بمقدار ١٥٩ كيلو من تفليس عاصمة جورجيا ، وتبعد عن الحدود التركية بمقدار ١٢ كيلو متراً فقط . وكان شعب الأخسقا – وهو مقيم فى بلاده – ينتج القمح والشعير والذرة . ومن صناعاته المحلية كانت الجلود ونقش الفضة وأعمال المنتوجات الخشبية .

والأخسقا كانت قلعة استولى عليها العثمانيون عام ١٦٣٥ م وجعلها العثمانيون مركزاً لولاية أسموها جليدر . واستولى علها الروس عام ١٨٢٨ م . واضطرت الدولة العثمانية لتركها للروس بموجب معاهدة أدرنة عام ١٨٢٩ م .

وبعد قيام الثورة الشيوعية وتكوين الاتحاد السوفييتى ، وعندما كان جوزيف ستالين يستعد للهجوم على تركيا فى الحرب العالمية الثانية – لم يحدث هذا الهجوم فيما بعد – أصدر ستالين بصفته رئيساً للاتحاد السوفييتى قراراً بإخلاء وطن الأخسقا من شعب الأخسقا ، ووطّن بدلهم نصارى من جورجيا وغيرها . وكان ذلك بناء على طلب رئيس الحزب الشيوعى فى جورجيا التى يقع فيها موطن الأخسقا .

كان أمر ستالين بتشريد شعب الأخسقا إلى وسط آسيا على « ألّا تجتمع عائلتان معاً » . ونفى المعارضين من هذا الشعب إلى معسكرات العمل الشاق فى سيبيريا .

ويلاحظ المسافرون الآن إلى جمهوريات آسيا الوسطى المستقلة حديثاً وجود مجموعات متناثرة من أتراك الأخسقا فى كل مكان .

وبعد موت ستالين ، وبالضبط فى عام ١٩٦٨ م ، أذنت السلطات السوفييتية لأتراك الأخسقا « أو المسكت » فى حرية الحركة فى مناطق منفاهم . ولم يشمل هذا الإذن بعودتهم إلى موطنهم الأصلى . كما حُرِّم عليهم أن يهاجروا إلى تركيا .

وأتراك الأخسقا بالذات صدر القرار بنفيهم إلى أواسط آسيا وخاصة إلى أماكن أوزبكستان المختلفة . ويذكر تقويم آسيا الوسطى والقوقاز السوفييتى الرسمى « المجلد ٨ / ٣ يوليو ١٩٨٩ ص ٢ » أن توزيع شعب الأخسقا كان على أساس : ١٨٠,٠٠٠ فى أوزبكستان ٣٠,٠٠٠ فى قازاقستان . ٧٥,٠٠٠ فى تركمانستان . ١٢,٥٠٠ فى آذربيجان .

وواضح أن هذه الأرقام أقل بكثير من عدد شعب الأخسقا إذ أنهم فى المصادر التركية نصف مليون نسمة منذ نصف عقد من الزمان وهم خارج دائرة نفيهم ، أى فى الأماكن التى استطاعوا الهجرة والهروب إليها فى أرقام يصعب حصرها الآن .

أول ظهور لشعب الأخسقا فى الأخبار الدولية :

كانت وكالات الأنبا قد أذاعت عام ١٩٨٩ م أنباء عن وقوع مصادمات دموية بين من أسمتهم المسكت « وهى بالإنجليزية MESHET وهم الأخسقا » وبين أهالى أوزبكستان . والمعروف أن قرار نفى شعب الأخسقا كان إلى آسيا الوسطى وخاصة أوزبكستان .

بدأت المصادمات بين الأخسقا المنفيين وبين الأوزبكيين أصحاب البلاد بعد مناقشة حادة ومشادة بين شاب أخسقاوى وبين امرأة أوزبكية تبيع الفاكهة فى بلدة « قواصائى » التابعة لمدينة فرغانة فى أوزبكستان . وكان ذلك يوم ٢٣ مايو ١٩٨٩ م . وسريعاً تحولت هذه المشادة إلى معارك بين الأخسقاويين والأوزبكيين امتدت أولاً عبر يومى ٣ ، ٤ يونيو من نفس الشهر والعام واستشرت نيرانها إلى كل من : فرغانة ، ومرغلان ، وطاشلاق ، وقوصائى .

ونتج عن اعتداء الأوزبكيين فى فرغانة على الأخسقاويين فى ذينك اليومين قتل أربعين من شعب الأخسقا . كما قام الأوزبكيون بالهجوم على منازل ودكاكين

الأخسقاويين وأضرموا فيها النيران . كما راح ضحية هذه الأحداث عشرة من الأوزبكيين .

نشرت جريدة برافدا يوم ٧ يونيو من ذلك العام خسائر الثالث والرابع من يونيو كالتالى :

احتراق ٤٠٠ منزل وسيارة – نهب الدور الحكومية – نقل ١٣٠ رجلاً إلى المستشفيات – قتل ٥٦ شخصاً منهم ٤٣ من الأخسقا – القبض على ٣٠٠ شخص .

وبدأت وزارة الداخلية فى الاتحاد السوفييتى – اعتباراً من ٤ يونيو – فى إرسال قوات الأمن إلى أماكن النزاع . وبلغت هذه القوات ١٢ ألف جندى .

وبرغم هذا فلم تستطع هذه القوات التحكم فى سريان وقف القتال ، ووصل الأمر بالأوزبك أن قام – فى ٧ يونيو – حوالى ٥٠٠٠ شاب أوزبكى فى مدينة خوقند بالتحرك على جبهتين : الأولى الاعتداء على الأخسقا ، والثانية الاعتداء على الدوائر الرسمية فى المدينة وعلى مبانى الحزب الشيوعى . وذكر « غيرت قادروف » رئيس وزراء أوزبكستان فى خطاب رسمى له فى ٨ يونيو أن عدد القتلى فى أحداث المسكت بلغت ٧٧ قتيلاً .

ولكى تضمن قوات الأمن السوفييتية سلامة الأخسقا أخذتهم إلى معسكرات خارج فرغانة أعدتها لهم خصيصاً . وهرب بعض الأخسقا إلى قازاقستان المجاورة .

ولم يترك الأوزبكيون الأخسقاويين فى حالهم ، وإنما قام بعض الشباب الأوزبك بالهجوم على الأخسقاويين فى هذه المعسكرات المقامة لهم خارج فرغانة . ولما كانت هذه المعسكرات تحت حماية قوات وزارة الداخلية السوفييتية ، فقد تصدت هذه القوات لهجمات الأوزبك مما نتج عنه قتل خمسة شبان أوزبكيين .

ولفت نظر المراقبين فى هذه المعركة أنها كانت منظمة ، ولفت نظرهم أيضاً وجود أسلحة أوتوماتيكية فى يد الشباب الأوزبكى ، وأنهم حُملوا إلى مناطق القتال على سيارات نقل بشكل منظم .

ولم تهدأ هذه الأحداث إلا فى ١٥ يونيو ، وكان كل من ريجكوف رئيس الاتحاد السوفييتى وفيكتور جيريكوف قائد الشرطة السرية السوفييتية « كى . جى . بى » قد وصلا فرغانة يوم ١٣ يونيو . وفى خطاب ألقاه ريجكوف فى ١٥ يونيو ذكر أن عدد القتلى فى المعارك الأخيرة قد وصل إلى ١٥ قتيلاً ، وأن حوادث الهجوم والاعتداءات هذه لم تكن عشوائية وإنما كانت فى غاية التنظيم والتخطيط ، وألقى بمسؤولية هذه الأحداث على المسؤولين فى الحزب الشيوعى فى أوزبكستان .

وهناك أسباب مختلفة أشير إليها فى موضوع سريان هذ المعارك بالشكل الذى وصلت فيه إليه منها :

– عدم اعتراف أتراك الأوزبك فى أوزبكستان وأتراك القازاق فى قازاقستان بشعب الأخسقا على أنهم أتراك مثلهم .

لكن جورباتشوف قال فى تصريح له فى ١٣ يونيو أثناء زيارته لألمانيا : إن المسؤول الأول والأخير فى حوادث الصدام بين الأخسقاويين والأوزبك هو العامل الدينى ، وبتعبير جورباتشوف نفسه « لقد كشرت الأصولية الإسلامية عن أنيابها » .

لكن بعض المسؤولين السوفييت قالوا إن الأساس فى هذه الأحداث هى جبهة الشعب المتحدة « برليك » وهى التكوين السياسى المعارض فى أوزبكستان . ذلك لأن أتراك الأخسقا لم يكونوا على وفاق مع « الجبهة » .

وفى تعليل آخر : إن هذه الأحداث كانت نتيجة للضيق المادى الذى يعانيه الناس فى أوزبكستان .

فالاقتصاد فى أوزبكستان يعتمد فى الدرجة الأولى على الزراعة . وقد كانت أوزبكستان تنتج ٦٧ ٪ من قطن الاتحاد السوفييتى كله و ٥٠ ٪ من إنتاج الأرز فيه . أما وادى « فرغانة » فقد كانت أنهاره فى حالة جفاف ، كما جفت أيضاً بحيرة أرال ، وتكونت مياه الأنهار التى لها تأثيرها على الزراعة بالمواد الكيماوية التى تلقى بها – بكثرة بالغة – مصانع المواد الكيماوية ، وانتشار حالة البطالة فى أوزبكستان حتى أن ثلث القوى الإنتاجية البشرية فى البلاد كان عاطلاً .

ماذا يريد شعب الأخسقا ؟

لا يريد هذا الشعب المسلم البالغ نصف مليون نسمة داخل ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتى غير :

١ - عودة المنفيين منه من سيبيريا إلى منطقتهم فى جورجيا ، « كرجستان - بلاد الكرج » .

٢ - إعادة منطقتهم « منطقة الأخسقا » رسميًا إلى شعب الأخسقا بعد أن تفرق شعبهم عمليًا على ١٣ دولة هى الاتحاد السوفييتى بعد انهياره .

٣ - السماح بعودة شعب الأخسقا من منافيه الكثيرة فى آسيا الوسطى إلى منطقته ووطنه الأصلى وهو « أخسقا » فى جورجيا « بلاد الكرج - كرجستان » .

٤ - توسط الحكومات الإسلامية لدى حكومة جورجيا فى قبول عودتهم إلى ديارهم .

٥ - إعادة ٨٠ قرية فى إقليم الأخسقا فى جورجيا إلى المسلمين الأخسقا ، وهى القرى التى أجبروا أصلاً على تركها مع قرى ومدن أخرى .

وقد حدث أنه عندما طُرد هذا الشعب من أرضه أسكن ستالين نصارى بدلاً منه ، لكن هؤلاء النصارى أخذوا المناطق ، ولم يرتضوا بـ ٨٠ قرية لم يذهبوا إليها ، فظلت خربة ، ومسلمو الأخسقا راضون بها يريدون السماح لأهل هذه القرى الثمانين بإعادة تملكها .

دور التنصير مع هذا الشعب المشرد :

كان لا بد من القول إن النشاط التنصيرى لم يترك فرصة بشعب مشتت بشكل لم يحدث مثله تشتيت فى التاريخ . ورأى القساوسة الجورجيون أن يقوموا بواجبهم التنصيرى على أبشع وجه تجاه نصف مليون مسلم أخسقاوى مشرَّد وتشريدهم صعب مفجع . فقام القساوسة الجورجيون بتوجيه نداء علنى ورسمى إلى نصف

مليون مسلم أخسقاوى قالوا لهم فيه : يا شعب الأخسقا دعوكم من الإسلام ، تنصروا ، وإذا تنصرتم وجب علينا إعادتكم إلى موطنكم فى جورجيا ، إلى أرضكم وأملاككم ومدنكم وقصباتكم وقراكم .

وتمت لقاءات بين القساوسة الجورجيين وبين المثقفين من شعب الأخسقا المسلم ، أكد فى هذا اللقاء هؤلاء المثقفون أن من حقهم إنسانيًّا العودة إلى موطنهم وبلادهم ، فإذا كان هذا متعذراً فلتسمح لهم حكومة جورجيا بالعودة إلى القرى الثمانين التى رفض النصارى السكن فيها . أما أن يتنصر شعب الأخسقا فهذا مستحيل .

وأخيراً أعلن ممثلو شعب الأخِسْقا المسلم المشرَّد فى بيان وزَّعوه أنهم يقبلون حياة التشريد القهرى والنفى وقسوة الحياة فى الخيام على أن يتنصروا ، وأنهم متمسكون بالإسلام . فقيل لهم : إذن لا عودة إلى دياركم .

لذلك أخذوا يتجهون إلى العالم الإسلامى عامة وإلى تركيا منه خاصة بالرجاء فى التدخل لدى حكومة جورجيا لإعادتهم إلى موطنهم .

الدفاع عن قضية الأخسقا الآن :

استطاع بعض أفراد شعب الأخسقا تكوين جمعية لهم أسموها « جمعية الوطن » تنادى بالسماح لشعبهم بالعودة من منفاه المتعدد الأمكنة إلى منطقتهم وموطنهم الأصلى فى جورجيا . وكوَّنوا وفداً دائماً لتمثيلهم لدى الجهات المختصة ، وفتحوا مكتباً لهم فى شقة فى غاية التواضع فى موسكو وعملوا منها « مركزاً إعلاميًّا » واختاروا أحدهم رئيساً لجمعيتهم هذه وهو « يوسف سرور أوغلو » ويحاول هذا المكتب الإعلامى مقابلة الزائرين المسلمين فى موسكو لشرح قضية شعب الأخسقا . وكذلك يحاول مقابلة المسؤولين الروس لنفس الغرض .

حدث أن حاول هذا المركز الإعلامى لشعب أخسقا أن يقابل رئيس جمهورية تركيا « تورغوت أوزال » عند زيارته للعاصمة الروسية موسكو لكن أحداً لم يمكنهم من مقابلته لكنهم استطاعوا مقابلة المهندس « سليمان دميرل » رئيس وزراء تركيا أثناء زيارته لدول آسيا الوسطى ، وقالوا له : نريد تدخلك لإعادتنا إلى ديارنا فى جورجيا .

ولما لم يجدوا صدى لهذا سافر وفدهم إلى تركيا لمقابلة المسؤولين الأتراك لإقناعهم بالتدخل لدى سلطات جورجيا لإعادتهم إلى موطنهم . وبالفعل سافر « يوسف سرور أوغلو » على رأس وفد من الأخسقا وقابل فى ١٤ يوليو ١٩٩٢ م وزير الخارجية التركية « حكمت جتين » وعرضوا عليه قضيتهم فقال لهم : إن « شيفرنادزه » ينظر بترحاب إلى هذا الأمر ، أى أمر عودة شعب الأخسقا إلى موطنه .

وقال لهم : إن أبواب تركيا مفتوحة على مصراعيها لكل تركى فى العالم ، لكن مقصدنا — أى مقصد الدولة التركية — ليس هجرتكم إلى تركيا وإنما مساعدة شعبكم فى العودة إلى دياره . وأظن أن هذه المسألة ستحل قريباً ، لكننى كوزير خارجية لا أستطيع القول إن هذا سيحدث بين يوم وليلة ، وعند زيارتى لتفليس « عاصمة جورجيا » ضمن وفد تركيا الذى يرأسه رئيس وزراء تركيا سألتقى « بشيفرنادزه » وسأشرح له قضيتكم كما سأشرحها للمسؤولين فى « جورجيا » .

وقال « حكمت جتين » وزير الخارجية التركية لوفد شعب الأخِسْقا : لقد درسنا حالة شعبكم فى مجلس الأمة التركى وأصدرنا قانوناً يمنحكم — أى يمنح كل أفراد شعب الأخسقا — حق استخراج جواز سفر ثنائى حتى يمكنكم المجىء إلى تركيا فى أى وقت تشاؤون .

وأضاف « حكمت جتين » : لكن جورجيا الآن مشغولة بالاضطرابات وعندما تهدأ الأمور هناك أظن أن مسألتكم ستحل .

وكان وفد شعب الأخسقا قد قابل فى ١٠ يوليو ١٩٩٢ م الوزير التركى « كيلا رجى أوغلو » وزير الدولة لشؤون الأقليات التركية وشرحوا له قضيتهم وطالبوه بالتدخل لدى حكومة « جورجيا » لتسمح لهم بالعودة إلى موطنهم ، فقال لهم هذا الوزير : اطمئنوا فإن تبنى عودة شعب الأخسقا إلى موطنه واجب تركيا كدولة .

ثم قابل هذا الوفد الدؤوب وزير الدولة التركى والمتحدث باسم الحكومة التركية وهو « أقين كونان » وقد طمأنهم إلى أن حكومته تتبنَّى قضيتهم .

وكان « حسين جليك » رئيس جمعية أتراك الأخسقا للثقافة والتعاون الاجتماعى يحضر اجتماع هذا الوفد فى لقاءاته مع المسؤولين فى أنقرة واستانبول .

وماذا بعد ؟

ترى هل يوفر المسلمون مشقة السعى على وفد شعب الأخسقا وتتبنَّى الحكومات المسلمة مطالبة جورجيا بالسماح لشعب مسلم يبلغ تعداده نصف مليون نسمة أن يعود إلى موطنه الأصلى ، بعد أن تشتت لا على دول آسيا الوسطى فقط بل على ١٣ جمهورية سوفييتية « سابقاً » ؟

أما آن الأوان لمسلمى العالم أن يقفوا مع نصف مليون مسلم لمساعدته فى العودة إلى دياره ؟ أما آن لحكومات المسلمين التوسط لدى « تفليس » لكى يعود أصحاب الأرض إليها ؟

[خامســـاً]

طاجيكســـــتان

- طاجيكستان والصراع الحاد بين المسلمين والشيوعيين .

طاجيكستان والصراع الحاد بين المسلمين والشيوعين

فى طاجيكستان الآن (١٩٩٣) :

١ - حكومة ائتلافية بزعامة الإسلاميين ومناصريهم الديمقراطيين مع بعض الشيوعيين

٢ - قوات شيوعية طاجيكية جاءت من منطقة قولياب الطاجيكية بزعامة سفر على كنجاييف رئيس البرلمان فى الحكومة السابقة مع بعض شيوعيى العاصمة « دوشنبه » لتطرد الحكومة الائتلافية القائمة ، وتهدف إلى عودة الرئيس المخلوع والشيوعى المتشدد رحمن نابييف .

٣ - قوات روسية تبلغ ٥٠,٠٠٠ جندى وضابط . ويفترض منها - حسب اتفاق قديم - أن تقف على الحياد ، لكنها فى الحقيقة تؤيِّد الشيوعيين وتخاف من الدخول فى المعترك السياسى . وتحركت وحدة من هذه القوات تبلغ ٣٠٠ فرد مدججين بالسلاح لحماية المنشآت الرئيسية فى العاصمة بناء على اتفاق سابق .

وصراع السلطة فى طاجيكستان الآن بين الشيوعيين ، ويرأسهم رحمن نابييف ، وهو شيوعى متشدد ، كان رئيساً للجمهورية وخلعوه ، وبين كل من :

١ - دولة أمر الله : رئيس الحزب الإسلامى .

٢ - أكبر شاه إسكندر : رئيس الحزب الديمقراطى ورئيس الدولة .

٣ - على مرتضى أفندى والى منطقة بداخشان ، ومدعوم من إيران .

ودوائر النفوذ التى تريد أن تشد طاجيكستان إليها هى :

١ - روسيا :

وتحاول إقامة حكومة موالية لها فى البلاد لحيوية موقع طاجيكستان وأهميته لها[١] .

(١) نجحت روسيا فى إقامة حكومة شيوعية موالية لها فى طاجيكستان .

٢ - **إيران :**

وتهدف إلى جعل طاجيكستان ساحة لنفوذها السياسى ومجالاً لنشر مذهبها الشيعى . وتؤيد إيران كل الاتجاهات فى طاجيكستان : تؤيد الشيوعيين وتؤيد المعارضين . والمهم فى الاستراتيجية الإيرانية : من يصل إلى السلطة ؟

٣ - **أفغانستان :**

ويؤيد أنصار أحمد شاه مسعود وزير دفاع دولة أفغانستان المسلمة الطاجيك ، فهو طاجيكى . ويؤيد الجنرال عبد الرشيد دوستم وأنصاره الأوزبك فى طاجيكستان .

والعناصر العرقية التى تتكون منها طاجيكستان هى :

١ - الطاجيك : ويبلغون ٥ , ٥٨ ٪ من السكان .

٢ - الأوزبك : ويبلغون ٥ , ٢٢ ٪ من السكان .

٣ - الروس : ويبلغون ١٠ ٪ من السكان .

٤ - التتار .

٥ - القيرغيز .

٦ - التركمان .

٧ - الأوكرانيون .

وتشكل مجموعة التتار والقيرغيز والتركمان والأوكرانيين نسبة ٢ , ٨ ٪ من عدد السكان .

ويلاحظ أن الطاجيك كلهم من أهل السنة ، وأن الأغلبية الساحقة فى البلاد سنيُّون . وعدد سكان طاجيكستان خمسة ملايين وكسور ٠٠٠ , ١١٢ , ٥ نسمة . وعاصمتها « دوشنبه » .

ويمكن القول الآن - ١٩٩٣ م - إن العاصمة مقسمة[1] إلى أربع مناطق ، كل مجموعة سياسية تسيطر على قسم . وأقوى هذه المجموعات هم الإسلاميون .

---

(١) هذا قبل استيلاء الشيوعيين على السلطة عقب الصراع عليها .

ولكن سنبدأ القول هنا من بدايته .

طاجيكستان جمهورية صغيرة لا يتعدى عدد سكانها - وفق تعداد ١٩٨٩ - خمسة ملايين و ١١٢,٠٠٠ نسمة اقتصادها ضعيف إذ تعتمد على الزراعة والثروة الحيوانية . لكن الشعور الديني الإسلامي أقوى منه في الجمهوريات الإسلامية الأخرى في آسيا الصغرى ، وقد أخطأ « حسين شاهدى » المتخصص في شؤون آسيا الوسطى ، وهو إيراني - غالباً - يعمل في القسم الفارسي بالإذاعة البريطانية ، كثيراً عندما قال : إن الحركة الإسلامية الأخيرة لم تكن إلا نهضة قومية اتخذت أخيراً شكلاً إسلاميًّا .

فالأغلبية الساحقة من شعب طاجيكستان سنة أحناف . وعرقهم تركي ، ويقدم الإسلاميون هناك الإسلام على العرق . إنها بلاد تعرضت على مدى سبعين سنة للظلم الروسي . ولا بد لنا من الاعتراف بأن التأثير الروسي قد فعل فعله - في قطاعات من شعوبنا المسلمة في أسيا الوسطى ، سواء في قيرغيزسيتان أو أوزبكستان أو قازاقستان أو غيرها - من الناحية الدينية ، لكن هذا حدث في طاجيكستان بشكل أقل . صعب جدًّا أن نقول بالتأثير الروسي الشمولي على الشعب الطاجيكي ، وكما يقول سليمان طوغان : إن كبار السن الطاجيك الذين تبلغ أعمارهم بين ٧٥ - ٨٠ سنة يقولون : نعم إن الروس قد مارسوا علينا ضغوطاً رهيبة لكي ننسى ديننا ، لكن حقدنا ضد الكافر الروسي لم يهدأ يوماً ما . كنا برغم كل شيء نقوم في منتصف الليل والروس نيام لنصلي ونقرأ القرآن .

قادة المسلمين في طاجيكستان يعلمون جيداً الوضع الذي هم فيه ، نعم ، يقولون إنه لا بد من إقامة دولة إسلامية . لكنهم يعرفون أنه ليس لديهم المتخصصون الكافون ، يعرفون أنهم إذا قالوا شيئاً للشعب ، فالشعب يتجه إلى الشارع يناصر ما يقوله القادة لكن هؤلاء القادة الواعين يخافون من هذا ويقولون إن الروس دائماً يحبون أن يتحرك المسلمون إلى الشوارع ليسهل القضاء عليهم ، والمعروف أن الفرقة الروسية ٢٠١ مرابطة في طاجيكستان ، وتتولى حاليًّا (عام ١٩٩٣ م) السيطرة على المنشآت الحيوية في العاصمة دوشنبه .

القادة المسلمون فى طاجيكستان يقولون إن شعبهم يتحدث الفارسية ، وله اتصالات حميمة بإيران لكن لا أحد يفكر فى القيام بثورة إسلامية على النمط الإيرانى ، وإنما يفكرون فى تعليم المسلمين هناك الإسلام ويريدون فهم الإسلام (السنى - والحنفى) .

ولهذا الشعب ارتباطات ثقافية بإيران ، ولإيران نفوذ ثقافى فى طاجيكستان . لكن أهل طاجيكستان فيهم حساسية الأفغان ، والمذهب عندهم حساس ، فالطاجيك كلهم أهل سنة وكلهم أحناف . وأقصد كلهم أى الأغلبية الساحقة . وإيران تفعل فى طاجيكستان ما تفعله فى أماكن أخرى ، تقدم المعونة الإنسانية مع (الدعاية المذهبية) لكن يمكن القول إن إيران مع طاجيكستان لا تقوم بدعاية مذهبية مباشرة لحساسية الطاجيك المفرطة .

المسلمون فى طاجيكستان يتحركون مع المجموعات المعارضة ، لكن ينبغى القول أيضاً إن ولايات طاجيكستان فى أيدى عناصر مختلفة . والمناطق التى يسيطر عليها الإسلاميون حقًّا هى دوشنبه وجرجان - تبه ، ومنطقة الحدود الأفغانية .

والوحدات الأساسية فى طاجيكستان فى أيدى الإسلاميين : الإذاعة والتليفزيون والدفاع ، ثم قامت القوات الروسية فى ٢٣ أكتوبر (ربيع الآخر) بحراسة هذه المنشآت حتى جاءت القوات الموالية للرئيس المدحور نابييف بإعادة الاستيلاء عليها .

ولروسيا ٥٠,٠٠٠ جندى فى طاجيكستان ، وهم فى حالة ترقب دائم ، والترقب يقصد منه حركة الإسلاميين ، إن اشتدت تشتد القوات الأجنبية وإن ضعفت حركة الإسلاميين وقفت القوات الروسية ترقب .

وقد حدثت هذه السيطرة الإسلامية على وزارة الدفاع ورئاسة لجنة الدفاع وسيطرت على الإذاعة والتليفزيون والبنك المركزى وشؤون التعليم بموجب الاتفاق الذى توصّلت إليه الحكومة وقتها (أى فى ١٢ / ٥ / ١٩٩٢) وبين المعارضة . (ملاحظة برغم أن قضية استقالة نابييف لم تُثر وقتها ، إلا أن الإسلاميين على لسان دولت أوزمان - من زعامة حزب الوحدة الإسلامية - قالوا بضرورة استقالة نابييف ، والمعروف أن نابييف انتُخب رئيساً لطاجيكستان فى نوفمبر ١٩٩١ . وبعد خمسة أشهر أصر الإسلاميون على تنحيته .

وعلماء المسلمين فى طاجيكستان يقولون بتعلم الإسلام الحقيقى أولاً ثم كل شيء سهل بعد ذلك . يؤمنون أن الحكم لله ، وأن الغد للإسلام ، كما يقول الشيخ عثمان رحيم جان – كبير واعظى طاجيكستان – فى حديث للصحافة التركية فى ٩ سبتمبر ١٩٩٢ م .

واحد من ١٣ :

ورحيم جان واحد من أعضاء مجلس الثورة الإسلامية الثلاثة عشر الذين أطاحوا بحكم رحمن نابييف . والحق أن رحيم جان والحاج منصور جليل زاده قد صرحا أكثر من مرة بأنهما يخافان من إثارة الشيوعيين للشعب الطاجيكى . إن الحركة الإسلامية الطاجيكية أرسلت اثنين من مجلس الثورة الإسلامية (أى الثورة ضد نابييف) إلى تركيا للمشورة وهذا طيب ، ولكن ليت كان للوجود الإسلامى العربى وجود فى « دوشنبه » حتى تكون الاستشارة كاملة الأطراف ، متعددة النظرات ، فالكل يعمل لهدف واحد عاقل .

وقوات نابييف – التى تحركت فى غفلة لتسيطر على الوضع فجأة فى دوشنبه – تخطىء إذ تتصوَّر أنها استعادت الوضع الفعال لها قبل مايو (١٩٩٢) . إن الأحداث الدامية التى تحدث فى دوشنبه لن تمر بهذه السهولة المتصوَّرة ، وإلا كانت عودة عبد المطلب – أوف إلى آذربيجان سهلة ، لكن لا بد من الاعتراف بأن الوضع فى دوشنبه أكثر تعقيداً من الذى فى باكو ، ولن يغنى الشيوعيين تكوينُ « الجبهة الشعبية » لتضمهم مع أصحاب المصلحة فى السلطة الشيوعية .

مطالب شعبية :

وفى اليوم الموعود اتجه الممثلون الشعبيون إلى الميدان فلم يجدوا أحداً من المسؤولين ، وإنما وجدوا قوات الأمن تحاصر الميدان ، فبدأت مظاهرات شديدة ضد الحكومة ، ومن هنا ظهرت أحداث ١٢ فبراير المشهورة لأنها أدت إلى أن قام المتظاهرون فى اليوم التالى (١٣ فبراير) بالهجوم على مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الطاجيكى ، وصادروا ما فيه ، وقامت مصادمات عنيفة فى أماكن متعددة

من العاصمة ومن البلاد بأسرها ، نتج عنها موت ٣٧ شخصاً وجرح ١٨٠ . والذى أثار المسألة إعلان الصحافة والإعلام السوفييتى أن أغلبية القتلى من الروس .

قدم المتظاهرون فى ١٤ فبراير طلباتهم وكانت كالتالى :

١ – انتهاء تدخل السلطات الشيوعية فى إطلاق الأسماء الروسية على أفراد الشعب الطاجيكى المسلم ، والحرية فى اختيار أسماء مسلمة للأولاد .

٢ – إغلاق دكاكين الجزارين الذين يبيعون لحم الخنزير .

٣ – تحسين الوضع الاقتصادى فى البلاد .

٤ – إغلاق مصنع الألومنيوم فى « طورسون زاده » .

أهمية حوادث ١٤ فبراير فى طاجيكستان أيضاً أنها أدت إلى اختيار المتظاهرين لمثلين عنهم ، اختاروا لجنة أسموها الاتحاد (VAADAD) تسميها الصحف العربية أحياناً « بالبعث » وهى المعارضة ، واختاروا رئيساً مساعداً لها هو « بوران كريموف » مساعد رئيس الوزراء ورئيس لجنة تخطيط الدولة .

ولم تنس السلطات الشيوعية لكريموف الطاجيكى هذا الاختيار الشعبى ، ذلك لأن هذه السلطات طردت كريموف من الحزب الشيوعى فى ٥ مارس ١٩٩٠ ، بحجة خيانة السلطة السوفييتية ومحاولة القيام بانقلاب .

وابتداء من ١٥ فبراير انتشرت المظاهرات والأحداث فى كل ربوع البلاد خاصة قولياب ، وقورغان – ثيوبا ، وكومسول – آباد ، ومناطق لينين آباد ، وفرونزه ، وحاصر المتظاهرون فى كل هذه المناطق مبانى الحزب الشيوعى .

والملاحظ أن الذى كان يدير هذه الأحداث القوية الشديدة الوطأة على النظام الشيوعى أيادٍ منظَّمة ومقاتلة دفعت بمسؤولى الحزب الشيوعى الطاجيكى بل وموسكو أن تصرح بما ليس فيه مراء بأن الذى يدير هذه العمليات إنما هم الطاجيك الذين حاربوا فى أفغانستان .

وفى اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الطاجيكى فى يومى ١٥ ، ١٦ فبراير ١٩٩٠ لمناقشة هذه الأحداث . أصر الحزب على أنه « الأقوى »

و « لا يمكن » تقديم تنازلات للمتظاهرين ، وأنه « لا يمكن للحزب » إعطاء الفرصة « للأصوليين الإسلاميين » لأن يهزموا الشيوعية ، ولم يعد أمام الحزب الشيوعى إلا الاستنجاد بموسكو ، ذلك لأن القوات الأمنية المحلية أصبحت عاجزة عن صد تيار المتظاهرين الذين « يستجيبون سريعاً لنداءات القادة الإسلاميين » .

أرسلت موسكو قوات من الجيش وقوات « حفظ الأمن » واتجهت هذه القوات لضرب الحصار على دوشنبه فى ١٧ فبراير . والحق أن عدد القوات المرسلة - وقتها - من موسكو لقمع التظاهرات الإسلامية فى دوشنبه قد بلغ - والإحصائية صدرت من موسكو - سبعة آلاف جندى وضابط .

أحدث نزول القوات الروسية من موسكو إلى طاجيكستان رد فعل عكسيًّا لم تتوقعه القيادة السوفييتية المركزية ، إذ اندفع إلى شوارع دوشنبه فى ١٨ فبراير - من نفس العام طبعاً - مظاهرة اشترك فيها ١٥,٠٠٠ متظاهر ، وانتشرت المظاهرات من دوشنبه إلى بقية أنحاء البلاد ، وكان شعار المظاهرات أوسع من نطاق طاجيكستان ، إذ كان الشعار الرئيسى الذى حمله المتظاهرون « آسيا الوسطى إسلامية » و « آسيا الوسطى للمسلمين » ولم يأت ١٩ فبراير إلا وكان الوضع ساكناً .

قالت وسائل الإعلام فى موسكو وقتها فى تعليل المظاهرات الآتى :

١ - إن جبهة الشعب الآذرى فى آذربيجان - وكانت قد قادت بنجاح المظاهرات التى نادت بإسلامية آذربيجان - هى المسؤولة عن مظاهرات طاجيكستان .

٢ - إن جبهة الشعب الآذرى فى آذربيجان تمد المتظاهرين بالمال للقضاء على القيادة الشيوعية للشعب الطاجيكى .

٣ - إن جبهة الشعب الآذرى فى آذربيجان تحرص على قيام جمهورية إسلامية فى دوشنبه وتدفع فى ذلك جبهة الشعب الطاجيكى للقيام بهذا العمل .

أما إذاعة موسكو فقد علّلت هذه الأحداث بتحريض المجاهدين الأفغان للشعب الطاجيكى فى طاجيكستان . والمعروف أن ما يقرُب من نصف الشعب الأفغانى من العرق الطاجيكى ، وأن الاحتلال الروسى لأفغانستان قد أحدث رد فعل عنيفاً فى طاجيكستان .

والمعروف أيضاً أنه كان هناك تعاون بين الطاجيك فى طاجيكستان وحركة الجهاد الأفغانى : القطاع الطاجيكى منه . فعندما كان أحمد شاه مسعود يريد أن يشغل الروس فى بلادهم يدفع بأبناء جلدته من الطاجيك بالهجوم على المؤسسات الشيوعية الرسمية فى طاجيكستان . وقد كان هذا عاملاً مساعداً فى حركة الجهاد الأفغانى .

وادَّعت إذاعة موسكو وقتها أيضاً أن لباكستان دوراً فى « تحريض » الشعب الطاجيكى للبحث عن هويته الإسلامية .

إعلان الاستقلال :

ومهما كانت هذه الادعاءات فقد أعلنت البلاد استقلالها فى العام نفسه ، وبالضبط فى ٢٥ أغسطس ١٩٩٠ م ، ولا يستطيع أحد إنكار فضل الحركة الإسلامية الطاجيكية فى هذا الاستقلال ، وهو فضل رائد .

والفترة من ٢٥ أغسطس عام ١٩٩٠ وحتى ٢٤ أكتوبر ١٩٩٢ ، تاريخ الضربة الخاطفة للشيوعيين « يعنى خلال سنتين » كان الوضع فى طاجيكستان كالتالى :

١ – عدة أحزاب أقواها الإسلاميون بقيادة حزب النهضة الإسلامية .

وهى أحزاب تنادى بأن المسلمين ينبغى تعلُّم دينهم أولاً وليس الوقت مساعداً لقيام دولة إسلامية متكاملة ، حيث إن الكوادر المدرَّبة على الإدارة فى البلاد هى كوادر شيوعية ، والدولة الإسلامية اسماً فقط لا تعنى شيئاً إذا كان الشعب لم يفهم بعدُ دينه على الوجه الصحيح . وهى أحزاب تقول إنه لا ينبغى الوقوع فى خطأ الإثارة الروسية حتى لا يجرى المسلمون فى الشوارع فتتصيَّدهم القوات الشيوعية . وكل ما ينادى به الاتحاد الإسلامى إبعاد الشخصيات الشيوعية عن الحكم والتحكم فى البلاد .

٢ – مجموعة أحزاب علمانية وديمقراطية ، وهى أقل بكثير من النفوذ الإسلامى .

٣ – الحزب الشيوعى ، وهو قوة يُعمل حسابها .

٤ – رئاسة رحمن نابييف الذى انتُخب فى نوفمبر ١٩٩١ م .

ورحمن نابييف سياسي مراوغ ، لكن الإسلاميين عندما تعبوا من مراوغته كوَّنوا مجلساً إسلاميًا من ١٣ عالماً وشخصية إسلامية ، وأجبروه على الاستقالة ، وسيطروا هم على الحكومة ، فنزح إلى خوجند حيث اختبأ ، وكوَّن أنصاره قوة يُحسب لها حساب . ودارت معارك فى جميع أرجاء طاجيكستان ، فكل ولاية تسيطر عليها مجموعة معينة ، مما دفع بأكبر شاه أكسندروف إلى السفر إلى موسكو لاستشارة يلتسين والحكومة الروسية الاتحادية . ولما عاد إلى دوشنبه أعلن حالة الطوارىء وحظر التجول من الساعة العاشرة مساءً إلى الخامسة صباحاً ، وتحرَّكت قوات روسية مقدارها ٣٠٠ روسى مجهزة بأقوى الأسلحة التامة إلى مطار دوشنبه والتليفزيون والإذاعة والبرلمان « لحراستها » وكلها فى أيدى المسلمين « أى فى يد الحكومة » وبعدها بيوم واحد تحركت القوات الشيوعية الموالية لرحمن نابييف إلى نفس الأماكن فى دوشنبه لتخلع منها الإسلاميين ، ولتسيطر عليها القوات الشيوعية الطاجيكية التى دخلت دوشنبه برئاسة سفر على كنجاييف ، وهو الرئيس السابق لبرلمان طاجيكستان فى العهد الأغبر – عهد نابييف – وقد أذاع كنجاييف كلمة عبر التليفزيون القومى ، بأنه وأنصاره لا يتطلَّعون إلى الحكم إنما يسعون إلى وقف إراقة الدماء ، وإلى استعادة الشرعية التى انتُهكت فى مايو « آيار » (١٩٩٣ م) بضغوط من المعارضة . وقال كنجاييف فى حديثه التليفزيونى إن نحواً من عشرين ألف شخص قُتلوا خلال ستة أشهر ، وأدان « الأصوليين الإسلاميين » وقال إن حوالى مليون شخص فى قولياب يعانون خطر المجاعة .

لكن ما حدث أن الشعب الطاجيكى الذى ملَّ الشيوعية والشيوعيين تحدَّى أمر حظر التجول ، فأخذت الحافلات تنقل صباحاً ومساء الأعداد الوفيرة من الشعب الطاجيكى من كل أماكنه إلى العاصمة لمقاومة حركة « محاولة إعادة السلطة إلى الشيوعيين والإتيان بالرئيس المخلوع الشيوعى المخضرم إلى سدة الحكم » .

إن هذا الحادث تكرر فى آذربيجان . كان مطلَّبوف يعاكس الشعب الآذرى المسلم ، لكن جبهة الشعب الآذرى – وهى أكثر تنظيماً ودقة وخبرة – أجبرت مطلَّبوف على الهرب إلى موسكو ، وأعلنوا انتخابات فازت بها الجبهة ، ولم تترك جبهة الشعب الآذرى الفرصة للبلبلة ، ولم يترك الإسلاميون للشيوعيين الفرصة لرفع رأسهم ،

وإنما انتخابات شرعية رشَّحوا فيها رئيس جبهة الشعب الآذرى ، ففاز وأصبح أول رئيس جمهورية منتخب إسلاميًا وشعبيًا وغير شيوعى فى منطقة تركستان الغربية والقوقاز .

لقد فات المجلس الإسلامى الذى أطاح برحمن نابييف أشياء ولكن يبدو أنه لم يكن بيده شيء . فالبلاد قُسِّمت بين الشيوعيين المتنفذين فى مناطق ، والإسلاميين وهم متنفذون فى مناطق ، لكن العاصمة كانت بأيدى الإسلاميين والغلبة لن تسيطر على العاصمة . وقد نجح نجاحاً جزئيًا هؤلاء الشيوعيون أتباع نابييف برئاسة سفر على فى اقتحام العاصمة دوشنبه . لكن هذا هو أول المرارة ، فلا الإسلاميون يستطيعون السكوت ، ولا الديمقراطيون العلمانيون سيسكتون ، ولا يستطيع الشيوعيون الاستمرار فى حكم العاصمة . كل هذا إذا لم يحدث تدخُّل خارجى لنصرة فريق على فريق . والتدخل الخارجى سيتمثل فى :

١ - دولة روسيا الاتحادية التى تساند الشيوعيين فى آسيا الوسطى وتناصرهم فى طاجيكستان . وقد أشار إلى هذا كل الزعماء الإسلاميين خاصة الشيخ رحيم جان الذى لا يطالب باسم المسلمين أكثر من إعطاء الحرية للشعب لأداء فروضه الدينية دون تقييد العبادة والتعليم الإسلامى بأى شكل من الأشكال . وإن قيام دولة إسلامية ليس مطلباً ملحاً الآن .

٢ - مجموعة دول الكومنولث الجديد « الإسلامية منها » قازاقستان وقيرغيزستان وتركمانستان وأوزبكستان ونستثنى آذربيجان بقيادتها الوطنية المخلصة السابقة قبل انقضاض الشيوعيين برئاسة علييف عليها .

ذلك لأنه كان على رأس كل منهما - باستثناء آذربيجان - رئيس وكوادر سلطة شيوعية مخضرمة ، يهمها الدفاع عن نابييف ، والدفاع عنه وعن زمرته الحاكمة المثقفة ثقافة شيوعية هى حصن الأمان لهم ، لأن نجاحه نجاح لهم وفشله مرة أخرى سيقوِّى المعارضة الإسلامية فى كل هذه الدول الأربع .

وأخيراً نجح الشيوعيون فى الاستيلاء على السلطة فى « دوشنبه » .

[سادساً]

تتارستـــــان

– شعب التتار المسلم يطالب بحقه .

شعب التتار المسلم يطالب بحقه

هذا التحقيق بلاغ لمن يهمه أمر المسلمين :

يقول البلاغ : يتعرض ٣,٥ مليون من إخواننا التتار المسلمين للضياع التام فى زحمة إعادة ترتيب أو جدولة الجمهوريات السوفييتية والروسية !

مرفق مع البلاغ نص الحديث الذى أدلى به الرئيس الروسى بوريس يلتسين إلى مجلة « دى زايت » الألمانية ، والذى يقول فيه : « أنا لن أتحدث عن حماية روسيا من الإسلام القادم إليها من الجنوب بأن نقيم ضده أسواراً وقلاعاً مثلما عمل القيصر الروسى ، لكن لا بد من العمل لمواجهة هذا الخطر الزاحف إلينا » .

لماذا الحديث عن التتار هكذا الآن ؟

السبب فى نص هذا البلاغ : بعد الانقلاب الفاشل ضد الرئيس السابق جورباتشوف أعلنت الجمهوريات السوفييتية الاتحادية الاستقلال .

هكذا تحركت الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفييتى فى الاستقلال عنه . وانتهت هذه الأزمة بنهاية الاتحاد السوفييتى نفسه ومؤتمر ألما - آتا وقيام منظومة الكومنولث الجديد .

لكن المشكلة رقم (٢) هى الاستقلال الإسلامى عن هذه الدول المستقلة حديثاً !! بمعنى أن جمهورية اتحاد روسيا (جمهورية روسيا الاتحادية) وعاصمتها موسكو « تبتلع » عدة جمهوريات وولايات إسلامية « ذات استقلال ذاتى » وهى : باشقيريا - تتارستان - الجوفاش - موردوف - أدمورت - مارى - أورنبرج - داغستان - الششن - أنجوشيا - قبارديا - نلتشيك - أوستينا - قراتشاى - أديجا.

إن هذه الجمهوريات أو الولايات الإسلامية « المبتلَعة » (روسيًّا) تحوى عدداً كبيراً من المسلمين ، قد تكون مجهولة من الكثير منا ، لكنها كيان واقع هام .

وعلى سبيل التذكرة والمثال نقول : إن باشقيريا ، وسكانها من الأتراك وعاصمتهم « أوفا » يبلغون « تعداداً » أربعة ملايين نسمة . والجوفاش ، وعاصمتهم « شبوق صارى » عدد سكانهم مليون ونصف المليون . وداغستان ، وعاصمتها « محج قلعة » عدد سكانها

مليون ونصف المليون . وأدمورت مليون نسمة . والتتار – موضوع الحديث هنا – ثلاثة ملايين ونصف مليون .

لقد بدأت الحركات الاستقلالية الإسلامية فى هذه البلاد التابعة لروسيا الاتحادية . ومن هذه الحركات الاستقلالية حركة : جمهورية التتار ذات الاستقلال الذاتى . وتقع بلاد التتار فى صعيد نهر الفولجا . وعددهم ٥ , ٣ مليون نسمة .

والغريب أن لينين كان قد أصدر أمراً عقب ثورة ١٩١٧ بضم جمهورية التتار على أن تصبح ذات استقلال ذاتى . وأصبحت صفة الاستقلال الذاتى هذه حبراً على ورق بعد موت لينين ، بل أصبحت فى حكم « الدولة الخاضعة خضوع العبودية للحكم المركزى فى موسكو » .

وكان الدافع لهذا الإخضاع الروسى لبلاد التتار أنها بلاد غنية بالموارد الطبيعية ، فبترولها أكثر من بترول الكويت ، والمواد الطبيعية الأخرى هى عماد الصناعات الروسية الاتحادية ، وهذه كلها تذهب إلى موسكو مباشرة دون أن تحصل جمهورية التتار على أى نسبة قلَّت أو كثرت ، وكأن الأمر لا يعنيها ، لذلك أصبحت جمهورية تتارستان فقيرة وتزداد فقراً . والأدهى من ذلك أن فقرها أجبرها على إغلاق المؤسسات التعليمية الخاصة ، وكلها مؤسسات إسلامية أهلية . وانقطعت منذ سبعين سنة كل صلات بلاد التتار بالعالم الخارجى . وعندما طلبت البلاد أن يكون لها نسبة ولو ضئيلة جدًّا من البترول الذى يصل إلى أكثر من « ٢٠٠ مليار دولار سنويًّا » رفضت موسكو بشدة .

موسكو ترفض !

لقد أعلن الاتحاد السوفييتى « بيان حقوق شعوب (اتحاد) روسيا » فى شهر نوفمبر ١٩١٧ م . وقد وعد فيه البلشفيون أن تقوم هذه الشعوب بتحديد مستقبلها بنفسها . كما وعدوا بنظام إدارى ومساواة كاملة فى الحقوق .

ولكن ، وقبل مرور شهور قليلة على هذا نسى الماركسيون – فى بداية ١٩١٨ – وعودهم ، وأسسوا – دون الرجوع لهذه الشعوب المغلوبة على أمرها – اتحاد روسيا . وبذلك بعثوا من جديد الإمبراطورية الروسية .

ولم يقيموا هذا الاتحاد على أسس من المساواة فى الحقوق بين شعوبه ، لكنهم قسموا هذه الشعوب إلى درجات مختلفة .

وعلى هذا الوضع الغريب اعترضت هذه الشعوب ، ثم خرجت من الاتحاد (فى عام ١٩٢٤) شعوب : أوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان ، وحصلت على وضع « الجمهورية الاتحادية » . ونسج على هذا المنوال - عام ١٩٣٦ - قازاقستان وقيرغيزيا ، فانفصلتا عن اتحاد روسيا .

وقدم التتار (فى تتارستان) طلباً مثل الذى حدث لإخوانهم المسلمين ، لكن طلبهم رُفض ، وكانت حجة الحكومة الماركسية فى هذا أن جمهورية تتارستان ليست لها حدود مع الدول الخارجية ، لذلك ظلت هذه البلاد تابعة لاتحاد روسيا .

وجمهورية تتارستان تتضرر كثيراً من تركها هكذا نهباً للدولة روسيا ، ذلك لأن الجمهوريات الاتحادية (فى الاتحاد السوفييتى المنحل) كانت لها بعض حرية التصرف ، ولو أن هذه الحرية كانت فى حدود ضيقة إلا أنها كانت حرية . ومن هذه الحرية أن هذه الجمهوريات كانت تأخذ جزءاً - ولو بسيطاً - من إنتاجها لصالحها هى ، لكن الشعب التتارى كان وما زال محروماً من هذا الحق .

ومن المعروف أن تتارستان (جمهورية التتار - بلاد التتار) هى مركز الصناعة الروسية ومركز بترولها . لذلك يعرف الشعب التتارى كم من حياة سعيدة مادية تنتظره إذا تحرر من روسيا . هذا بالطبع غير الحياة المعنوية .

١٣ أكتوبر ١٩٩١ :

لكل ذلك نادت تتارستان فى ٣٠ أغسطس ١٩٩٠ م باستقلالها ، وطلبت اعتبارها دولة اتحادية فى نطاق الاتحاد السوفييتى (المنحل) . لكن لم يعتبر كل الساسة ، سواء على مستوى القيادة السوفييتية أو على مستوى دولة روسيا الاتحادية ، أن تتارستان قد نادت بشىء .

وبعد الانقلاب الفاشل على جورباتشوف فى عام ١٩٩١ أعلنت كل الدول المرتبطة بموسكو استقلالها . وكان على الشعب التتارى أن يفعل ذلك . فبدأت الحركة الاستقلالية التتارية فى ١٣ أكتوبر ١٩٩١ م .

ولكن لماذا بدأت حركة المطالبة باستقلال تتارستان فى ١٣ أكتوبر بالذات ؟

ذلك لأنه الذكرى الـ (٤٣٩) لاجتياح قوات روسيا القيصرية مدينة « قازان » عاصمة بلاد التتار . وكانت روسيا وقتها بقيادة القيصر إيفان الرهيب . فى ذلك الوقت قتل الروس ٣٠,٠٠٠ مسلم تتارى . وفى ذلك اليوم دمَّر الروس مدينة « قازان » العاصمة تدميراً تامًّا . ومن وقتها والروس يحتلون تتارستان .

وبعد مرور ٤٣٩ سنة على هذا الحادث الرهيب قام الشعب التتارى – فى ١٣ أكتوبر ١٩٩١ م – بطلب تحرره من ربقة الروس (والروس لا يتغيرون مهما تغير النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الذى يعيشونه) .

فى ١٣ أكتوبر ١٩٩١ م اجتمع البرلمان المحلى لجمهورية تتارستان وطلب النواب المؤيدون لاستقلال بلادهم بوضع مسألة « الاستقلال » فى جدول الأعمال ، لكن النواب الروس فى البرلمان التتارى اعترضوا على هذا ، وطالبوا باستمرار تبعية بلادهم لروسيا !!

وعندما تسرب هذا النبأ من البرلمان إلى الشعب قام الشعب التتارى فى العاصمة « قازان » بمظاهرات ضخمة وقوية توجهت إلى مبنى البرلمان التتارى وهى تنادى باستقلال تتارستان عن الدولة الروسية الجديدة . وقامت قوات حرس البرلمان بمنعهم ، فقامت اشتباكات بين الحرس وبين مقدمة المتظاهرين راح ضحيتها خمسة من رجال الحرس .

وتحت ضغط المظاهرات التتارية اضطر البرلمان – رغم معارضة الروس – إلى وضع قضية « الاستقلال » فى جدول الأعمال من جديد ، واجتمع البرلمان التتارى من أجل مناقشة هذه القضية فقط – الاستقلال – واستمرت هذه الجلسة عشرة أيام كاملة !

استفتاء وأسئلة :

وأخيراً استطاع الوطنيون التتار فى المجلس إجبار الأعضاء الروس وإجبار النفوذ الروسى على طرح مسألة استقلال تتارستان على الرأى العام التتارى فى شكل استفتاء شعبى عام . لكن بقى الوضع على ما هو عليه .

الباب الثاني

تركستان الشرقية

الفصل الأول : التعريف بقضية تركستان الشرقية .
الفصل الثانى : الإنتاج الذرى الصينى وصلته بمسلمى تركستان الشرقية .
الفصل الثالث : تركستان الشرقية بين استعمار الصين الشعبية وإهمال المسلمين لها .
الفصل الرابع : عيسى يوسف ألب تكين وثورة المسلمين فى تركستان الشرقية .
الفصل الخامس : الصين الشعبية تقتل المسلمين وتجرِّم الإسلام .
الفصل السادس : دور الطلبة المسلمين فى مظاهرات بكين الدامية .

الفصـل الأول

التعريف بقضية تركستان الشرقية

تركستان : كلمة تركية معناها أرض الأتراك . وتنقسم تركستان إلى قسمين :
الأول : تركستان الغربية ، وكانت إلى عهد قريب تحت الاحتلال الروسى .
والثانى : تركستان الشرقية ، وهى التى نعرِّف بها الآن .

الموقع :

تحيط بتركستان الشرقية مجموعة من الدول الآسيوية هى : الباكستان والهند (كشمير) والتبت من الجنوب ، وأفغانستان وتركستان الغربية من الجنوب الغربى والغرب ، وسيبيريا من الشمال ، والصين ومغولستان من الشرق والجنوب الشرقى .

المساحة :

تبلغ مساحة تركستان الشرقية ٤١٨ , ٨٢٨ , ١ كيلو متراً مربعاً . وهى بذلك أكبر من مساحة تركيا بمقدار مرتين ونصف مرة ، وأكبر من مساحة أندونيسيا بمقدار مرتين ، وتبلغ خمس مساحة الصين الشعبية ومستعمراتها : التبت ومنغوليا الداخلية ومنشوريا .

عدد السكان :

يبلغ عدد السكان (١٥) خمسة عشر مليون مسلم . وشعب تركستان الشرقية متدين شديد التمسك بالإسلام .

الاسم :

اسم البلد الإسلامى تركستان الشرقية (شرق تركستان ، أو دوغوتركستان) وأطلق عليه الصينيون – وتبعهم فى ذلك الأوروبيون وبكل أسف بعض المصادر العربية – كلمة (سينكيانغ) وهى كلمة صينية تعنى المستعمرة الجديدة .

أهمية تركستان الشرقية قديماً :

لعبت البلاد دوراً تاريخيًا هامًّا فى التجارة العالمية ، فقد كان طريق الحرير المشهور يمر بها ، وكان هذا الطريق يربط بين الصين – أبعد بلاد العالم القديم – وبين الدولة البيزنطية .

دخول الإسلام تركستان الشرقية :

بدأ الإسلام يدخل البلاد فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ – ٧٠٥ م) ، وبدأ دخول الأتراك زرافات وجماعات فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى . فقد أسلم عام (٢٥٣ هـ – ٩٦٤ م) السلطان صادق بغراخان فأسلم الأتراك وقتها حكومة وشعباً .

أهمية تركستان الشرقية حديثاً :

تركستان الشرقية بلد غنى بموقعه الجغرافى وبثرواته الطبيعية . فاحتياطى البترول ينافس احتياطى دول الشرق الأوسط . ورصيد الفحم ستمائة مليون طن ، واليورانيوم اثنا عشر تيريليون . وأجود أنواع اليورانيوم فى العالم يُستخرج من ست مناجم فى تركستان الشرقية . ومناجم البلاد هى عصب اقتصاد الصين الشعبية وعصب صناعاتها الثقيلة وصناعاتها الحربية أيضاً . والصين الشعبية مشغولة الآن بإنتاج صواريخ ذات رؤوس ذرية فى المركز الذرى الصينى ، وهو فى تركستان الشرقية .

هذا الغنى الطبيعى جعل التنافس الشعبى والروسى السوفييتى يبلغ ذروته على احتلال وامتلاك كل من الدولتين لتركستان الشرقية ، وكان هذا هو محور الصراع الصينى الروسى .

ثورات الشعب المسلم ضد قوات الاحتلال الاستيطانى الصينى :

قامت الصين باحتلال تركستان الشرقية عام ١٧٦٠ م ، حيث قتلت القوات الصينية وقتها مليون مسلم . ومنذ هذا التاريخ اتبعت الصين سياسية استيطانية فى

تركستان الشرقية ، فقد عملت على نقل كتل بشرية صينية إلى تركستان الشرقية ، وهذا ما يسمى بسياسة (تصيين تركستان الشرقية) . وقامت حروب تحريرية إسلامية قوية أدت إلى استقلال البلاد عام ١٨٦٥ م ، ولم تجد هذه الدولة الوطنية اعترافاً ولا تأييداً من العالم . واستطاعت الصين مهاجمتها واحتلالها مرة أخرى عام ١٨٧٥ م ، وقامت الحروب التحريرية أيضاً وانتهت بإعلان استقلال البلاد عام ١٩٣٣ م .

ثم قامت روسيا بإسقاط هذه الجمهورية الإسلامية ، ثم احتلت روسيا تركستان الشرقية عام ١٩٣٤ م . ونتيجة لتقدم الألمان فى الأراضى السوفييتية أثناء الحرب العالمية الثانية تبدل الاحتلال الروسى للبلاد باحتلال الصين (الوطنية) .

وقامت ثورة برئاسة عالم الدين « على خان » عام ١٩٤٤ م وأعلن استقلال بلاده ، فتعاونت روسيا والصين على إحباط هذا الاستقلال ، وقام الروس وعملاؤهم باختطاف قائد هذه الثورة الإسلامية ، وأرغمت كل من الصين وروسيا الوطنيين على قبول صلح مع الصين الوطنية مقابل الاعتراف بحقوقهم فى إقامة حكومة من الوطنيين وإطلاق يد زعمائهم فى شئونهم الداخلية . فاتَّبعت الحكومة الوطنية الجديدة سياسة حازمة لإضفاء الصفة الوطنية على كل مؤسسات تركستان الشرقية . والنتيجة : أن لاقت هذه الحكومة الويل من الصين .

ثم اجتاحت القوات الصينية الشيوعية عام ١٩٤٩ م تركستان الشرقية واحتلتها .

أعمال الصين الشعبية فى تركستان الشرقية :

بدأت الصين الشعبية احتلالها للبلاد بمذابح رهيبة ، ثم بدأ فى أعقابها استقدام مهجرين صينيين بأعداد ضخمة فى عملية احتلال استيطانى واسعة ، وذلك للتقليل من عدد أهل البلاد المسلمين . وقام الصينيون ببناء الكوميونات والمدن والقرى الجديدة بجوار المدن والقرى القديمة . وفى هذه المدن والقرى الجديدة تم إسكان الصينيين المستقدمين من الصين . ثم ألغى الصينيون الملكية الفردية ، واسترقوا الشعب المسلم ، وأعلنوا رسميًّا أن الإسلام خارج على القانون ويُعاقب كل من يعمل به ،

ومنعوا خروج التركستانيين الشرقيين خارج البلاد كما منعوا دخول أى أجنبي إلى تركستان الشرقية ، وألغوا المؤسسات الدينية وهدموا أبنيتها ، واستخدموا بعضاً منها فى مآربهم الخاصة ، واتخذوا من المساجد أندية ومقاهى لجنود الاحتلال ، كما استخدموا بعضها دوراً للسينما والمسرح ترفيهاً عن الجنود الصينيين ، وألغوا تدريس اللغة التركية والتاريخ الإسلامى من المدارس والمعاهد العليا واستبدلوا بهذا تاريخ الصين واللغة الصينية وتعاليم ماوتسى تونج ، وغيَّروا الأبجدية الوطنية بحروف أجنبية موائمة للصوت الصينى ، واستبدلوا الكلمات الصينية بالكلمات العربية والفارسية الموجودة فى اللغة التركية ، وكذلك فعلوا فى الاصطلاحات ، وجعلوا اللغة الصينية هى اللغة الرسمية فى البلاد ، وجعلوا رئيس الحكومة المحلية صينيًّا ، يساعده أحد أهل البلاد ممن تمرسوا بالدعاية الشيوعية . والمسلمون مجبرون على تربية الخنازير ، ومجبرون على التزاوج مع الصينيين . والعامل المسلم مجبر على العمل ١٨ ساعة يوميًّا فى ظروف قاسية .

وعندما قامت الثورة الثقافية فى الصين كان ضمن شعاراتها (ألغوا تعاليم القرآن) وقامت هذه الثورة بمحاولة إزالة كل مظاهر الإسلام . وجعل الصينيون من مبدأ (دع ألف زهرة تتفتح) وسيلة لمعرفة ما يريده شعب تركستان الشرقية ، فكان أن نادى هذا الشعب بالحرية الدينية والاستقلال ، وكان هذا معناه مذابح رهيبة جديدة ضد المسلمين .

وثورات شعب تركستان الشرقية كثيرة ومتعددة ، ويذهب ضحيتها آلاف الشهداء سنويًّا . وتعمل الصين على إخفاء أنباء هذه الثورات عن العالم . نقدم هنا مثالاً واحداً لهذا :

فى عام ١٩٦٦ م بدأت ثورة شعب تركستان الشرقية فى يوم عيد الأضحى . وفى مدينة كاشغر تجمع المسلمون أمام الجامع الكبير يريدون تأدية صلاة العيد . الجامع مغلق بقفل ضخم . أراد المسلمون كسره ودخول الجامع . اعترضت قوات الاحتلال وقامت مذبحة بشعة ، وانتشرت الثورة ، وصعد الشعب الجبال وبدأت حرب عصابات ضد قوات الصين الشعبية ، استشهد فى هذه الثورة وخلال شهر ديسمبر فقط ٧٥ ألف شهيد . وما زال شعب تركستان الشرقية المسلم فى صراع مع قوات الصين الشعبية .

الفصل الثانى

الإنتاج الذرى الصينى
وصلته بمسلمى تركستان الشرقية

تركستان بلد إسلامى تحتله الصين الشعبية منذ عام ١٩٤٩ م .

وللصين الشعبية عدة دوافع فى احتلالها لهذا القطر الإسلامى . ومن هذه الدوافع : العداء التقليدى القديم بين الصينيين وبين أتراك تركستان الشرقية . كما أن تركستان الشرقية من الناحية الجغرافية لها استراتيجية حساسة ، فهى بعيدة عن البحار المفتوحة ، وهى بذلك تكون حوضاً مغلقاً تحيطه الجبال العالية مثل الهملايا وقراقورم وقويين لون وآلتاى صايان . وهى بذلك مصانة من أى هجوم جوى ، وهى بذلك أيضاً لا تصيبها الصواريخ النووية .

وتركستان الشرقية – هذا القطر الإسلامى مهد عدة حضارات ودول إسلامية عظيمة – تملك أغنى وأجود أنواع اليورانيوم فى العالم . ويقدر رصيد اليورانيوم بأكثر من ١٢ تيريليون . واليورانيوم هو المادة الأساسية فى الإنتاج الذرى . واليورانيوم الذى تملكه الصين الشعبية يُستخرج من ست مناجم تقع كلها فى تركستان الشرقية .

والصواريخ الصينية ذات الرؤوس الذرية والتى تقوم الصين الشعبية بإنتاجها الآن يتمُّ إنتاجها وتصنيعها فى المركز الذرى الموجود فى حوض لوبون ، وهو أيضاً فى تركستان الشرقية . وفى تركستان الشرقية أيضاً تنتج الصين الشعبية الصواريخ البالستيك عابرة القارات .

يقول عالم الذرة الأمريكى رالف راب : « إن عدد هذه الصواريخ التى أنتجتها الصين الشعبية عام ١٩٨٠ ألف صاروخ ، وهذا يعنى أن إنتاج الصين يفوق إنتاج الولايات المتحدة الأمريكية من نفس الصواريخ وفى نفس العام – أى ١٩٨٠ – أكثر من خمسة أضعاف » .

فإذا ما علمنا أن تركستان الشرقية – وهى مستعمرة صينية (وتُسمى باللغة الصينية سينكيانغ أى المستعمرة الملحقة حديثاً) – تملك احتياطيًّا بتروليًّا ضخماً يتفوَّق على احتياطى بترول الشرق الأوسط ، كما تملك مناجم معدنية لا تنضب – ندرك السبب

فى أن الخبراء الدوليين يعتبرون أن تركستان الشرقية هى عصب اقتصاد الصين الشعبية وعصب صناعاتها الثقيلة ، وقبل هذا عصب إنتاجها الذرى والأساس فى إنتاج القنبلة الذرية الصينية وكل الإنتاج الذرى الصينى .

ولا شك أن تركستان تعتبر مركز الصناعات الحربية للصين الشعبية ، كما تُعتبر هذه البلاد الإسلامية مخزناً للأسلحة الصينية .

لهذه الدوافع وغيرها تتمسك الصين الشعبية باحتلالها لهذه البلاد الإسلامية .

وقد بدأت القوات الشيوعية - بأمر ماوتسى تونغ - عام ١٩٤٩ - باحتلال تركستان الشرقية ، فقامت القوات الصينية الشيوعية أول ما قامت بالقبض على رجال الدين ثم الزعماء الوطنيين والأغنياء المجاهدين وأعدمتهم . ثم عمدت إلى حصر ثروات شعب تركستان الشرقية من أموال وأملاك وثروات مختلفة ، ومنعت أفراد الشعب من بيع ممتلكاته دون إذن مسبق من الحكومة الصينية ، ثم صدرت الأوامر إلى أفراد الشعب التركستانى الشرقى بإيداع أرباحهم اليومية فى بنك الحكومة يوماً بيوم دوم احتجاز أى قدر منه ، لذلك أعطت موظفى البنوك سلطة واسعة بدخول أماكن العمل والاستيلاء بالقوة على أرباح الناس وإيداعها فى البنوك بأنفسهم .

وكلفت الحكومة الصينية رسميًّا فرداً من كل أسرة برئاسة الأسرة ، ولم تراع فى ذلك التكليف إن كان هذا الرئيس كبيراً أم صغيراً رجلاً أم امرأة . وأسندت إلى هذا الرئيس مراقبة كل فرد من أفراد أسرته فى حديثه اليومى ونشاطه وأكله وقراءته ومختلف نواحى الحياة الأخرى ، وتقديم تقرير بذلك إلى مركز الشرطة التابع له .

وكوَّنت سلطة الاحتلال الصينية جهاز (الاستماع والتصنت) وأفراد هذا الجهاز كُلِّفوا بإخبار الشرطة بمختلف الوسائل عن النشاط العام للشعب باتجاهاته وتفكيره .

وكلَّفت سلطة الاحتلال كل فرد من أفراد شعب تركستان بتقديم تقرير خاص عن نشاطه الشخصى وعن ثروته يقدمه إلى مركز الشرطة التابع له مرة كل ثلاثة أيام . ومنع أفراد الشعب من الانتقال من مكان إلى آخر إلا بتصريحين مسبقين من الجهة التابع لها وهو مركز الشرطة ، ومن مركز الشرطة الذى سينتقل إليه .

وأقامت إدارة الاحتلال جهازاً للجاسوسية شمل كل مناحى الحياة فى تركستان الشرقية ، وفرضت الرقابة على البريد .

وقامت الحكومة الصينية بتصفية العناصر الرئيسية المضادة للشيوعية وقسمتهم كالتالى :

- المعارضون للحكم الصينى وإجراءاته والقائمون بالدعاية ضده .
- المحرضون على المقاومة المسلحة ضد الحكومة والحزب الشيوعى .
- المعارضون للحكومة فى جمعها للغلال وفى تحصيلها للضرائب وفى فرضها للقوانين الجديدة .
- العناصر التى يمكن أن تسبب أضراراً فى التقارب بين الشعب التركستانى وحكومة الاحتلال .

ثم دعت حكومة الصين الشيوعية الشعب التركستانى إلى نبذ القومية ، وكان القصد من هذه الدعوة ضرب المواطنين المحليين الذين يثورون ضد الصين الشيوعية صراحة فى الميادين والشوارع .

وفى عام ١٩٥١ م طبقت سلطة الاحتلال قانون (الإصلاح الزراعى فى تركستان الشرقية) وقالت : إن هدف السلطة الصينية من هذا القانون هو (تمليك الأراضى للمُعدَمين والانتقام للعمال الزراعيين والفقراء من أصحاب الأراضى وتأمين كافة الإمكانيات اللازمة فى هذا السبيل) .

والحقيقة التى حدثت بعد ذلك أن الصين الشعبية ما قصدت بهذا القانون إلا الاستيلاء على الأراضى الزراعية الخصبة من أيدى مسلمى تركستان الشرقية وتوزيعها على الصينيين الذين استُجلبوا من الصين ووُطِّنوا فى تركستان الشرقية من مدنيين وعسكريين . وهدفت حكومة الصين الشعبية من هذا القانون أيضاً إيجاد « صراع طبقى » بين الأتراك وإيجاد عداء دموى بين أصحاب الأراضى .

صحيح أن الصين الشعبية استطاعت فى الفترة من عام ١٩٥١ إلى عام ١٩٦٣ م استصلاح أراضى بلغت مساحتها ٢٨,٠٠٠,٠٠٠ م ، إلا أنها وزعتها على

المستعمرات الصينية التى أنشأتها فى تركستان الشرقية ، وعلى الجنود الصينيين الذين أُطلق عليهم (جيش الإنتاج) ووُطِّنوا فى البلاد .

وتم تنفيذ قانون الإصلاح الزراعى تحت آلام أفظع أنواع التعذيب الذى مارسته السلطات الصينية ضد أصحاب الأراضى ، ومنها عملية تُسمى (الدفن الإجبارى) .

وقامت حكومة الصين بتطبيق عدة (فظائع) تحت أسماء مختلفة منها : (حركة إعادة الحقوق المغتصبة) و (حركة مساندة كوريا ضد أمريكا) و (حركة الإصلاح الفكرى) و (حركة دع ألف زهرة تتفتح) وهى الحركة التى أعلنتها الحكومة لكى يعبِّر كل فرد عما يريد ، وعندما اختار شعب تركستان الاستقلال تحت راية الإسلام إذا بمدافع الجيش الصينى تُوجَّه إليه لتستشهد الآلاف المؤلفة منه .

وكانت آخر حركات سلطة الاحتلال الشيوعية لتركستان الشرقية والمعروفة حتى الآن - إذْ أن الصين تتبع سياسة تكتم أخبارها وعدم إيصالها إلى العالم الخارجى - حركة الثورة الثقافية والتى كان من أهم بنودها وأولها : (القضاء على الدين) و (اعتبار الإسلام عملاً خارجاً على القانون) .

وما زال شعب تركستان الشرقية المسلم يوالى كفاحه ضد الاحتلال الشيوعى ، وهو كفاح عنيف ، ويسقط منه آلاف الشهداء ، وتتكتم الحكومة الصينية على أنباء هذه الثورات التى ترفع شعار الإسلام .

ويتوجه شعب تركستان الشرقية إلى الشعوب الإسلامية بأمل مساندته فى كفاحه فى سبيل الاستقلال .

الفصل الثالث

تركستـان الشرقيـة

بين استعمار الصين الشعبية وإهمال العالم الإسلامى لها

من هو عيسى يوسف ألب تكين ؟

عيسى يوسف ألب تكين : كان يعمل رئيساً لوزراء تركستان الشرقية عام ١٩٤٧ م . وكانت تركستان الشرقية أثناء ذلك الوقت قد خرجت لتوها من نير احتلال صيني وطني ، فجمع عيسى يوسف ألب تكين القوى الوطنية فى بلاده وأرسى دعائم هذا التجمع على أسس دعائية علمية سليمة ، فأنشأ مجلات واسعة الانتشار هناك تحت اسم « صوت تركستان » وطائرى داغى وألتاى . وكوّن بعد ذلك اللجنة العلمية لإعادة صياغة الثقافة الوطنية التركستانية التى حاول الاستعمار تمزيقها ولكى يزيل آثار الثقافة التى فرضها عليها المحتلون .

ولعيسى ألب تكين عدة كتب ودراسات للتعريف ببلاده ، كما بذل ويبذل – أمد الله فى عمره ومنحه الصحة والعافية – جهوداً مضنية لجذب الاهتمام العالمى إلى قضية تركستان الشرقية . ومن أهم كتبه :

١ – قضية تركستان الشرقية ، وكتبه باللغة التركية ، وطُبع فى استانبول ثلاث مرات : أولها عام ١٩٧٣ وثانيها عام ١٩٧٥ وثالثها عام ١٩٧٧ . ويحتوى على ٣٢٧ صفحة . ولهذا الكتاب أهمية بين المهتمين بقضايا المسلمين المضطهدين . وهذا الكتاب كتاب دراسى يُدرَّس فى جامعة استانبول ويوزَّع على أفراد من القوات المسلحة التركية للإفادة منه عبرة وعظة . وقد أصدر الطبعات الثلاث منه دار « أوتاغ » باستانبول .

٢ – مأساة تركستان الشرقية ، وقد صدر فى طبعتين عام ١٩٥٢ : واحدة بالتركية وصدرت فى أنقرة ، والأخرى بالعربية وصدرت فى القاهرة .

٣ – استمرار الفظائع الشيوعية فى تركستان الشرقية ، بالإنجليزية والتركية .

ويهدف عيسى ألب تكين إلى تكتل الدول الإسلامية لإيصال قضية استقلال تركستان الشرقية عن الصين الشعبية إلى الأمم المتحدة .

وهو يرأس المركز الوطنى لتركستان الشرقية والذى يعنى بمشكلة تركستان الشرقية ، كما يرأس جمعية لاجئى تركستان الشرقية التى تهتم بأمور ومشاكل التركستانيين الشرقيين فى المهجر .

موجز مختصر للقضية :

وها هو ذا لقائى معه فى شكل سؤال وجواب .

سؤال : كنا نرجو بداية أن نستمع منكم إلى موجز مختصر لقضية تركستان الشرقية .

الجواب : أحب أن أقول أولاً إن تركستان بشكل عام منطقة آسيوية هائلة المساحة ، وتنقسم إلى قسمين :

١ - تركستان الغربية : وكانت إلى وقت قريب مستعمرة روسية .

٢ - تركستان الشرقية : وهى الآن مستعمرة صينية شعبية .

أما بلادى تركستان الشرقية فتقع فى وسط قارة آسيا تماماً . وهى - أى بلادى - بلاد تركية إسلامية ، لها أهمية استراتيجية بالغة الخطورة سواء من الناحية العسكرية أو من الناحية السياسية أو الاقتصادية .

ويصف بعض العلماء المتخصصين فى الدراسات التركستانية بلادنا تركستان الشرقية بأنها محور آسيا وقلبها النابض .

وتركستان الشرقية تمثل اليوم خمس مساحة الصين الشعبية التى تبلغ مساحتها ١٠ مليون كيلو متراً مربعاً بما فى ذلك المستعمرات الصينية (منشوريا - التبت - منغوليا الداخلية) .

أما تحديد موقع تركستان الشرقية فيكون كالآتى :

بلد محاط من الشرق بالصين الشعبية ومنغوليا ، ومن الجنوب بكل من التبت والهند والباكستان وأفغانستان ، ومن الغرب بتركستان الغربية التى ترزح تحت وطأة الاستعمار السوفيتى ، أما من الشمال فتحدها سيبيريا .

وتركستان الشرقية غنية اقتصاديًّا بدرجة غير قابلة للقياس مع أى منطقة أخرى فى ثروتها الطبيعية ، سواء المخزون منها فى باطن الأرض أم على الأرض بالفعل . وهذا الغنى

الاقتصادى يلعب الدور الأساسى فى تمسك الصين الشيوعية باحتلالها للبلاد ، كما أن هذه الثروات أيضاً هى التى جعلت الصين الشعبية على مدى ٢٨ عاماً – وهى مدة قصيرة – قوة تضارع القوى الكبرى فى العالم بل وتهدد هذه القوى بما فى ذلك الاتحاد السوفييتى وأمريكا .

وتركستان الشرقية تأتى فى مقدمة المصادر التى تكفل احتياجات القوة العسكرية الصينية وتكفل احتياجات الصناعات الحربية الصينية والصناعات الثقيلة فى الصين الشعبية ، وذلك كله يؤمن التطور الاقتصادى فى الصين . ويجدر الإشارة هنا إلى وجود المركز الذرى الصينى فى بلادنا تركستان الشرقية .

بلادنا ذات حضارة تضرب طويلاً فى أعماق التاريخ ، وبها قامت الدول ذات التاريخ العريق ، وعليها نشأت حضارات شعبى التى تؤكد تركية أرض بلادنا . قامت فيها حضارة الأويغوريين والحضارة الجغتائية .

وعندما جاء الإسلام بنوره إلى بلادنا تركستان الشرقية وحّدها بعد فرقة وضمها فى وحدة بعد تجزئة ، وأعطى لقوتنا القوة والمنعة ، وجعل من تركستان وحدة واحدة ، فأخرجت بلادنا الطيبة الأبطال الفاتحين الذين لعبوا الدورالأعظم فى انتشار الإسلام فى الهند الصينية وفى الأناضول ، وهؤلاء الأبطال نشروا الإسلام فى كل أنحاء تركستان ، وأنشأوا المآثر الخالدة التى تنطق بالإسلام فى ربوع العالم . ومن أمثلة هؤلاء الأبطال الذين أنجبهم شعبنا فى التاريخ الإسلامى : محمود الغزنوى ، وسلجوق ، وطوغرول بك ، وألب أرسلان ، وبابر شاه ، وغيرهم من مئات الفاتحين المسلمين الأتراك .

أنجبت بلادنا – تركستان الشرقية – فى عهدها الإسلامى الطويل المحدِّثين والمفسِّرين والفقهاء وعلماء الدين المسلمين والمفكرين والفلاسفة والحكماء والأطباء والرياضيين والمؤرخين والنحويين والشعراء .

واسمحوا لى بتقديم بعض أسماء كأمثلة وإن كانت قليلة فإنها تشير إلى ما ذكرت ، من هؤلاء الأشخاص : الإمام البخارى ، والإمام الترمذى ، والإمام الماتريدى ، والإمام الغزالى ، وفخر الدين الرازى ، وقاضيخان الأوزكندى ، والعلامة الزمخشرى ،

والخوارزمى ، والجوهرى ، والبيرونى ، والسَّكَّاكى ، والسجستانى ، والتفتازانى ، والشاشى ، والسرخسى ، وأحمد يسوى ، وأبو على بن سينا ، ومحمود الكشغرى ، ومولانا جلال الدين الرومى ، وغيرهم .

وأود أن أشير فى هذا المقام إلى أن مدن بلادنا كانت فى وقت من الأوقات منارة للعلوم الإسلامية ومراكز ضخمة للثقافة الإسلامية . أعطى أمثلة أيضاً هنا بمدن : بُخارى وسمرقند وطشقند ومرو وكاشغر وياركند وخوتين وطرفان .

ولئن كان ديننا الحنيف قد ظهر بمكة المكرمة فإن أبطالنا الفاتحين وعلماء بلادنا فى الدين الإسلامى الذين نشأوا فى تركستان أدوا دوراً كبيراً فى نشر الإسلام فى مختلف أرجاء المعمورة . إننا نعرف أن مسلمى تركستان قد نجحوا فى نشر الإسلام بين ملايين ملايين البراهمة فى الهند ، والذين قامت على أكتافهم دولة الباكستان الحالية .

من خدمات التركستانيين فى سبيل الإسلام نشره فى الأناضول وتحويل منطقة الأناضول من منطقة بيزنطية مسيحية إلى منطقة تركية إسلامية قامت فيها دولة تركية عظيمة حملت راية الإسلام أمداً طويلاً وأوصلته إلى أواسط أوروبا . إن الأبطال الفاتحين الذين نشأوا فى تركستان وقدموا منها يقودون جيوشاً تركستانية أيضاً قد عمروا ربوع تركيا الحالية بالإسلام وبذلك أضافوا إلى التراث الإسلامى شيئاً كبيراً . كما كان للفاتحين والأبطال القادمين من تركستان بجيوشهم التركستانية شرف حماية العالم العربى الإسلامى من الاعتداءات الصليبية شيئاً كبيراً .

خلاصة القول : إن مسلمى تركستان قد قدموا للإسلام خدمات عظيمة لا تتسع لها صفحات التاريخ الطوال . ولكن من سوء الحظ أن أصبح شعب تركستان وأصبحت أرض تركستان مستعمرة يتقاسمها الغولان الشيوعيان : الاتحاد السوفييتى وقد احتل الجزء الغربى من تركستان والذى يسمى تركستان الغربية ، والصين الشعبية واحتلت الجزء الشرقى من تركستان والذى يُسمَّى تركستان الشرقية .

ومنذ عام ١٨٦٠ تعرضت بلادنا تركستان الشرقية إلى أربع غزوات صينية : مرتين وكانت الصين تحت حكم الأسرة المانشورية ، ومرة فى عهد الصين الوطنية ، والمرة الرابعة فى عهد حكم الصين الشيوعى .

وفى عهد احتلال الصين الشعبية لبلادنا وشعبنا يئنُّ تحت وطأة أفظع أنواع الاستعمار فى التاريخ ، وأظن أننى لا أبالغ إذا قلت إننا إذا كان علينا كتابة وتسجيل أنواع الفظائع الشيوعية الصينية التى حدثت وتحدث فى تركستان الشرقية لاستلزم هذا كتابة المجلدات الضخمة واستلزم أيضاً كتابة الملاحم الكبيرة .

مهاجرو تركستان الشرقية الذين احتموا بدول أخرى :

سؤال : وعن الذين هاجروا من تركستان الشرقية ولجأوا إلى الدول الأخرى ألَا يمكن أن نأخذ فكرة مؤيَّدة بالأرقام عن أعدادهم ولو تقريباً والبلدان التى هاجروا إليها ؟

الجواب : حدثت سبع هجرات من تركستان الشرقية منذ عام ١٩٣٣ إلى البلدان الآتية : الهند – الباكستان – أفغانستان – تركستان الغربية (بالاتحاد السوفييتى) .

ثم هاجر من هؤلاء قسم إلى المملكة العربية السعودية ، وقسم آخر هاجر إلى تركيا . ويمكن أن أقدم لكم إحصاءً تقريبيًّا بعدد مهاجرينا والبلدان التى هاجروا إليها ، وهذا يكون كالآتى :

البلد	عدد المهاجرين إليه تقريباً
أفغانستان	بين ٧٠٠ – ٨٠٠
باكستان	١٠٠٠
تركيا	بين ٥٠٠٠ – ٦٠٠٠
المملكة العربية السعودية	بين ٧٠٠٠ – ١٠٠٠٠
تركستان الغربية (وكانت مستعمرة روسية)	٢٠٠٠٠٠

سؤال : ما دمنا تكلمنا عن عدد المهاجرين أظن أنه من المناسب الحديث عن الوضع الاجتماعى الحالى لهؤلاء المهاجرين .

الجواب : وضع مهاجرى تركستان الشرقية الاجتماعى فى مهاجرهم كالآتى :

فى أفغانستان والباكستان يعملون عمالاً بالمصانع ، وبعضهم يشتغل بالأعمال الحرة ، ووضعهم الاقتصادى ليس جيداً .

فى المملكة العربية السعودية يشتغلون بالمهن التالية : الخياطة - الحلاقة - الفرانة ، كما يعملون فى التجارة أيضاً ، ويشتغلون فى المطاعم . وأولادهم يتعلمون على حساب المملكة العربية السعودية سواء كان تعليمهم داخل المملكة أو فى الخارج فى أوروبا وأمريكا . والمتعلمون منهم يعملون حسب استعدادتهم فى الشئون العسكرية والمدنية وفى أجهزة الأمن ويحصلون على مرتبات جيدة ورتب جيدة . والوضع الاقتصادى لهم فى المملكة عموماً وضع جيد .

فى تركيا : يعملون حرفيين وأصحاب دكاكين تجارية ويعملون فى التجارة وفى أعمال المانيفاتورة (بيع الأقمشة) وفى الورش الصغيرة. والوضع الاقتصادى لهؤلاء عموماً ليس رديئاً ، وأولادهم عموماً يشتغلون بتحصيل العلم .

فى تركستان الغربية : يعملون فى التجارة الحرة والتجارة الصغيرة الحرة .

فى ألمانيا الغربية : يعملون عمالاً وقليل منهم يعمل بالتجارة هناك .

سؤال : قضية تركستان الشرقية أتصورها قضية إسلامية بالدرجة الأولى ، ولذلك كنت أريد معرفة مدى اهتمام الصحافة الإسلامية بها .

الجواب : إذا استثنيا الصحافة التركية - لأنها دائمة الاهتمام بقضية تركستان الشرقية - أستطيع القول إن اهتمام الصحافة الإسلامية بقضية بلادنا كان منعدماً ، ذلك لأن الصحافة الإسلامية لم تكن تنشر عن قضية تركستان الشرقية شيئاً من تلقاء نفسها كصحافة إسلامية بمعنى أنه دون أن نحاول نحن ونرجو ونطلب أو نوسِّط أحداً للحثّ على الكتابة عن قضية بلادنا ، فلا جريدة ولا مجلة و لاكتاب ولا أى نوع من المطبوعات الإسلامية كان يقبل على الاهتمام بقضيتنا كبلد مسلم تحتلُّه قوات صينية شيوعية تمارس على شعبه أفظع أنواع الإرهاب .

أذكر هنا أننى قمت بزيارة للمملكة العربية السعودية فى أعوام ١٩٥١ - ١٩٥٤ - ١٩٥٧ - ١٩٦٣ - ١٩٦٥ ، للدعاية لقضية تركستان الشرقية . وفى تلك الأوقات ظهرت الأخبار والمقالات والتعليقات عن رحلتى هناك فى الصحف السعودية مثل صحيفة « البلاد » وصحيفة « عكاظ » وظهرت بعض العناوين الطيبة مثل : الملك عبد العزيز أول من أبرز قضية التركستانيين .. الملك فيصل يتابع سنَّة

والده العظيم .. زعيم المجاهدين التركستانيين يروى ذكرياته عن هذه المملكة (البلاد ٩ / ١٠ / ١٣٨٤ هـ) .

السكرتير العام لحكومة التركستان الشرقية يقول : اللاجئون التركستانيون فى المملكة يحسون أنهم فى بلدهم لحسن المعاملة التى يلقونها (البلاد ٤ / ١ / ١٣٨٥ هـ) .

ومقال : « هذا هو المجاهد الإسلامى الكبير الزعيم عيسى يوسف ألب تكين » (عكاظ ٢٠ / ٨ / ١٣٨٢ هـ) .

وفى عامى ١٩٥١ – ١٩٥٤ قمت بزيارة القاهرة للدعاية لتركستان الشرقية ، فظهرت المقالات والأخبار عن زيارتى هاتين فى الصحف المصرية مثل : الأهرام والدعوة والزمان وآخر ساعة والأساس والمصرى والبلاغ ، وظهرت أنباء رحلتى للدعوة للقضية فى مصر ، وحملت بعضها هذه العناوين التالية :

تركستان الشرقية تكافح الشيوعيين (الأهرام ٢٨ / ١ / ١٩٥٢) .

الزعيم الذى هرب ومعه ٢٠ ألف ووصل ومعه ٣٠٠ فقط (آخر ساعة ١٩ / ١٢ / ١٩٥١) .

تركستان الشرقية تئنُّ (منبر الشرق ٢١ / ١٢ / ١٩٥١) .

زعيم تركستان يقول : نريد من إخواننا أن يستمعوا لأناتنا (الدعوة ٢٧ / ١١ / ١٩٥١) وغيرها .

وفى سنة ١٩٧٠ قمت بالدعوة لقضية بلادى فى ماليزيا وأندونيسيا ، وتحدثت إلى الصحف هناك عن زيارتى وأهدافها ، فكتبت الصحف الإسلامية هناك وقتها .

وفى الكويت بدأ الاهتمام الإسلامى بقضية تركستان الشرقية تلقائيًّا من نفسه ، وكان ذلك بإصدار (الأخبار) نشرة الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية تعريفاً جيداً ببلادنا تركستان الشرقية وقضيتها وأمل المسلمين فى التحرر من ربقة الاستعمار الصينى الشيوعى ، وأثلج صدورنا نحن مهاجرى تركستان الشرقية ، ثم سعدنا عندما نقلت « المجتمع » الكويتية هذا التعريف وأضافت إليه ترجمة لحياتى فى خدمة قضية بلادى ، ومقالين عن تركستان الشرقية بعد ذلك ، ثم مجلة البلاغ فى

لقائها مع الدكتور على الكتانى وما خصصه من حديث عن قضية بلادنا . كل هذا أحدث أثراً طيباً أيضاً فى نفوس مهاجرى تركستان الشرقية فى المملكة العربية السعودية وفى الخارج .

اهتمام الحكومات الإسلامية بقضية تركستان الشرقية :

سؤال : على ذكر البلاد الإسلامية ما هو مدى اهتمام الدول الإسلامية والمؤتمرات الإسلامية بقضية تركستان الشرقية ؟ ومدى علاقاتكم برؤساء الدول والحكومات الإسلامية فى خصوص التعريف بقضيتكم ؟ وهل أقمتم روابط بالهيئات والمنظمات الإسلامية داخل العالم الإسلامى ؟

الجواب : قمت بزيارة عديد من البلدان الإسلامية لعرض قضية بلادى . والتقيت أثناء ذلك بالكثير من الملوك والرؤساء . عرضت قضية تركستان على الملك عبد العزيز بن سعود ، والملك سعود بن عبد العزيز ، والملك فيصل ، والملك خالد ، وعلى الرئيس القذافى ، وعلى الملك فاروق . كما قمت بمقابلة بعض رؤساء الدول الإسلامية ، كما عرضت قضيتنا على كثير من رؤساء الدول الإسلامية وكبار قادتها ، وأذكر على سبيل المثال : المرحوم النحاس باشا رئيس وزراء مصر ، وعلى نائب ملك العراق قبل الثورة ، ورئيس وزراء العراق عبد الكريم قاسم ، وأيوب خان ، ومحمد على برغوا رئيس وزراء باكستان ، والجنرال سوهارتو رئيس جمهورية أندونيسيا ، وآدم مالك وزير الخارجية ، وعبد الرحمن تونكو رئيس وزراء ماليزيا ، ووزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد فى استانبول عام ١٩٧٦ ، وقدّمت مذكرات تشرح قضية بلادنا تركستان الشرقية لوزراء الخارجية المشتركين فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية فى ليبيا عام ١٩٧٧ م .

وهؤلاء الوزراء – حتى إذا استثنينا مدى اهتمامهم بقضية تركستان الشرقية – فإن أحداً منهم لم يتواضع بإجابة منه ، سواء كانت إجابته هذه إيجابية أو سلبية .

لقد اشتركت فى المؤتمرات الإسلامية التى انعقدت فى كل من بغداد (١٩٦٢) وكشمير (١٩٦٣) ومقديشيو (١٩٦٤) ومكة المكرمة (١٩٦٥) وغيرها

وحدث أن بعضاً من هذه المؤتمرات لم يدرج قضية تركستان الشرقية فى جدول أعماله ، وبالتالى لم يعطونى فرصة التكلُّم لعرض قضية بلادنا تركستان الشرقية ، ولم يصدر قرار واحد عن تركستان الشرقية . وإذا كنت قد وُفِّقت فى حثِّ المؤتمر الإسلامى فى مقديشيو ، وكذلك المؤتمر الإسلامى فى مكة المكرمة ، على أن يصدر قراراً إيجابيًّا لصالح تركستان الشرقية ، فإن هذا القرار لم تطبقه دولة إسلامية واحدة ، ولم يتابع هذان المؤتمران هذا القرار .

خلاصة القول : إن العالم الإسلامى بدوله وبصحافته وبمؤتمراته وبمنظماته لم يهتم بقضية تركستان الشرقية بالوجه اللائق بها كقضية إسلامية على أكبر درجة من الخطورة .

أذكر هنا أننى أقمت اتصالاً بالمؤتمر الإسلامى العالمى وبرابطة العالم الإسلامى وبالإخوان المسلمين ، وزرت عدة مرات المرحوم الحاج الحسينى رئيس المؤتمر الإسلامى ، والسكرتير العام عنان الله خان ، وحيدر الحسينى مساعد السكرتير العام ، والشيخ محمد سرور الصبان السكرتير العام لرابطة العالم الإسلامى ، والشيخ صالح القزاز ، والأستاذ المرحوم حسن الهضيبى المرشد العام للإخوان المسلمين والدكتور سعيد رمضان من الشخصيات البارزة فى الإخوان المسلمين ، وكذلك عبد الحكيم عابدين وسعد الولايلى ، والشيخ دراز رئيس جماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية وسكرتير الجمعية جمال عرفات ، وكذلك زرت الجماعة الإسلامية بالباكستان وأميرها مولانا أبو الأعلى المودودى . وقد أظهرت لى هذه الشخصيات الاحترام الكبير بوصفى ممثل قضية إسلامية كبرى ، لكنهم لم يقدموا لنا مساعداتهم اللائقة بقضية تحرير تركستان الشرقية .

أود هنا أن أصرح بأنه أثناء زيارتى لمصر قام إداريو الإخوان المسلمين بتنظيم مؤتمر كبير لكى تتاح لى الفرصة لشرح أبعاد قضية تركستان الشرقية ، وفعلاً أتاحوا لى هذه الفرصة الطيبة ، فرصة إمكان عرض مأساة بلادى على نخبة مختارة من إخواننا فى الدين يعدون بالمئات ، ولقد ساعدونا فى ذلك مساعدة جليلة .

إن تركستان الشرقية بلد تركى مسلم تحتله دولة الصين الشعبية . والحقيقة فى

هذا الأمر أن الصينيين هم الأقلية فى تركستان الشرقية . إن الأقلية اسم يُطلق على مجموعة متناثرة فى بلد من البلدان ، أما نحن – مسلمو تركستان الشرقية – فلسنا مجموعة متناثرة فى الصين كالمسلمين الصينيين مثلاً ، وكما أننا لم نطلق لفظة أقلية على مسلمى البلاد العربية التى خضعت للاستعمار الغربى يوماً ما مثل المغرب – تونس – الجزائر – وليبيا وغيرها ، فكذلك لا تستطيع إطلاق لفظة أقلية على مسلمى تركستان الشرقية .

أما إذا شملت أوجه نشاط هذه الشعبة – أى شعبة الأقليات الإسلامية – البلاد الإسلامية التركية الواقعة تحت السيطرة الاحتلالية للصين وروسيا ، فإنه لا بد من تغيير اسم هذه الشعبة ، هكذا أرى .

نشاط المركز الوطنى لتركستان الشرقية فى استانبول :

سؤال : وماذا عن أوجه نشاط كل من جمعية مهاجرى تركستان الشرقية ؟
وكذلك ماذا عن فعاليات المركز الوطنى لتركستان الشرقية ؟

الجواب : قمنا – كجمعية تركستان الشرقية – بنشاطات عدة فى تركيا ، ومن جملتها – التعريف بقضية بلادنا تركستان الشرقية عن طريق إلقاء المحاضرات عن بلادنا فى المناسبات المختلفة ، وأقمنا الأمسيات الثقافية والمسيرات ، والجلسات الصحفية لهذا الغرض أيضاً ، وعقدنا الاجتماعات العامة المختلفة للتعريف بقضية بلادنا ، ونشرنا عدة كتب ورسائل وبيانات عن قضيتنا . وعملت جمعية لاجئى تركستان الشرقية على نقل مهاجرى تركستان الشرقية – الذين لجأوا إلى أفغانستان وإلى الهند وإلى الباكستان – إلى تركيا ، وأوجدت جمعية لاجئى تركستان الشرقية لهؤلاء المهاجرين العمل الذى يتعيشون منه ، وعملنا كجمعية على قيد أبناء هؤلاء المهاجرين فى مدارس الدولة التركية .

أما عن نشاط المركز الوطنى لتركستان الشرقية فإنى كرئيس لهذا المركز قمت – كما أشرت من قبل – بالزيارات العديدة إلى الكثير من الدول بهدف لفت الأنظار إلى قضية تركستان الشرقية ، وتباحثت مع رؤساء حكومات بعض هذه الدول وقادتها الدينيين ، كما تباحثت مع قادتها الوطنيين والسياسيين وقدمت لبعضهم المذكرات عن

قضيتنا . وعقدت فى بعض هذه الدول المؤتمرات الصحفية ، وألقيت المحاضرات عن بلادى ومأساتها ، واشتركت فى المؤتمرات الدولية ، ودعوت إلى الاهتمام بآلام تركستان الشرقية وقضية تحريرها . وأنشطة المنظمتين : جمعية مهاجرى تركستان الشرقية ، والمركز الوطنى لتركستان الشرقية تتحد فى لفت أنظار العالم إلى قضيتنا .

جمعية مهاجرى تركستان الشرقية فى تركيا :

سؤال : هل تجد أوجه نشاطكم فى المنظمتين تدعيماً ومساعدة واهتماماً ؟

الجواب : مواطنونا الموجودون فى تركيا يسهمون إسهاماً ماديًّا يسيراً فى الإنفاق على أوجه نشاطنا هذا ، لكننا لا نلقى أى عون مادى ولا معنوى من آية دولة أو منظمة أو شخص ، بما فى ذلك جيراننا وإخواننا فى الدين .

أحب أن أذكر فى هذا المقام أن العالم الإسلامى العربى يقدم لقضية فلسطين كل معونة مادية ومعنوية متدفقة وهذه مسألة غير مبالغ فيها . والباكستان بذلت الغالى والنفيس فى سبيل قضية فلسطين . وتركيا لا تتوانى فى تقديم آخر ما فى طاقتها ماديًّا ومعنويًّا من أجل قضية قبرص .

الغرب يدعم الدالاى لاما والمسلمون لا يدعمون جهودى :

والأمر الذى يدعو للأسف أن العالم ، وخاصة الهند والعالم البوذى ، قدَّم المساعدات المادية والمعنوية الضخمة لقضية التبت والدالاى لاما . وهى قضية كقضية تركستان الشرقية تماماً . الفرق الوحيد بينهما أن تركستان الشرقية مسلمة ، والمعروف أن الصين الشعبية احتلت التبت أيضاً .

وهنا اسمحوا لى بأن أقدم تعريفاً للإسهام العالمى فى مساعدة قضية التبت — وهى بوذية — لكى يتضح من المقارنة ما تتعرض له قضية بلادنا من أهمال .

فى المجال السياسى :

عرضت بعض الدول قضية التبت على الأمم المتحدة فى أعوام ١٩٥٩ — ١٩٦٠ — ١٩٦٥ أى ثلاث مرات وهذه الدول هى :

ماليزيا – تايلاند – الفلبين – مالطة – أيرلندا – السلفادور – نيكاراجوا .

فى المجال المادى :

قامت مختلف المنظمات العالمية بتقديم المعونة المادية للتبت . وكانت هذه المعونات حتى أكتوبر عام ١٩٦٨ كما يلى :

– حملة المهاجرين بأوروبا ١٨,٢٨٨ و ٣٢,٨٠ روبية هندية :

– جمعية مساعدة المهاجرين بالنرويج ١٣, ٦٢٣, ٥٤, ٩ روبية هندية .

– خدمات المعونة الكاثوليجية ٠٠, ٥٠٠, ٩٦, ١٣ روبية هندية .

– المعونة السويسرية ١٥, ٢٦٢, ٥٣, ٧ روبية هندية .

– الخدمات الاجتماعية الهندية – الألمانية ٠٠, ٠٠٠, ٣٢, ٦ روبية هندية .

– معونة (آيد) الأمريكية ٠٠,٠٠٠, ٠٠, ٥ روبية هندية .

– معونة (آيد) النمساوية ٠٠,٥٢٣١ ٠٥, ٣ روبية هندية .

مجموع معونات المنظمات العالمية لمهاجرى التبت ٢٤٠, ٦٦٢, ٣٨٣ روبية هندية ، زيادة على معونة الحكومة السويسرية وبلغت ٦ مليار فرنك سويسرى .

هذا بالإضافة إلى أن الدول والهيئات التالية قدمت لمهاجرى التبت البوذيين المعونات التالية :

– أقامت الهند – بعد وصول الدالاى لاما إليها – معسكرين ضخمين مؤقتين لمهاجرى التبت .

– قامت الهند بتقديم تكاليف الحياة لمهاجرى التبت مجاناً وذلك من مأكل ومشرب وخلافه .

– قدم مكتب المعونات الكاثوليكية عدد ٠٢٠ , ٦٥ شجرة فاكهة للمهاجرين التبتيين .

– أقام مركز التعاون التكنيكى التابع للحكومة السويسرية مركزاً لصناعة الأبسطة والسجاجيد لمهاجرى التبت .

- افتتحت الهند المدارس لتعليم أولاد المهاجرين التبتيين .
- قام المركز الوطنى المسيحى بالإنفاق على هذه المدارس وسد احتياجات طلابها جميعاً .

قام المركز الوطنى المسيحى بتمويل كل مدارس الحضانة ومدارس الزائرات الصحيات التى افتتحت لخدمة مهاجرى التبت .

قامت كل من انجلترا وسويسرا بتعليم الفتيات التبتيات من بنات المهاجرين التبتيين وتدريبهم على الخدمات الصحية فى المراكز المتخصصة بكل من انجلترا وسويسرا . وفى ديسمبر ١٩٦٧ تم توزيع تلك الفتيات على الأماكن التى يوجد بها المهاجرون التبتيون فى كل من الهند ونيبال ، وقام نادى الليونز السويسرى بدفع مرتباتهم .

فى المجال التعليمى :

قدمت الدول المسيحية المنح الدراسية لطلاب التبت من أولاد المهاجرين . وقد يكون من المفيد هنا لإعطاء صورة عامة للمسألة أن أقدم الإحصاء التالى لكى يظهر مدى تعاون العالم المسيحى مع دولة بوذية وفى هذا الإحصاء أذكر الدولة مع عدد المنح الدراسية التى تقدمها لأبناء مهاجرى التبت .

سويسرا	٢٤٣ منحة دراسية .
فرنسا	٢٢ منحة دراسية .
ألمانيا الغربية	١٢ منحة دراسية .
انجلترا	٨ منح دراسية .
أمريكا	٨ منح دراسية .
الدانمرك	٤١ منحة دراسية .
المجموع	٣٣٤ منحة دراسية .

يقفز إلى الأذهان هنا سؤال هام وملح هو :

هل قامت دولتان إسلاميتان بعرض قضية تركستان الشرقية على الأمم المتحدة ؟

بكل الأسى أقول : ما من دولة واحدة من الدول الإسلامية فعلت ذلك .

ثم يتبع هذ سؤال آخر : هل قامت دولة إسلامية واحدة أو منظمة إسلامية واحدة بتقديم العون المادى أو المعنوى لنشاطنا نحن مهاجرى تركستان الشرقية ؟

لماذا تجاهل العالم الإسلامى قضية بلادى ؟

سؤال : أيوجد تفسير – فى رأيكم – لتجاهل العالم الإسلامى لقضية تركستان الشرقية فى الوقت الذى نلحظ اهتمام هذا العالم الإسلامى بقضايا إسلامية أخرى ، أذكر منها الفلبين على سبيل المثال ؟

الجواب : السبب فى ذلك أن العالم الإسلامى لا يتوقع منفعة من حكومة الفلبين ، العالم الإسلامى لا يخاف من الفلبين لذلك يدعم العالم الإسلامى قضية مسلمى الفلبين . ولكن بعض الدول الإسلامية تتلقى معونات مادية ومعنوية من الصين الشعبية ، وبعض الدول الإسلامية الضعيفة تخاف من الصين الشعبية وهذه الدول لا تساعدنا ، وتحتج لهذا قائلة بأنها إذا قدمت لتركستان الشرقية العون والمساعدة فإنها فى هذه الحالة ستتعرض للحرمان من معونة الصين الشعبية لها .

سؤال : أيمكن أن نعود إلى مسألة مهاجريكم ونتحدث عن موقف التنظيم الخاص بالتركستانيين الشرقيين المهاجرين فى الخارج ؟

الجواب : فى الباكستان أقام مهاجرو تركستان الشرقية الموجودون بالباكستان جمعية تحت اسم (جمعية مهاجرى تركستان الصينية) . وفى أفغانستان لم توافق الحكومة الملكية الأفغانية على إنشاء جمعية تضم شمل مهاجرى تركستان الشرقية فيها لذلك عجز مهاجرونا فى أفغانستان عن إقامة تنظيم يرعى مصالحهم ومشاكل هجرتهم . أما فى السعودية فلم تصدر موافقة الحكومة على إنشاء جمعية للتركستانيين الشرقيين الموجودين بالمملكة .

خلاصة القول فى هذه المسألة إنه لا توجد فى الخارج – أى خارج تركستان الشرقية – جمعية تكافح من أجل قضية تركستان .

الفصل الرابع

عيسى يوسف ألب تكين
وثورة المسلمين فى تركستان الشرقية

عيسى يوسف ألب تكين هو آخر رئيس وزارة مسلم فى تركستان الشرقية قبل احتلال الصين الشيوعية لها . وهو يتصدر قائمة الداعين إلى قضية تحرير بلاده تركستان الشرقية من نير الاستعمار الشيوعى الصينى . والقضية : تحرير تركستان الشرقية وعودتها إلى مصاف الدول الإسلامية .

وُلد وتلقى تعليمه فى بلاده ، وتنقل فى الوظائف المختلفة حتى وصل إلى درجة الأمين العام لحكومة تركستان الشرقية (وهى تقابل رئيس الوزراء) وكان ذلك عام ١٩٤٧ .

واتبع عيسى يوسف أثناء رياسته لوزارة بلاده سياسة وطنية معادية للاستعمار ومعادية للشيوعية . إذ كانت بلاده وقتها حديثة عهد باستقلالها تطمع فيها عدة دول كبيرة : الصين الشيوعية وروسيا السوفيتية من ناحية والصين الوطنية من ناحية أخرى . وبفعل دسائس الروس وصدام المصالح الدولية وقتئذ استطاعت قوات ماوتسى تونج السيطرة على أقاليم تركستان المجاورة للصين ، ومن ثم استطاعت قوات ماوتسى تونج احتلال تركستان الشرقية . واضطر عيسى يوسف إلى اللجوء إلى كشمير عام ١٩٤٩ ثم إلى تركيا عام ١٩٥٤ حتى اتخذها موطناً . ثم كوَّن فى استانبول جمية الدفاع عن حقوق تركستان الشرقية ، وعمل على تجميع جهود التركستانيين الشرقيين المهاجرين إلى مختلف بقاع العالم بعيداً عن مظالم النظام الشيوعى .

كانت تركستان الشرقية أثناء وزارة عيسى يوسف قد خرجت من توها من نير احتلال صينى وطنى ، لذا كان على هذا الرجل المجاهد مهمة تجميع القوى الوطنية فى بلاده . وقد أرسى دعائم هذا التجميع على أسس دعائية علمية سليمة ، فانشأ مجلات قوية الانتشار هى : صوت تركستان ، وطانرى داغى ، والتاى ، كما أصدر فى هذا السبيل صحيفة يومية باسم آرك ، ثم كون اللجنة العلمية لإعادة صياغة الثقافة التى حاول الاستعمار فرضها على بلاده قبل توليه السلطة . وأسس داراً للنشر لهذا الغرض .

وللمجاهد عدة كتب ودراسات للتعريف ببلاده وقضيتها منها :

١ - قضية تركستان الشرقية .

٢ - تركستان الشرقية تطلب العون من الإنسانية .

٣ - مأساة تركستان الشرقية (صدر بالعربية فى مصر عام ١٩٥٢ وبالتركية فى أنقرة فى نفس العام) .

٤ - استمرار الفظائع الشيوعية فى تركستان الشرقية (بالانجليزية وبالتركية فى لهجتها التركستانية) .

٥ - المسلمون خلف الستار الحديدى (تركستان الشرقية) صدر باللغة العربية فى القاهرة عام ١٩٥٢ ثم ترجم إلى اللغة الماليزية .

٦ - المؤتمر الآسيوى الأفريقى وقضايا تحرير البلاد الإسلامية من الأسر الروسى الصينى . وصدر فى الباكستان عام ١٩٥٥ باللغة التركية فى لهجتها التركستانية .

يعمل عيسى يوسف عن طريق الطرق الدبلوماسية ، وعن طريق الأسلوب الدبلوماسى على تحقيق الآتى :

أ - طلب العون الأدبى والمعنوى من العالم الإسلامى لتحرير تركستان الشرقية من الاستعمار .

ب - التعريف بقضية بلاده وهى قضية تُقابل بالتجاهل من العالم .

جـ - العمل على شرح قضية الأتراك المحتلين سواء من قِبَل روسيا السوفييتية أو الصين الشعبية .

د - إيقاظ شعوب العالم وتنبيهها إلى الخطر الشيوعى وخاصة الشعوب الإسلامية منها .

وفى سبيل أن ينبه الرجل الرأى العام العالمى لقضية بلاده قام بزيارات متعددة لزعماء العالم عامة وزعماء العالم الإسلامى خاصة . فى هذا السبيل قام بمقابلة زعماء المملكة العربية السعودية وحظى بتأييد من جلالة الملك المغفور له فيصل ، وشرح

قضية بلاده أيضاً إلى زعماء العربية السعودية والباكستان واليمن والأردن والعراق وسوريا ولبنان وأندونيسيا وأفغانستان ومصر وإيران وماليزيا ، كما قام بشرح قضيته إلى زعماء الهند وسيلان واليابان وأمريكا والنمسا وفرنسا واستراليا وألمانيا الغربية وغيرها .. يريد من ذلك كسب مخاوف الغرب من الشيوعية ويطمع فى تأييد المسلمين لبلاده فهى قضيتهم . ويأسى الرجل لأن الهند تهتم اهتماماً بالغاً بالتبت حتى أسمعت العالم كله قضية التبت والدالاى لاما ، أما العالم الإسلامى فلم يُسمع أحداً بقضية المسلمين فى تركستان الشرقية لأى هيئة عالمية .

كان يهدف عيسى يوسف ألب تكين إلى تكتل الدول الإسلامية لإيصال قضية استقلال تركستان الشرقية عن الصين إلى الأمم المتحدة . وكان يريد أن تقبل الدول الإسلامية وفداً من التركستانيين الشرقيين – الموجودين بالخارج – ليمثلوا تركستان الشرقية فى مؤتمرات وزراء الخارجية الإسلامية بصفة مراقب ، وأن تتكرم الدول الإسلامية على شعب تركستان الشرقية المسلم بدرج قضيته ضمن قضايا العالم الإسلامى فى مؤتمرات وزراء الخارجية الإسلامية ، وافتتاح مكتب لرعاية قضية تركستان الشرقية لدى الأمانة العامة لوزراء خارجية الدول الإسلامية .

يقول الداعية المخلص لتحرير بلاده : إن التركستانيين الشرقيين – وهم مسلمون – لا بد لهم من التحرر من احتلال الصين لهم ، فهم خمسة عشر مليون نسمة ويمكن أن يضيعوا فى خضم هذا العدد الهائل من الصينيين الشيوعيين ، خاصة أن الصين منذ احتلت تركستان الشرقية وهى تعمل على تحطيم الثقافة الإسلامية والقضاء على الإسلام فى نفوس الأتراك فى تركستان الشرقية ، وتعاليم ماو كانت وقتها مفروضة على صغارهم فى المدارس فرضاً ، واللغة الصينية هى اللغة الرسمية فى المدارس والأجهزة الحكومية والمؤسسات المختلفة . وعندما قام الصينيون باستبدال حروف اللغة اللاتينية بحروف اللغة التوكية بلهجتها التركستانية – وكانت عربية إسلامية – إنما استهدفت من ذلك قتل روح الإسلام فى النفوس . والثورة الثقافية فى الصين إنما قامت لتحطيم كل ما يخالف الثقافة الشيوعية فى النفوس ، وإعلان السلطات الشيوعية أن الإسلام خارج على القانون ويُعاقب كل متلبس به إنما هو جزء من مخطط لفرض الشيوعية فرضاً خبيثاً .

ورغم كل هذا فإننا نجد الثورات فى تركستان الشرقية إنما تقوم باسم الإسلام ، والحرب التى يشنها شعب تركستان الشرقية فى الجبال ضد القوات الصينية إنما هى باسم الإسلام ، والشهداء الذين يتساقطون برصاص الشيوعية فى تركستان الشرقية إنما يسقطون وهم يُكبِّرون .

على أن من أخطر مخططات القضاء على الإسلام فى تركستان الشرقية هو التهجير الجماعى للصينيين إلى تركستان الشرقية وإقرارهم وتوطينهم فيها حتى يصبح شعب تركستان الشرقية أقلية وهو صاحب الأرض وسط أكثرية صينية شيوعية غريبة وافدة عليه .

عتب هذا المجاهد الإسلامى على الصحافة الإسلامية وعلى الكتب الإسلامية عندما تستخدم كلمة سينكيانج للدلالة على تركستان الشرقية ، فلفظة سينكيانج إنما هى كلمة صينية معناها (الأرض التى تم احتلالها حديثاً) أو (المستعمرة الجديدة) وهى كلمة فرضها بالقوة حكام الصين عندما احتلوا تركستان الشرقية ، فهل تستجيب الصحافة الإسلامية إلى طلبه بذكر الاسم الإسلامى لبلاده وهو (تركستان الشرقية) بديلاً عن كلمة سينكيانج ؟!

وهذا المجاهد يأمل خيراً فى عناية الصحافة الإسلامية بقضية بلاده تركستان الشرقية .

الفصل الخامس

الصين الشعبية تقتل المسلمين وتجرِّم الإسلام

لا تجد فى أية خريطة ، شرقية كانت أو غربية ، اسم تركستان الشرقية ، لكنك تجد بديلاً عنه كلمة صينية هى سينكيانج ، وتعنى المستعمرة . فالجغرافيون المعاصرون - إلا من رحم ربك - ينساقون مع حركة الاستعمار العام فى إطلاق المسميات التى تتفق مع الواقع الاستعمارى وإن جانبت الحقيقة .

وتركستان الشرقية - هذه البلاد المسلمة - احتلها الشيوعيون الصينيون فى نوفمبر من عام ١٩٤٩ م ، وفرض الصينيون الحمر حكمهم على تركستان الشرقية بعد مجازر وأحداث مهولة .

وقد صرح صاو - لى - جين السكرتير الثانى لقطاع تركستان الشرقية فى الحزب الشيوعى الصينى فى بكين فى ٢٩ / ٤ / ١٩٥١ م أن ١٣,٥٦٤ مثقفاً مسلماً قُبض عليهم بتهمة معاداة الشيوعية . وذكر هذا السكرتير الثانى فى تصريحه أن برهان شهيدى - وهو شيوعى - حاكم تركستان الشرقية الموالى للاحتلال أعلن أن « ٢٠,٠٠٠ » مسلم قاموا بعمليات سرية مضادة للحكم الشيوعى فوقع عليهم الجزاءات المناسبة .

وقتل الشيوعيون الصينيون من مسلمى تركستان الشرقية خلال السنوات الأربع من الاحتلال - يعنى من سنة ١٩٤٩ إلى سنة ١٩٥٣ « ١٠٠,٠٠٠ » مثقف مسلم معارض . وعلى رأس قافلة الشهداء المسلمين هؤلاء أسماء : الدكتور مسعود صبرى ، وجانم خان حاجى ، وعثمان باطور ، وغنى باطور ، وعبد العزيز جنكيز وقون بان قوداى رئيس تحرير جريدة اليقين .

مع احتلال الصين الشعبية الشيوعية لتركستان الشرقية قسمت البلاد إلى ٤٥٠ كوميون (معسكر العمل الإجبارى) ليعمل فيها العمال والفلاحون المسلمون وهم يشكلون ٩٩ ٪ من عدد السكان . وصاحب عملهم فى هذه المعسكرات المشقة والعذاب وحالات الوفاة الجماعية ، كما مات الكثير من المسنين والعجزة والمعوقين بعد أن جمعهم الحكم الشيوعى فى أماكن محددة وقتلهم فى عمليات « الموت البطىء » .

ومع احتلال الصين الشيوعية لتركستان الشرقية أُلغى العمل بالإسلام واستُبدل الحرف اللاتينى ثم الصينى بالحرف العربى الجميل . وحرِّم التعليم الإسلامى ، واستبدل به التعليم الشيوعى فى المدارس ، واستخدمت المبانى الإسلامية بمختلف أنواعها وفى مقدمتها الجوامع والمساجد فى أعمال تتنافى مع قيم الإسلام ، وأُحرقت الكتب الإسلامية ، وأعلنت سياسة قطع صلة مسلمى تركستان الشرقية بالإسلام والمسلمين عموماً . ومُنع تداول القرآن الكريم ، وحُظر قراءة الكتب الدينية ، وأُلغيت الملكية الخاصة ، وصُودرت كل ثروات المسلمين بكافة أشكالها بما فى ذلك حُلىِّ النساء ، ونُقل من ذلك الكثير على عربات نقل كبيرة إلى بكين ، وأُجبرت المرأة المسلمة على التزوج من الصينيين ، واندفع المسلمون من هناك فى هجرات كبيرة إلى الهند والباكستان والسعودية ومصر وتركيا وغيرها فراراً بدينهم ، وأشهر هذه الهجرات هجرة الـ « ٧٠٠٠ » مهاجر بريادة محمد أمين بوغرا وعيسى يوسف ألب تكين . وكانت من أعنف واشق حالات الهجرة حيث مات فى الطريق الكثير منهم .

ولكن ما إن انزاح حكم وتأثير ماو – تسى – تونج فى الصين حتى تحسنت الأوضاع عما سبق ، واتجهت الحكومة الصينية إلى تخفيف الضغط على الصين ، وشملت هذه السياسة مسلمى تركستان الشرقية . واختلف الوضع عن أيام حكم ماو وجدَّ عليه الجديد .

فما هو الجديد فى حياة المسلمين فى تركستان الشرقية (عام ١٩٩٣ م) .

استطاع المسلمون أن يمتلكوا ، خاصة الذين يعيشون على الرعى منهم ، فالدولة الصينية تعطى المسلم هناك مائة (١٠٠) من الأغنام لتربيتها وتوليدها مقابل أن يعطى الدولة ٨٥ ٪ مما تلد ، فإذا نقص ما يعطيه للدولة عن ذلك عليه دفع مقابل النقص وإذا زاد العدد عن ذلك فالزيادة للمسلم . والمسلمون فى تركستان الشرقية يمتازون بالنشاط والدقة وإتقان العمل وأغنامهم لا تنقص بل تزيد .

لكن القوانين الصينية الشيوعية تحرم تدريس الإسلام للنشء حتى سن ١٨ سنة ، إلا أن المسؤولين الصينيين الجدد لا يتدخلون فى تعليم العائلات التركستانية الإسلام لأولادها بشرط أن يكون هذا فى المنزل ، فالموانع القانونية لتدريس الإسلام لا تسرى على البيوت ولا تحد من نشاط المسلمين داخل الأسرة .

والمسلمون فى تركستان الشرقية الآن (١٩٩٣ م) - خاصة كبار السنّ - يصلُّون ويصومون ويتلون القرآن الكريم براحة وحرية .

وأصبح للمسلمين مدارسهم الخاصة بهم يتلقى أولادهم فيها تعليمهم بلغتهم التركية بحروفها العربية (المسلمون هناك يسمون الحرف العربى باسم حرف القرآن) وهذا الحرف طبيعي وسهل بالنسبة للتركستانيين الشرقيين بعكس الحروف الصينية المعقدة الصعبة التى كانت مفروضة عليهم فى عهد ماو .

وأصبح بإمكان الشباب - بعد سن ١٨ - أن يدرسوا فى مدرسة إسلامية عالية افتُتحت فى مدينة « أورومجى » تدرِّس علوم القرآن الكريم واللغة العربية .

كما أن الشباب هناك يستطيعون دراسة الإسلام والعلوم الأُخرى فى خارج الصين ، فقد سُمح بهذا أخيراً بشرط واحد أساسى هو أن تتقدم الجامعات فى العالم الإسلامى وفى غيره بطلب رسمى إلى الحكومة الصينية تقدم فيه منحاً إلى الشباب التركستانى الشرقى . وقد كانت الجامعات اليابانية رائدة فى هذا المضمار ، إذ تقدمت بعض جامعات اليابان بطلب إلى الصين قدمت فيه منحاً لطلاب مسلمين ، فوافقت الحكومة الصينية فوراً بناء على القرارات الحكومية الجديدة ، وهى تسمح بذلك .

ومن الممكن الآن - عام (١٩٩٣ م) - للطلاب المسلمين التركستانيين الالتحاق بالتعليم العام بالصين فى مختلف مراحله لكن هذه الدراسة تستلزم اللغة الصينية ، إلا أن اللغة الصينية لا تهم المسلمين هناك ولا يقبلون على تعلُّمها ، ذلك لأن الصين تحرِّم على المسلمين الالتحاق بالجيش فى أية رتبة صغيرة كانت أو كبيرة ، بل ولا حتى فى الوظائف الإدارية المدنية فى جيش الصين . والوضع كذلك فى الدرجات المدنية فى الدولة .

وقد تغيَّرت نظرة الصينيين الحمر أيضاً إلى القرآن الكريم - سياسيًّا - فلم يعد هناك حظر على دخول المصاحف إلى الصين الشعبية الشيوعية . والمصاحف متواجدة الآن فى تركستان الشرقية ، فالسعوديون يرسلون المصاحف إلى هناك هدية لمسلمى تركستان الشرقية ، كما صرَّح بذلك محمدى قيليج نائب رئيس وقف الأتراك القازاق فى استانبول لمجلة قادين وعائلة التركية (والقازاق من مسلمى تركستان الشرقية) .

وتقدم بعض المحسنين بطلب إلى الحكومة الصينية لبناء مسجد فى هذه البلاد بالتعاون مع المسلمين المحليين ، فلم تمانع الحكومة الصينية بل يسَّرت هذا الأمر وإن كان بعدُ عدة استجوابات .

ولم تعد الفتاة المسلمة فى تركستان الشرقية مجبرة على التزوج من الصينيين فلقد اختفى هذا الإجبار واختفت هذه الظاهرة بعد زوال مرحلة القهر الأكبر .

وسُمح للمرأة المسلمة بارتداء الحجاب فلم تعد السلطات الرسمية الصينية الشيوعية تتدخل فى شكل ملابس المسلمين والمسلمات .

وأصبح الإعلام الصينى الشيوعى يهتم بمسلمى تركستان الشرقية ، فأصبح التليفزيون – وكذلك الإذاعة – يبث برامج فى أوقات معينة محدودة باللغة التركية بلهجاتها هناك التى تتحدث بها المجموعات التركية وهى : القازاق والأزبك والأويغور والتتار والقيرغيز وغيرها ، ولم يتعد البثُّ التلفزيونى فى هذا الصدد الأفلام الصينية المدبلجة لغويًا وبرامج مختلفة قليلة تتعلق بالأتراك . وتزمع السلطات الصينية هناك تطوير هذا البث بمختلف لهجات المسلمين إلى مستوى أفضل .

دفع التغيير الجديد فى حياة المسلمين فى تركستان الشرقية اهتمامات وكتابات وزيارات الكتَّاب والصحفيين المسلمين وخاصة الأتراك منهم مثل : لقمان ناجى ، وقَدْرِيَّة ناجى ، وياسين أرسلان ، وشنار سنجار ، وعبد الحميد يلديز ، وغيرهم . وكانت لهم انطباعات نوجزها فيما يلى :

– تركستان الشرقية بلاد فقيرة المظهر رغم غناها الطبيعى ، فالسيارات لا يستخدمها هناك إلا الأجانب ، لكن الدراجات منتشرة رغم شدة غلاء أسعارها وفى الصين أضخم رقم فى العالم فى الدراجات .

– يحس الزائر هناك فى القرى والقصبات والمدن الإسلامية أنه فى « أمان إسلامى » والأطفال مبتسمون يضحكون فى كل مكان ، وكبار السن ملتحون معممون ، والجدات والأمهات بشكل خاص محجبات ، والترابط الأسرى واضح ، والجميع هنا وهناك يتكاتفون فى بناء مسجد أو جامع .

– وسائل المواصلات من القرى إلى القصبات وبالعكس عبارة عن عربات تجرها الحمير والبغال والجياد ، تنتقل بها الأسر والعائلات المسلمة ويستخدمها المسلمون لقضاء شؤونهم المعاشية الأخرى فهى تنقل البطيخ والشمام وغيره إلى الأسواق .

– الترابط فى الأسرة التركستانية الشرقية واضح خاصة فى الأسواق : دكاكين الخياطين والحدادين وبيع الطواقى والسكاكين وغير ذلك ، فتجد صاحب الدكان المسلم وحوله أولاده يساعدونه ويتعلمون المهنة عنه .

– وفى تركستان الشرقية مطاعم مسلمة جيدة ونظيفة عليها لوحات مكتوبة بلغتهم التركية بالحروف العربية تحمل عبارة « مطعم مسلم » وبجوار ذلك لوحة بنفس المعنى باللغة الصينية . يساعد الأولاد آباءهم فى العمل فى هذه المطاعم لكن لا وجود للمرأة المسلمة فتاة كانت أو امرأة عاملة فيها .

الفصـل السادس

دور الطلبة المسلمين
فى مظاهرات بكين الدامية

تتولى المراقب المسلم لأحداث العالم الشيوعى الدهشة عندما لا يعثر على أخبار المسلمين ضمن أخبار هذه الأحداث . ولهذا المراقب الحق فى دهشته ، ذلك لأن أجهزة الإعلام الدولية تتفق على عدم الاهتمام بنشاط المسلمين ، بل تتجه هذه الأجهزة إلى التعتيم على الأخبار إذا كان فيها إبراز لدور المسلمين .

وبلاد قدَّمت للعالم أجمع أعلاماً يَشْرُف التاريخ بهم لَجديرة باهتمام العالم بأسره ، والعالم الإسلامى بالذات . أقصد هنا تركستان التى قدَّمت للإنسانية أعلاماً يصعب حصرهم وإن كان من الممكن الإشارة إلى نماذج منهم مثل : الأئمة : البخارى والترمذى والماتريدى والغزالى والرازى والزمخشرى والجوهرى والبيرونى والسَّكَّاكى والسجستانى والتفتازانى والشاشى والسرخسى واليسوى ، والقادة مثل : محمود الغزنوى وألب أرسلان صاحب معركة « ملازكرد » بخيرها العميم للمسلمين .

والمراقب المسلم يريد متابعة أحداث تركستان لكن الإعلام العالمى يحرمه من متابعة دور المسلمين فى الأحداث . ولا يقتصر الأمر على تركستان الشرقية فقط بل يتعداها إلى آذربيجان وأوزبكستان فى الاتحاد السوفييتى سابقاً وأوروبا الشرقية قبل الاستقلال أيضاً .

يذكرنا هذا بما حدث فى الصين الشيوعية أيام حكم ماو – تسى – تونج . ففى عهد هذا الطاغية قامت الحكومة الصينية الشيوعية بتطبيق حركة « إعادة الحقوق المغتصبة إلى أصحابها » وأعقبتها بحركة : « دع ألف زهرة تتفتح » قام الإعلام العالمى بتغطية واسعة لتطبيقات هاتين الحركتين . ولكن عندما قام شعب تركستان الشرقية الخاضع لحكم الصين الشيوعية ليطبق – بحُسن نية . هذه الشعارات الحكومية وجد مدافع الجيش الصينى توجَّه إليه ليستشهد الآلاف من أبنائه المسلمين . وقام الإعلام – المحلى الصينى والدولى – بالتكتم على هذه الأحداث الدامية التى استُشهد فيها المسلمون .

كما يذكرنا هذا بالحركة الثقافية فى الصين التى أعلنها ماو – تسى – تونج .

غطّت أنباء هذه الحركة الصفحات المختلفة فى صحف العالم بأسره ، لكن هذا الإعلام خرس عن وصف ما يتعلق بالمسلمين فى هذه الثورة الثقافية الصينية . وما عُرف مؤخراً أن الثورة الثقافية هذه قد اشتملت على عدة بنود كان أهمها : « القضاء على الدين » و « اعتبار الإسلام عملاً خارجاً على القانون الصينى ويجب ردع العاملين به » .

وتغافل الإعلام العالمى عن الإتيان بخبر واحد يشير إلى الآلاف المؤلفة من شهداء المسلمين فى الصين الذين سقطوا صرعى وهم يشكون إلى الله القهر الصينى الشيوعى . وكان هذا التغافل حاصلاً رغم أن نبَّه إليه يوسف آلب تكين رئيس الوزارة فى تركستان الشرقية عند مداهمة الشيوعيين لبلاده والذى هاجر من بلاده ليقود التركستانيين لاستعادة بلادهم من القهر الصينى .

مظاهرات الصين الدامية :

ولما جاءت المبادرة إلى المناداة بالديمقراطية فى الصين الشيوعية من الطلاب المسلمين تكتم الإعلام العالمى هذا ، وعتَّم عليه ، وأسند المبادرة إلى الطلاب الصينيين ، باعتبار أنهم سئموا النظام الشيوعى والديكتاتورية الشيوعية .

والمعروف لدى المراقبين السياسيين أن موجِّهى السياسة الصينية — بعد موت ماو — طرحوا سياسة القيام بإصلاحات داخلية واتباع سياسة انفتاح نحو الغرب . وبالفعل سارت الصين خطوات واضحة فى سبيل القيام بإصلاحات اقتصادية لكنها لم تستطع فعل ذلك فى الميدان السياسى ، لذلك لم تقم فيه إصلاحات جذرية تذكر .

أمام هذا الركود السياسى كان على الشعب الصينى التحرك ، لكنه تردد حتى جاءت المبادرة والريادة فى هذا التحرك بقصد القيام بإصلاح ديمقراطى ، جاءت من المناطق المسلمة فى الصين ، وبالضبط من الطلاب المسلمين فى تركستان الشرقية . وكان ذلك فى شهر ديسمبر ١٩٨٦ م .

قام عدة آلاف من الطلاب المسلمين الدارسين فى جامعات أوروجى بالتظاهر . وكانت طلباتهم محددة وتنحصر فى :

١ – المطالبة بحق الانتخاب الديمقراطى .

٢ – تعيين المسئولين الحكوميين المحليين فى المناطق المسلمة فى الصين عن طريق الانتخاب الشعبى الذى يعبر عن إرادة الشعب الحرة بدلاً من تعيين هؤلاء تعييناً مركزيًّا من العاصمة الصينية بكين .

٣ – التوسع فى إعطاء حقوق الإدارة الذاتية ، فمناطقهم تتمتع باستقلال ذاتى صورى .

٤ – ضمان حقوق متساوية مع الصينيين فى حرية التعليم .

٥ – وقف تجارب القنابل الذرية والنووية التى تجريها حكومة الصين الشيوعية فى بلادهم تركستان الشرقية ، وضمان تأمين صحة الشعب المسلم هناك من أخطار الانفجارات النووية .

٦ – ضرورة قيام حكومة الصين الشيوعية بإلغاء تحديد النسل الذى تطبقه على مسلمى تركستان الشرقية .

ونجح طلاب تركستان الشرقية – وهم مسلمون – فى تنظيم مظاهرات مماثلة بعد أن تفاهموا مع الطلاب المسلمين فى كل من بكين وشنغهاى على أن تحمل هذه المظاهرات نفس المطالب .

وكان هذا بداية المظاهرات العاصفة التى قام بها الطلاب فى بكين فى شهرى أكتوبر ونوفمبر عام ١٩٨٧ م . وزحفت هذه المظاهرات إلى مدن الصين الأخرى .

تأتى بعد ذلك الأحداث المشهورة : استجاب لهذه المطالب الطلابية الأخيرة « هو – ياو – بانج » زعيم الحزب الشيوعى الصينى . وكان من أنصار عدم التعرض للطلاب بأى نوع من أنواع القسوة بل إنه صرَّح بأن مطالب الطلاب عادلة ، إلَّا أن أنصار الحكم الديكتاتورى تكتلوا وعزلوا « هو – ياو – بانج » من الأمانة العامة للجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى عام ١٩٨٧ نتيجة لموقفه من تطور المطالب الطلابية .

وفى ١٥ إبريل ١٩٨٩ م مات « هو – ياو – بانج » وبموته أطلَّت المظاهرات مرة أخرى برأسها لكنها ضمت هذه المرة الطلبة والعمال وكتلاً كبيرة من الشعب الصينى .

وفى ١٧ أبريل ١٩٨٩ قام طلاب الجامعات الصينية ، وقد بلغوا عشرات الآلاف ، بالاشتراك فى جنازة « هو – ياو – بانج » لكن الزمام أفلت منهم فاتجهوا فى نفس اليوم إلى ميدان « تيان نَامِنْ » (ميدان السلام السماوى) فى بكين مطالبين بالحرية والديمقراطية فأمرتهم الحكومة بالهدوء والعودة من حيث أتوا ، فتحدى الطلبة أوامر الحكومة فى هذا الشأن . وقد تطور التحدى الطلابى للحكم الشيوعى حتى بلغت المظاهرة مليون شخص .

وانتشرت المظاهرات من بكين إلى نانكين وغيرها من المدن الكبيرة فى الصين ثم تعدتها إلى المحافظات الصينية الأخرى .

الشكل الأخير للمطالب :

طالب المتظاهرون بعدة مطالب هى :

١ – تغيير النظام من شيوعى ديكتاتورى إلى حرية ديمقراطية .
٢ – ضمان حرية الصحافة والنشر .
٣ – توسيع الحقوق الديمقراطية .
٤ – تأسيس نظام ديمقراطى .
٥ – السماح بنظام انتخابى يقوم على تعدد الأحزاب .
٦ – منع ظاهرة الرشوة بين مسئولى الدولة .
٧ – عزل لى – بنج رئيس وزراء الصين باعتباره معرقل الحركة الديمقراطية .

قام الجيش الصينى الشيوعى بتهديد المتظاهرين حتى ينفضوا وينهوا مظاهراتهم ، ولما لم يستجب الطلاب ومن معهم إلى ذلك قام الجيش بعد بضع أسابيع من التهديد بالهجوم على ميدان السلام السماوى يومى ٣ و ٤ يونيو ١٩٨٩ م موجهاً رصاص بنادقه الآلية إلى صدور المتظاهرين فقتل المئات وجرح الآلاف ، فانتهت حركة الطلاب المنادية بالديمقراطية .

وتقول المصادر الغربية فى تحليلها لنتائج هذه المظاهرات : إن نتيجتها تتركز فى أربع نقاط :

أولاً : استقرار فكرة الديمقراطية فى عقول الشعب الصينى على مختلف اتجاهاته وأعراقه وشعوبه .

ثانياً : إدراك الحاكم والمحكومين على السواء فى الصين عمق عدم الرضا السائد بين الشعب الصينى ، وأن بوادر التمرد الشعبى أكثر بكثير مما كان يظن الحكام .

ثالثاً : أن النهاية المأساوية القمعية لحركة الطلاب ضد النظام الشيوعى على الشكل الذى جرى فى ميدان السلام السماوى قد آزرت حركة المطالبة بالديمقراطية وقوَّتها ودفعتها إلى الأمام ولم تضعفها بعكس ما تصور الجيش ، كما أعطت هذه النهاية الدامية للحركة الطلابية دفعة قوية للمعارضة .

رابعاً : أن الشعب الصينى قد أصبح الآن يستطيع نقد النظام الشيوعى صراحة ونقد الحكومة الشيوعية بعكس ما كان يحدث قبل حادث ميدان السلام السماوى ، فلم يكن أحد يستطيع أن يفتح فمه نقداً للحكومة الشيوعية والنظام الشيوعى .

والعالم كله يتجاهل أن الفضل فى هذه الحركة المقاومة للنظام الشيوعى فى الصين قد بدأها وأخذ بزمام المبادرة فيها الطلبة المسلمون .

وبينما العالم يترقب فى أبريل ١٩٩٠ م قيام المظاهرات فى ميدان السلام السماوى فى بكين إذ تمُرُّ ذكرى أحداثه الدامية بلا حوادث جديدة فيه .

لكن جاءت الأخبار بدلاً من ذاك بالخبر التالى :

« القوات الصينية تتدخل لقمع اضطرابات على حدودها مع الاتحاد السوفييتى ، قمع اضطرابات طائفية قام بها أعداد كبيرة من المواطنين (!) المسلمين فيها مما أدى إلى مصرع (٥٠) شخصاً » .

ويتوالى الخبر على النحو التالى :

« إن المظاهرات تفجرت إثر محاولة المسلمين فى تركستان الشرقية بناء مسجد رغم قرار السلطات الصينية بمنع أى نشاط دينى فى الإقليم بدعوى أنه يرمى إلى بث الروح الانفصالية المعادية للحكومة » .

الباب الثالث

دول البلقان (الدول المسلمة فى أوروبا الشرقية)

الفصل الأول : بلغاريا واليونان .

الفصل الثانى : البوسنة والهرسك .

الفصل الأول

بلغاريا واليونان

١ - الانتفاضة الإسلامية فى بلغاريا (الأسباب والنتائج) .

٢ - الغرب يدافع عن مسلمى اليونان .

٣ - مسلمو اليونان يتعرضون للإذابة وفقدان الهوية .

[١]

الانتفاضة الإسلامية فى بلغاريا

(الأسباب والنتائج)

لم يكن العالم العربى مقدراً لخطورة المجازر التى قامت بها الحكومة البلغارية تجاه المسلمين فى بلغاريا قبل اندحار الشيوعية منها ، وبالتالى عدم تقدير خطورة قضية انحسار المد الإسلامى فى أوروبا الشرقية . إذ أن هناك أقليات إسلامية فى كل الدول المحيطة ببلغاريا : اليونان ويوغسلافيا ورومانيا .

أما العالم التركى فقد بلغ فى الغليان الذروة : المظاهرات فى مختلف المدن التركية تطالب الحكومة بالتدخل المسلح لإنقاذ مسلمى بلغاريا . المانشيت الكبير فى صحيفة « حريت » يقول : مئات الآلاف من الحناجر تهدر بجملة واحدة : « الجيش إلى صوفيا » . وقام ٣٠٠ طالب من جامعة مرمرة بالإضراب عن الطعام لدفع الحكومة التركية إلى عمل حاسم لإنقاذ مسلمى بلغاريا . وقام طلاب الجامعات فى استانبول بجمع التوقيعات خلال الأيام الثلاثة الأولى من شهر يونية (١٩٨٩ م) احتجاجاً على عمليات القمع الوحشية التى تقوم بها الحكومة البلغارية تجاه المسلمين الخاضعين لها . والمظاهرات ضخمة وهادرة فى مدن قونية وقيصرية وغيرهما ، بل فى أوروبا حيث احتج الطلبة المسلمون باتحاداتهم المختلفة .

وبرز فى ذلك دور اتحادات الطلبة الأتراك بقيادة قدير باران الأمين العام للجمعيات التركية الوطنية الديمقراطية فى أوروبا الذى أرسل باسم اتحادات الطلبة المسلمين فى أوروبا خطابات إلى رؤساء الدول المختلفة وطلب تدخلهم وطلب منهم ألَّا تقف حكوماتهم صامتة إزاء الظلم البلغارى على المسلمين فى بلغاريا .

وقبضت السلطات البلغارية على مجموعة من المثقفين البلغاريين تظاهرت أمام السفارة الفرنسية فى صوفيا احتجاجاً على ما تقوم به حكومتهم من ظلم ومعاملة

غير إنسانية للمسلمين فى بلغاريا ، وألقت هذه السلطات بالمثقف البلغارى قسطنطين ترنسهاى فى السجن لنفس الغرض .

وفرّقت الشرطة البلغارية مسيرة احتجاج يقودها عثمان طور علييف البطل الأوليمبى العالمى فى المصارعة وقبضت عليه وأودعته السجن .

وأعربت حكومة باكستان عن (مشاركة باكستان لتركيا قلقها العميق لوضع الأقلية التركية فى بلغاريا) و (انتهاك الحقوق الإنسانية الأساسية للأقلية التركية فى بلغاريا أمر لا يمكن تبريره بأى شكل من الأشكال) . وأكدت باكستان من خلال المباحثات التركية الباكستانية فى أنقرة فى شهر مايو (١٩٨٩) أن الدعم الذى قدمته باكستان لتركيا حتى الآن سيستمر كما هو فيما يتعلق بالضغوط التى يتعرض لها الأتراك فى بلغاريا والتى قُوبلت بسخط كبير فى باكستان .

وأجرى الصحفى التركى جمال أيدين لقاء مع الأمير محمد الفيصل نشره فى جريدة (ترجمان) فى ٢ يونيه ١٩٨٩ قال فيه الأمير : إننا سنرعى حق الإخوة تجاه إخواننا المسلمين فى بلغاريا وإننا لن نخذلهم ، وسيمدُّ العالم الإسلامى يد العون إلى تركيا فى ضائقتها المالية التى حصلت لها بتوافد المهجرين الأتراك المسلمين من بلغاريا . وقال الأمير : إننا ندين الظلم البلغارى الواقع على إخوان لنا فى الإسلام .

وفى أوروبا أدان جيتانو أدينولفى وكيل الأمين العام للمجلس الأوروبى فى مؤتمر صحفى له فى باريس ونشرته جريدة « حريت » فى ٣١ / ٥ / ١٩٨٩ — الظلم البلغارى على الأتراك المسلمين فى بلغاريا ، ودعا صوفيا إلى احترام حقوق الإنسان .

وصرح جو كلارك وزير الخارجية الكندية بأن تصرف نظام بلغاريا الشيوعى تجاه الأقلية التركية لأمر يبعث على القلق الشديد .

أما رئيس وفد أيسلندا فى مؤتمر « الأمن والتعاون فى أوروبا » وهو : جوموندسون ، فقد قال فى افتتاح المؤتمر (فى ٢٠ / ٥ / ١٩٨٩) : إننا نحس بالأسى الشديد العميق من اتخاذ تدابير شديدة وظالمة تجاه المتظاهرين ذوى الأصول التركية فى بلغاريا .

البلغار كانوا يوماً أقلية أحسن المسلمون إليها :

وإذا عدنا إلى جذور المسألة الإسلامية فى بلغاريا نقول : إن بلغاريا – الشيوعية الآن – يعيش فيها مليونان ونصف مليون مسلم . فتحها المسلمون فى عهدهم العثمانى عام ١٣٦٣ م واستمر الإسلام فيها ٥٤٥ سنة ، تمتع البلغار فيها بما نسميه « الأمان العثمانى » ولم يكدِّر صفو علاقات المسلمين بالبلغار النصارى إلا ظهور الفكرة القومية بين البلغار .

استقلت بلغاريا عن الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ م وبقيت فيها بعد الاستقلال أعداد كبيرة من الأتراك العثمانيين وهم مسلمون .

والغريب أن العنصر البلغارى سنة الاستقلال لم يكن هو العنصر الأكثر عدداً . فقد كان المسلمون هم الأكثرية والأكثر إنجاباً .

هاجر كثير من المسلمين من بلغاريا بعد الاستقلال إلى تركيا . وقامت الدولة البلغارية النصرانية الجديدة بطرد أعداد كبيرة منهم . ولكى تكثر الحكومة البلغارية – وقتها – من عدد السكان البلغار استدعت البلغار الذين يعيشون خارج حدود بلغاريا ليستقروا فيها .

وبعد إعلان الشيوعية فى بلغاريا أخذ وضع المسلمين فيها يتدهور ، ذلك لأن الحزب الشيوعى البلغارى طرد عام ١٩٥١ م ١٦٠,٠٠٠ مسلم تركى ، وفى عام ١٩٥٢ م طردت بلغاريا ٢٥٠,٠٠٠ مسلم تركى إلى تركيا ، مما جعل الاقتصاد التركى وقتها يعانى من مشكلات اقتصادية .

خطوات الحزب الشيوعى البلغارى لإبادة المسلمين :

اتبع الحزب الشيوعى البلغارى منذ وصوله إلى الحكم سياسة تجاه المسلمين تقوم على تنفيذ مخطط إرهابى ضخم طويل المدى يتمثل فى التهجير التعسفى وإذابة العنصر المسلم الذى يبقى بعد التهجير فى المجتمع البلغارى .

لكن التهجير – ويعنى تهجير المسلمين بالقوة من بلغاريا إلى تركيا – كان من

شأنه فى مرحلة ما من مراحل الاقتصاد البلغارى إحداث نقص فى الأيدى العاملة الفنية فى بلغاريا ، فرأت الحكومة البلغارية تأجيل سياسة التهجير التعسفى ثم تنفيذها بعد ذلك على خطوات . لذلك اتبع الحزب الشيوعى البلغارى تجاه المسلمين عدة طرق :

- تغيير أسماء المسلمين بأسماء بلغارية نصرانية .
- عدم صرف رواتب العمال والموظفين إلا إذا كانت أسماؤهم بلغارية نصرانية .
- عدم تسجيل أبناء المسلمين فى المدارس إلا إذا حملوا أسماء بلغارية نصرانية .
- عدم نقل الطلاب المسلمين فى المدارس والجامعات من فصل إلى فصل ومن مرحلة إلى مرحلة أو من فرقة إلى فرقة أعلى أو فى تخرج إلا بناء على الاسم الجديد .
- منع دفن موتى المسلمين فى بلغاريا فى مقابر المسلمين .
- منع دفن موتى المسلمين فى بلغاريا حسب تقاليد الإسلام .
- منع المسلمين من الاحتفال بأعيادهم وبمناسباتهم الإسلامية ومنع صومهم فى رمضان .
- إغلاق كل مسجد أو جامع يموت إمامه .

ولقد تزامن تنفيذ هذه السياسة بإرهاب المعارضين بوسائل منها : القتل بالغازات السامة ، والقتل بالكهرباء ذات الضغط العالى ، والقتل بالرصاص فى الجبال ، وتعقب زعماء المعارضة وقتلهم كما حدث عندما اغتالت المخابرات البلغارية الشاعر المسلم التركى فى بلغاريا رجب كوبجو فى إحدى الحدائق العامة ثم أرسلوا لزوجته لتسلُّم جثمانه وكتبوا تقرير الوفاة أنها نتيجة أكلة مسمومة ، لكن زوجته أعلنت فيما بعد أنها لم تشاهد فى جثة زوجها آثار السم بل آثار ضرب وحشى فى كل أجزاء جسمه .

أحداث الانتفاضة الإسلامية فى بلغاريا :

كان طبيعيًّا أن تقوم الحكومة التركية بتقديم الاحتجاج إلى الحكومة البلغارية ،

ونجحت الحكومة التركية فى إثارة الرأى العام العالمى ضد بلغاريا . وقامت رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة بدور فعال فى تقصِّى الظلم الواقع على المسلمين فى بلغاريا ، وأسهمت الرابطة فى التدخل فى هذه المشكلة الإسلامية الحادة .

وفى الداخل – أى داخل بلغاريا – لم يستطع المسلمون الأتراك تحمل الظلم المستمر عليهم فى دينهم وحياتهم وأموالهم . وكما قال مؤمن كنج أوغلو رئيس اتحاد جمعيات المهاجرين اللاجئين من البلقان لجريدة ترجمان فى ٢٠ / ٦ / ١٩٨٩ م : « إن المظالم البلغارية قد وصلت إلى درجة لا يمكن السكوت عليها ولم نعد نحتمل . إننا هناك – فى بلغاريا – لا نستطيع تعليم أولادنا ، ويزداد عدد المختفين منا يوماً بعد يوم ، وعمليات الضرب والقتل فينا لا تنتهى . لم يعد أمامنا إلا الاستعداد للموت » .

لذلك نظم المسلمون الأتراك فى بلغاريا مسيرات احتجاج على سياسة الحزب الشيوعى البلغارى وإجراءات الحكومة البلغارية ضد المسلمين ، ونظموا عمليات إضراب عن الطعام . فقامت فى شهر مايو (١٩٨٩) مظاهرات إسلامية هادرة وعنيفة ، قامت فى مدينة ميدوفتز البلغارية مظاهرات إسلامية تدخلت لفضها الشرطة البلغارية وقتلت شخصين من المسلمين . واحتج أهالى قرية أزرشه – وهم مسلمون – فتدخلت الشرطة البلغارية أيضاً وقتلت الشاب سزكين ساليف وعمره (١٧) سنة .

وأفردت الصحف التركية – مثل جريدة تركيا وجريدة ترجمان التى أبرزت فى عددها الصادر فى ٢٣ مايو ١٩٨٩ أخبار المظاهرات الضخمة التى قام بها المسلمون الأتراك فى بلغاريا فى منطقتى (دلى أورمان) و (آق قادينلر) . وتدخل الجيش البلغارى فقتل فى هذه المظاهرات : طاهر جلى خليل ، وعزت على عثمان ، وحسن سالى ، ومحمد نجيب – وكان عدد الجرحى كبيراً .

وتصدت القوات البلغارية لمظاهرة أخرى جرت فى ٢٠ مايو وقُتل فيها ٣٠ مسلماً تركيًّا من المتظاهرين . وأضربت مجموعة من الشباب المسلم البلغارى عن الطعام لفتاً لأنظار الرأى العام العالمى .

وقام أهالى مدينة شومنو البلغارية ومسلمو المناطق الشمالية بمظاهرات احتجاج

شديدة تدخلت على أثرها الدبابات البلغارية وسُحق المسلمين فى القرى والقصبات التركية ومات الكثير (جريدة ترجمان فى ١ / ٦ / ١٩٨٩) .

وحاصرت الدبابات البلغارية كل المدن والقصبات التركية مما اضطر أهاليها المسلمين إلى الدخول فى صراع مع القوات المسلحة البلغارية التى تحاصرهم وتطلق عليهم الرصاص والقنابل .

وأثناء أحداث مايو الدامية فى بلغاريا كانت حكومة جيفكوف البلغارية قد منعت الصحفيين والدبلوماسيين الأجانب من دخول المناطق الإسلامية .

ولا ننسى هنا أن الشرطة البلغارية قتلت مجموعة من المسلمين غير محدد عددها فى منطقة (تيودور إيكونومرفو) التى أعقب أحداثها بدء حملة إعتقالات جماعية بين المسلمين وإرسال من يُعتقل فوراً إلى الحدود البلغارية التركية وتهجيرهم إلى تركيا مع المهاجرين الآخرين .

رد فعل الحكومة البلغارية :

أُخرجت الحكومة البلغارية أمام الرأى العام الأوروبى بعد تسرب أنباء انتفاضة المسلمين فى بلغاريا . ورأت أن أهم عاملين فى حرجها هذا هما : موقف الحكومة التركية وموقف المسلمين الأتراك داخل بلغاريا . فأرادت الانتقام من الحكومة التركية ومن مسلمى بلغاريا على النحو التالى :

أعلن جيفكوف رئيس الحزب الشيوعى البلغارى ورئيس الحكومة البلغارية وقتها فجأة ما أسمته جريدة « حريت » التركية (بالمفاجأة الباردة) وهى فتحه للحدود البلغارية أمام سبيل المهجرين المسلمين ، وهو ما نعتته الصحافة التركية بالتهجير الكتلوى أو التهجير الجماعى وبهذا أخذت الحكومة البلغارية بيدها زمام الموقف .

لقد أكدت إذاعة صوفيا يوم ٢٤ / ٦ / ١٩٨٩ أن الحكومة البلغارية مستمرة فى موقفها تجاه المسلمين فى بلغاريا وكذلك تجاه الحكومة التركية . ووصفت إذاعة لندن فى نشرتها الإخبارية يوم الثلاثاء ٦ / ٦ / ١٩٨٩ هذه السياسة البلغارية ضد المسلمين بقولها : « إن (٢٥٠٠) مسلم تركى قد رحلوا من بلغاريا على مدى

الأسبوعين الأخيرين – من إذاعة الخبر – وأن الشرطة البلغارية تواصل مداهمتها للمسلمين الأتراك ليلاً وتجرى معهم تحقيقاً قصيراً وتعطيهم جوازات سفر جديدة وتسرع بترحيلهم إلى تركيا مع أوامر بعدم عودتهم مرة أخرى . وتقول إذاعة لندن فى تعليقها الإخبارى : إن السلطات البلغارية قد صعدت جهودها أخيراً لاستيعاب الأقلية التركية فى الآونة الأخيرة .

إن الحكومة البلغارية ترفض الاعتراف بالمسلمين الأتراك على أنهم أقلية تركية . فحكومة صوفيا تعلن أن هؤلاء المسلمين هم مسلمون بلغار « أجبروا على اعتناق الإسلام فى ظل الحكم العثمانى » .

وقد أوجدت عملية التهجير الجماعى التعسفى أو بمعنى أصح الطرد للحكومة التركية – التى تعانى من ضائقة اقتصادية حادة – وضعاً حرجاً مما دفعها إلى مواجهته بشجاعة وأخوة . فقد أعلنت حكومة تركيا تخصيص مليون دولار لمواجهة تدفق المهجرين وإعادة توطينهم . وكان تورغوت أوزال رئيس وزراء تركيا – وقتها – يعلن أن تركيا تقف بكل ما تستطيع بجانب الإخوة الأتراك المسلمين المطرودين من بلغاريا . لكن الواقع أن الحكومة التركية تواجه « مشكلة اللاجئين » .

إن الحكومة البلغارية نجحت فى التضييق على تركيا ونجحت فى إضعاف موقفها بإحداث هذه الموجه من الطرد الجماعى للمسلمين عبر نوافذ متعددة مختلفة لكى تشتت جهود حكومة تركيا . فالمطرودون من بلغاريا لا يرسلون من الحدود البلغارية التركية فقط ، وإنما عبر منافذ أخرى : عبر بلغراد وأثينا وفيينا .

وإذا علمنا أن عدد المطرودين قد بلغ ٦٠,٠٠٠ مسلم تركى فإن حجم الانتفاضة الإسلامية فى بلغاريا يكون قد وضح فى الأذهان .

أوجز (فاخر أرما أوغلو) بعض الأهداف فى الخطة البلغارية من طرد المسلمين منها فى الآتى :

– الاستيلاء على ممتلكات المسلمين فى بلغاريا .
– إرهاب بقية المسلمين الأتراك الموجودين داخل بلغاريا حتى لا يثوروا مرة أخرى .

فإذا علمنا أن المطرودين من المسلمين قد كشفوا عن ظهورهم أمام الصحفيين الأجانب ورأى هؤلاء آثار الضرب الوحشى وآثار عض الكلاب فيها نستطيع فهم المعاملة غير الإنسانية التى كان يلقاها المسلمون . وقد صرح بعض هؤلاء المطرودون للصحافة العالمية أن السلطات البلغارية قالت لهم : إذ تحدثتم عما حدث لكم من تعذيب فسننتقم من عائلاتكم الباقية فى بلغاريا .

جورباتشوف ولعبة جيفكوف :

يقول أحمد قاباقلى الكاتب التركى البارز فى تعليقه على أحداث بلغاريا : إن جورباتشوف يمسك فى يده خيوط لعبة جيفكوف . لذلك ينبغى أن يُوجَّه إلى جورباتشوف وليس إلى جيفكوف السؤال الآتى : « أهكذا تترجمون البروسترويكا والجلاسنوست إلى اللغة البلغارية بدماء المسلمين الأتراك فى بلغاريا ؟! » .

ويرى أحمد قاباقلى أن حل هذه المشكلة الضخمة يمكن أن يكون كالتالى :

١ - ينبغى على الحكومة البلغارية أن تعيد الأموال والممتلكات التى اغتصبتها من المطرودين .

٢ - عقد معاهدة سلمية مضمونة دوليًّا لحفظ حقوق المسلمين الباقين فى بلغاريا.

وحذر قاباقلى قائلاً : فإذا لم يحدث هذا فإن البلغار سيتبعون نفس الأسلوب ويستمرون فيه ويطردون المسلمين بين آونة وأخرى ويشحنونهم فى عربات السكة الحديد والقطارات ويدفعون بهم إلى تركيا ويُدخلون بينهم جواسيسهم .

نبَّه أورخان كيلرجى أوغلو فى جريدة « تركيا » فى أول يونية ١٩٨٩ م أن سياسة بلغاريا فى إذابة العنصر التركى المسلم فى المجتمع البلغارى الشيوعى والنصرانى ليست وليدة اليوم ، بل حدثت هذه المحاولة عام ١٩٨٤ م عندما كثرت المذابح بين المسلمين هناك . إلا أن حوادث مايو ١٩٨٩ تتسم بالعنف الوحشى نظراً لمقاومة المسلمين فى بلغاريا لدبابات الجيش البلغارى التى حاصرتهم واعتدت عليهم فى قراهم وفى مدنهم .

ولقد رد رئيس الوزراء التركى - وقتها - تورغوت أوزال أثناء حضوره مؤتمر الأمن الأوروبى على جيفكوف وأعماله المنافية للإنسانية بقوله : إن تركيا مستعدة لعقد اتفاقية هجرة شاملة بين بلغاريا وتركيا تنظم فيها أمور هجرة المسلمين من بلغاريا إلى تركيا وقال أوزال : إنه يشترط فى مثل هذه الاتفاقية ألا تهدر حقوق الأقلية التركية المسلمة فى بلغاريا التى يبلغ تعدادها ٥, ٢ مليون نسمة (مليونان ونصف المليون نسمة) . وقال أوزال أيضاً : ترسل الحكومة البلغارية إخواننا المسلمين الأتراك من بلغاريا إلينا وفى حوزة كل منهم حقيبة واحدة . فماذا جرى لأموال وممتلكات وعقارات هؤلاء ؟! إننى أدعو المسؤولين البلغاريين إلى الاجتماع للتفاوض بشأن اتفاقية هجرة كاملة (أضواء الأنباء التركية) فى ١ / ٦ / ١٩٨٩) .

إن مسعود يلماظ وزير الخارجية التركية - وقتها - يقول : لقد أدان العالم كله بلغاريا ، حتى دول الكتلة الشرقية رفضت تأييد بلغاريا فى سحقها للأتراك المسلمين فيها .

[٢]

الغرب يدافع عن مسلمي اليونان !!

الوجود الإسلامى مستمر فى إقليم تراقيا الغربية فى اليونان منذ أكثر من خمسة قرون ، وأكثر المسلمين لا يعلمون .

والمسلمون فى إقليم تراقيا أصلهم أتراك يتمسكون بإسلامهم وبعباداتهم ، ويتحلون بالأخلاق الإسلامية ، ويحاولون الحفاظ على هويتهم مع تمسكهم بالمواطنة اليونانية .

وتحرم الحكومة اليونانية هؤلاء المسلمين من تقلد الوظائف العامة ومن الرتب العسكرية وتدفعهم لبيع أراضيهم .

ولمسلمى تراقيا ممثلان فى البرلمان هما : الدكتور صادق أحمد وأحمد فائق . وقد قدم هذان النائبان رسالة لرئيس الوزراء يحتجان فيها على تعيين المفتى ، وقالا : إن محافظاً لا يملك صلاحية تعيين عامل أو بواب فى كنيسة لا يحق له – بالضرورة – تعيين الزعيم الدينى للأقلية التركية المسلمة فى البلاد .

الغرب يتنبَّه :

ولم تستجب الحكومة اليونانية لرغبات المسلمين . عتمت إعلاميًّا على حملات الضغط ضد مسلمى اليونان ، إلا أن أوروبا وأمريكا تنبهتا إلى أن اليونان تضطهد المسلمين فيها . وكان السبب فى هذا التنبه الأوروبى لمشاكل مسلمى اليونان هو تقرير صدر عن وزارة الخارجية الأمريكية يكشف هذه الانتهاكات ويقول : إن الأقلية تعانى من التمييز العنصرى . وضرب تقرير وزارة الخارجية الأمريكية أمثلة لذلك الاضطهاد حيث قال : إن مسلمى تراقيا تعرضوا خلال شهر يونيو ١٩٩٠ لحملة واسعة من الاعتداءات على متاجرهم وحقوقهم وممتلكاتهم . كما أشار التقرير إلى أن

قانون الانتخابات الجديد كان ضد الديمقراطية وجعل من المتعذر انتخاب النواب من الأقلية المسلمة فى البلاد ، إلا إذا دعمتهم الأحزاب اليونانية الكبرى . وقال التقرير : إن أثينا تشعر بالهاجس من زيادة معدل ارتفاع عدد السكان المسلمين .

محاصرة النواب المسلمين :

وعن سوء معاملة الحكومة اليونانية للنائب البرلمانى المسلم الدكتور صادق أحمد فى أثناء دعايته الانتخابية قال التقرير : إن اعتقال الدكتور صادق واتهامه بإثارة الشغب كان باعثاً على سخط واستياء واسع من قِبَل منظمة العفو الدولية ، كما أن الاتهامات وُجِّهت لدوافع سياسية ، وأن محاكمته فى محكمة « كوموتينى » كانت مخالفة لروح القضاء الدولية .

وكشف تقرير الخارجية الأمريكية موقف الحكومة من القهر الذى مارسته الحكومة اليونانية فى فرض المفتى على المسلمين وتعيينه من قِبَلها .

كما يقول التقرير الأمريكى : إن السلطات اليونانية تفرض قيوداً على المسلمين تعرقل قيامهم بأعمال صيانة وترميم أماكن العبادة والمبانى الدينية . ويحتج التقرير على أن الحكومة اليونانية جرَّدت ١٨٨ مسلماً من مواطنى تراقيا من الجنسية اليونانية . وأشار التقرير إلى أحداث عنف وقعت فى مدينة كوموتينى فى تراقيا الغربية يوم ٢٩ يناير ١٩٩١ دمَّر فيها المتطرفون النصارى متاجر المسلمين ، ووصف هذه الأحداث بأنها مدعاة إلى الالتفات الدولى لنمط من التمييز العنصرى الاقتصادى والاجتماعى . كما أن مصادرة عقارات المسلمين تجرى على نطاق واسع حيث يتم تحويلها إلى المشاريع الحكومية .

وقال التقرير : إن سياسة الحكومة اليونانية أخذت فى الأعوام الأخيرة تنطوى على هاجس ناشىء من أن المسلمين يزدادون من حيث معدل النمو الكانى . ونتيجة لهذا الهاجس فإنهم أصبحوا محرومين من حق ابتياع العقارات والأراضى فى إقليم تراقيا الغربية ، ومن الحصول على القروض الزراعية المتاحة من البنوك وقصرها على المسيحيين فقط .

ولجنة هلسنكى أيضاً :

ولم تكن الخارجية الأمريكية فقط هى المنصف الوحيد للأقاليم التركية المسلمة فى اليونان ، وإنما جاء تقرير لجنة هلسنكى لمتابعة حقوق الإنسان ليقف بجوار هؤلاء المسلمين المظلومين .

ويبدأ تقرير لجنة هلسنكى حديثه عن محنة الأتراك المسلمين فى اليونان بقوله : « هناك حوالى ١٢٩ ألف تركى يعيشون فى تراقيا الغربية الكائنة بالقسم الجنوبى الشرقى ، وتتعمد الحكومة تسميتهم باسم « المسلمين اليونانيين » وتتنكر بكل بساطة لكيان هذه الأقلية . ويبدو أن سياسة الحكومة اليونانية حيال الأقلية التركية سياسة مقصودة للفصل العنصرى ، تهدف إلى تذويب هؤلاء فى المجتمع اليونانى » .

وانتقد التقرير الدولى سياسات الحكومة اليونانية بقوله : « تأتى أعمال الحكومة ضمن وسائل تتدرج ما بين الإسقاط من الجنسية اليونانية والحرمان من المواطنة اليونانية وتشجيع هجرتهم إلى تركيا ، وأن هذه السياسة بدأت عام ١٩٨٥ م واستمرَّت لتسهيل الهجرة أمام الراغبين من مسلمى تراقيا الغربية » .

وبعد أن وقف تقرير وزارة الخارجية الأمريكية ولجنة متابعة حقوق الإنسان بهلسنكى مع مسلمى تراقيا الغربية وكشفا مأساتهم للعالم يبقى على المسلمين أنفسهم عمل أى شىء تجاه هذه الأقلية الإسلامية ، وأضعف شىء فى هذا الصدد أن يعرفوا من هم ؟ وما هى مأساتهم ؟

[٣]

مسلمو اليونان يتعرضون للإذابة وفقدان الهوية

يبلغ عدد المسلمين فى اليونان ١٦٠,٠٠٠ نسمة ، ويتجمعون هناك فى منطقة بالقرب من الحدود التركية تُسمى تراقيا الغربية . وهم أتراك يعيشون فى ثلاث محافظات هى : ١ - أيسكجه ٢ - رودوب ٣ - كوم إيلجينه .

وقد عرفت اليونان الإسلام مع الفتوحات العثمانية فى أوروبا . وفى عهد السلطان مراد والد السلطان محمد الفاتح رأت الحكومة العثمانية ضرورة تعمير منطقة تراقيا الغربية فنقلت إليها مجموعات بشرية ضخمة من الأتراك المسلمين من منطقة الأناضول التركية وخاصة إقليم قونيه . وعمَّر الأتراك بالإسلام منطقة تراقيا الغربية كما عمروها بالمدنية الإسلامية واستوطنوا المكان ، وهم سكان تراقيا الغربية اليوم .

عُمر الإسلام فى تراقيا الغربية واليونان ستة قرون ميلادية . لكن الدولة العثمانية - حامية الإسلام فى هذه الديار - قد سقطت وقامت بديلاً عنها دولة تركيا الحديثة .

ووقَّعت تركيا فى ٢٤ يوليو ١٩٢٤ م معاهدة دولية مع انجلترا وفرنسا واليونان واليابان سُمِّيت بمعاهدة « لوزان » تقرر فيها تصفية المشاكل القائمة بين كل من اليونان وتركيا تحقيقاً لمبدأ أتاتورك « سلام فى الداخل .. سلام فى الخارج » . وبهذه المعاهدة ضُمَّت تراقيا الغربية أرضاً وأتراكاً إلى دولة اليونان ، وبالتالى حمل أتراكها - وهم مسلمون - الرعوية اليونانية ، أى أصبحوا رعايا لدولة اليونان وهى دولة نصرانية .

تنص المعاهدة فى موادها بدءاً بالمادة (٣٧) وانتهاء بالمادة (٤٥) على أن الأقلية المسلمة فى اليونان أفراد الدولة اليونانية . كما تنص هذه المواد على أنه ليس من حق دولة اليونان أن تصدر قوانين أو قرارات من شأنها أن تنقص شيئاً من حقوق الأقلية التركية المسلمة فى اليونان ، وأن على دولة اليونان أن تفتح للأتراك المسلمين مدارس وأن تقيم لهم مساجد ومؤسسات خيرية .

ضمنت دولة اليونان فى المادة (٣٨) من معاهدة « لوزان » حياة وحرية السكان الأتراك المسلمين فيها بشكل تام دون النظر إلى دينهم وقوميتهم . ونصت المعاهدة فى مادتها هذه أيضاً على أن يكون لكل شخص الحق فى أداء واجبات دينه وعقيدته ومذهبه علناً . وقالت هذه المعاهدة فى مادتها التالية أى المادة (٣٩) : إن الرعايا الأتراك المسلمين فى اليونان لهم حق الاستفادة من كافة الحقوق المدنية والسياسية التى للمواطنين اليونانيين والجميع - الأتراك المسلمين والنصارى من اليونانيين (الأروام) - سواسية أمام القانون اليونانى بغض النظر عن أديانهم .

وفى المادة (٣٩) من معاهدة « لوزان » جملة تقول : إن الاختلاف فى الدين أو المذهب لا يجوز أن يمنح حق العمل أو أى حقوق سياسية لليونانيين دون الأتراك المسلمين .

وفى المادة (٤٢) من معاهدة لوزان - وهى دولية - تعهدت الدولة اليونانية بضمان المحافظة على جوامع ومساجد الأتراك المسلمين ومدافنهم ومؤسساتهم الدينية وأوقافهم الموجودة فى اليونان ، وكذلك تعهدت بتقديم المساعدات للمؤسسات الإسلامية مثلما تساعد المؤسسات اليونانية .

تعهدت الدولة اليونانية بكل ذلك فى معاهدة لوزان الدولية أمام جميع دول العالم وأمام عصبة الأمم - ولكن .. بعد المعاهدة أخذت الدولة اليونانية فى الغدر بالأتراك المسلمين فى اليونان أى فى تراقيا الغربية .

غدر اليونان بالأقلية المسلمة :

غدرت الدولة اليونانية بأتراك تراقيا الغربية بسكون وهدوء ، ووضعت الدولة اليونانية برنامجها تجاه ١٦٠,٠٠٠ تركى مسلم هم مجموع سكان المنطقة المسلمة . وكان الهدف اليونانى : إجبار الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية على الهجرة من اليونان وترك أراضيهم وممتلكاتهم ، أو دمجهم فى الشعب اليونانى النصرانى وتفريغ أرض تراقيا الغربية من الإسلام ومن الأتراك المسلمين أصحاب تراقيا الغربية . وذلك مثلما كان يحدث فى بلغاريا ، بفارق هو أن الحكومة البلغارية صريحة فى العداء للإسلام جريئة فى

الجهر بمعاداته ، أما اليونان فتهدف إلى الهدف نفسه ولكن بالنفس الطويل وعن طريق قوانين تخرج بين الحين والحين .

إن إلقاء نظرة على الآتى ليبين سياسة النفس الطويل التى تعمد إليها اليونان لإبادة الإسلام وتشريد المسلمين فيها :

● لا تعين الحكومة اليونانية مواطنيها من الأتراك المسلمين فى الدوائر الرسمية . ونورد هنا كلمة الضابط اليونانى زوخوس الفتيريوس للأتراك المسلمين فى اليونان قال فيها : « إننا سنمنح حق الحياة لليونانيين النصارى فى هذه الأرض ، وإذا أردتم أن تكونوا مواطنين محترمين فإننا نريد أن نرى الصليب معلقاً فى أعناقكم » .

تشريد المسلمين :

● تقوم الحكومة اليونانية بإلغاء جواز السفر اليونانى الذى يحمله الأتراك المسلمون من مواطنى اليونان - سكان تراقيا الغربية - إذا طالت مدة إقامة أحد من أتراك تراقيا الغربية خارج اليونان ولأى سبب كان . وقد سنت الحكومة اليونانية قانوناً خاصًّا بذلك هو القانون (٣٢٧٠) فى ٢٠ / ٩ / ١٩٥٥ م وبمقتضاه أخرج آلاف من المسلمين من سكان تراقيا الغربية من التبعية اليونانية ، ويعيشون الآن دون هوية فى دول مختلفة « دون وطن » على حد قول خالد أرن . وقد يعود بعض الأشخاص الذين أسقطت عنهم الجنسية اليونانية إلى بلدهم اليونان - تراقيا الغربية - فيعيشون فيها بلا جنسية ولا حقوق سياسية أو مدنية مثل الشيخ صالح عبد الرحمن وهو من أتراك تراقيا الغربية ومقيم حالياً فى قرية قراكوى ، والشيخ على قراكوز إمام مسجد قرية بويوك سركه لى .

● كانت أوقاف المسلمين فى تراقيا الغربية باليونان تُدار حسب نصوص معاهدة « لوزان » بما يتفق مع عادات المسلمين وتقاليدهم الإسلامية . لكن الحكومة اليونانية الآن وبمقتضى قانون إدارة أوقاف وأملاك الأقلية المسلمة فى تراقيا الغربية المصدق عليه من البرلمان اليونانى فى ١٦ نوفمبر عام ١٩٨٠ م نزعت إدارة أوقاف المسلمين من المسلمين وأحيلت إلى النصارى اليونانيين !!

ومن مساوىء قانون ١٦ نوفمبر هذا أن باعت الإدارة اليونانية كثيراً من أوقاف المسلمين – خاصة فى رودوب – إلى النصارى !!

● تقوم الحكومة اليونانية باستخدام المساجد فى أغراض تتنافى مع رسالة المسجد . وعلى سبيل المثال : حولت الحكومة اليونانية مسجد (عمارت جامعى) إلى مصنع للثلج واستخدمت جزءاً منه متحفاً . مع أن هذا المسجد له مكانة تاريخية فى نفوس الأتراك المسلمين هناك ، إذ أن الذى بنى هذا المسجد هو (أورنوس بك) الفاتح العثمانى لمدينة قوموتينى .

● هدمت الحكومة اليونانية بعض مساجد المسلمين مثال ذلك مسجد (سلويلى جامع) .

● نزعت الحكومة اليونانية أوقافاً إسلامية تخص الإتراك المسلمين سكان تراقيا الغربية وأهدتها إلى الكنائس . مثال ذلك نزع الحكومة اليونانية أوقاف المسلمين فى قرية فالانجه (باليوفالستى) وهى أوقاف تابعة لمسجد القرية وأعطتها إلى كنيسة القرية المجاورة . ولقد رفع الأتراك المسلمون قضية بهذا الشأن من عدة سنوات ولم يصدر حكم برد هذه الأوقاف إلى أصحابها المسلمين .

● حرمان المسلمين من إنشاء المساجد أو المدارس الإسلامية الجديدة أو ترميم القديم منها . وفى حالة طلب من الأتراك المسلمين يقدم إلى الحكومة اليونانية لإجراء تعمير أو ترميم بمساجدهم على حسابهم الخاص أو إنشاء مساجد جديدة ، فإن طلبهم هذا يُحال إلى جهة نصرانية وهى الأسقفية الأرثوذكسية فى أثينا (عاصمة اليونان) لتوافق عليه . وفى هذه الأسقفية طلبات الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية بإنشاء وترميم مساجد ومدارس لهم ، مثال ذلك طلب مسجد صمدلى (سيموولا) وطلب مئذنة مسجد قراجا أوغلان .

● هدمت الحكومة اليونانية مسجد (طبق خانه) فى أيسكجه وتعمدت أن يكون الهدم يوم جمعة .

تدمير المسلمين اجتماعياً واقتصاديًا :

● سنَّت الحكومة اليونانية قوانين لحرمان الأتراك المسلمين فى اليونان من حق إنشاء

دور سكنية لهم ، كما تحرم عليهم تعمير وترميم مبانيهم . فماذا يفعل المسلم إذا انهدم بيته القديم ؟!

● تعرقل الدوائر الحكومية اليونانية استخراج تصاريح قيادة السيارات والجرارات للمسلمين ولا تمنح هذه التصاريح إلا بصعوبة بالغة .

● ألغت الحكومة اليونانية حق التركى المسلم فى بيع أملاكه إلى مسلم آخر . ونصت على أن المسلم إذا أراد أن يبيع أملاكاً يمتلكها فلا بد أن يكون هذا البيع إلى يونانى نصرانى . فماذا يعنى هذا ؟ معناه (بع أيها التركى المسلم أرضك ومسكنك ثم هاجر من اليونان وابتعد أو اسكن فى خيمة بعيداً إن شئت) والقول لحسن باتسامان .

والبنوك اليونانية مستعدة لإقراض النصارى فوراً لشراء عقارات وممتلكات المسلمين .

● وزعت الحكومة اليونانية قسماً كبيراً من أراضى المسلمين على المواطنين النصارى اليونانيين ، كما استولت الحكومة اليونانية بطريق التأميم والمصادرة على الأراضى التى يمتلكها الأتراك المسلمون . والزراعة هى العمل الرئيسى للأقلية المسلمة فى اليونان ، ومثال ذلك : تأميم أراضى الأتراك المسلمين فى قرينة أنهاتلى (أولالون) فى محافظة أيسكجه وهى ٣٠٠٠ دونم . كما نزعت الحكومة اليونانية ملكية ثمان قرى تركية مسلمة فى قضاء شايجى فى كوم أيلجنه مقدارها ٨٠٠٠ دونم ، وهذه الأرض هى مصدر الرزق الوحيد لمسلمى هذه القرى . والغريب فى الأمر أن نزعها اقترن بحجة حاجة الحكومة إلى إنشاء سجن مكشوف فى هذه المنطقة !!

وكانت الأراضى الزراعية التى فى أيدى الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية (فى اليونان) فى عام ١٩٢٠ م ٨٥ ٪ من مجموع أراضى المنطقة ، ووصلت بفعل إجراءات الحكومة اليونانية إلى ٣٥ ٪ فقط الآن (عام ١٩٩٣ م) .

● فرضت الحكومة اليونانية غرامات مالية كبيرة على بعض الصحفيين والمحامين ومدرسى القرآن الكريم وأصحاب المحلات التجارية والحرفية البسيطة من الأتراك المسلمين حتى يهجروا أعمالهم .

• تفرق الحكومة اليونانية فى العمل بين العامل التركى المسلم والعامل اليونانى النصرانى ، فالثانى هو المفضل والأول - أى التركى المسلم - محتقر فى دوائر العمل لأنه مسلم .

منع ثقافة الإسلام والتربية الإسلامية :

• أوقفت الحكومة اليونانية توزيع الكتب التركية الإسلامية على المدارس الإسلامية برغم اعترافها بحق الأتراك المسلمين فى التعليم بلغتهم التركية حسب مواد معاهدة لوزان .

• منعت الحكومة اليونانية تعيين المتخرجين من الجامعات الإسلامية فى العالم الإسلامي ومدارس المعلمين فى تركيا مدرسين فى المدارس الإسلامية فى تراقيا الغربية إلا نادراً .

• أنقصت وزارة التعليم اليونانية ساعات دروس الدين الإسلامى ودروس اللغة التركية فى مدارس المسلمين فى تراقيا الغربية .

• أمرت وزارة التعليم اليونانية بأن يؤدى الطلاب المسلمون فى تراقيا الغربية امتحاناتهم باللغة اليونانية برغم مخالفة هذا لنصوص معاهدة لوزان .

• ترفض الحكومة اليونانية أن تستخدم الأقلية المسلمة فى تراقيا الغربية كلمة (تركى) . وفى هذا معنى آخر هو أن الحكومة اليونانية تريد أن تنسى هذه الأقلية المسلمة ارتباطها الدينى والعرق بتركيا . وتركيا هى الدولة المسلمة الوحيدة التى تتقدم دوماً للدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة فى اليونان ذلك لأن أفراد هذه الأقلية أتراك . وتقف تركيا الدولة وتركيا بشعبها المسلم دائماً فى يقظة لحماية حق الأقلية المسلمة التى تنحدر من أصل تركى فى اليونان بموجب معاهدة لوزان ، كما تقف تركيا الدولة والشعب للدفاع عن المسلمين الأتراك فى كل منطقة البلقان . وموقف تركيا واضح ومعروف فى بلغاريا . وموقف الحكومة التركية فى قبرص معروف أيضاً ، وقد عبر عنه الدكتور على الكتانى بقوله : « لولا تدخل الجيش التركى فى جزيرة قبرص لاندثر المسلمون منها مثلما اندثروا من المجر وتشيكوسلوفاكيا فى العصر الحاضر ، ومثلما أندثر المسلمون من الأندلس قديماً » .

مسلمو تراقيا الغربية والضمير العالمي :

يلجأ الأتراك المسلمون فى تراقيا الغربية باليونان إلى كل الطرق القانونية والإنسانية لإيقاظ الضمير الإنسانى العالمى على معاناتهم . من ذلك تقديم مذكرات بمسألتهم إلى رؤساء الوزارات اليونانية ، ومذكرة مسلمى تراقيا الغربية فى ٢ / ٤ / ١٩٨١ م إلى سفراء الدول الموقعة على معاهدة لوزان الذين يمثلون دولهم فى أثينا ، ومذكرة مسلمى تراقيا الغربية المشهورة إلى سفراء الدول الإسلامية العربية وغير العربية فى أثينا ، سفراء كل من : المملكة العربية السعودية والعراق وإيران وسوريا والكويت وليبيا والجزائر والباكستان والسودان والأردن ومصر .

وكذلك البرقية التى أرسلها محمد ياشار أوغلو – أحد البارزين المسلمين فى اليونان – إلى الرئيس اليونانى باباندريو ، فى يوم ١٥ / ٣ / ١٩٨٤ م وهى مذكرة حول أوضاع المسلمين المتردية فى اليونان ، وحول الغرامات المالية المفروضة على المسلمين دون وجه حق .

ومن ذلك أيضاً مساعى اتحاد العمال الأتراك المسلمين فى أوروبا لدى البرلمان الأوروبى .

ويؤكد الدكتور صادق أحمد زعيم الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية فى حديث صحفى له أدلى به إلى مجلة تراقيا الغربية الجديدة فى عددها الصادر فى يونيه ١٩٨٩ م أن الأقلية الإسلامية فى تراقيا الغربية تعمل بكل الطرق السلمية للحفاظ على هوية أفرادها الإسلامية وارتباطهم بالإسلام والمحافظة على وضعهم الإنسانى بكل الطرق السلمية والمشروعة ، لأن حقوق الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية حقوق ديمقراطية بموجب تعهدات من الدولة اليونانية رسميًا .

ويقول الدكتور صادق أحمد : إن المجتمع المسلم فى تراقيا الغربية يفكر فى مراجعة كل الجهات الرسمية اليونانية فى أثينا وفى تنظيم المؤتمرات الصحفية لتحضرها الصحافة العالمية عامة والصحافة الإسلامية خاصة بهدف الكشف عن معاناة الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية ، وكذلك فى إرسال وفد من مسلمى اليونان إلى أوروبا للتحدث عن مشاكل الأقلية المسلمة فيها ، كما سيتولى هو نفسه شرح ظروف مجتمعه التركى المسلم

فى البرلمان اليونانى بوصفه عضواً برلمانيًا انتخبه الأتراك المسلمون هناك نائباً مستقلاً .

المساندة الإسلامية :

تقدم بعض الدول الإسلامية عوناً لمسلمى تراقيا الغربية يتمثل فى تقديم منح دراسية لأبناء المجتمع التركى المسلم هناك ، مثل : السعودية ومصر . ولقد بدأت الدول الإسلامية الأخرى مؤخراً وببطء فى الاهتمام بمسلمى اليونان ، وتحاول هذه الدول الإسلامية عمل شىء نافع لرفع الظلم الواقع على مسلمى تراقيا الغربية ومحاولة البحث عن حل لرفع المعاناة عنهم حتى لا يذوبوا فى المجتمع اليونانى النصرانى . وحتى لا يُهجَّروا بأساليب ملتوية فيُجبرون على ترك وطنهم .

الإشادة بالدور السعودى :

لقد عبرت صحافة الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية - أقصد صحافتهم فى المهجر - عن فرحة المسلمين البالغة فى اليونان عندما تبنَّت المملكة العربية السعودية قضية الأقلية المسلمة فى تراقيا الغربية . وقد نقلت « مجلة تراقيا الغربية الجديدة » عن مجلة « بونديكى » اليونانية الأسبوعية التى تصدر فى أثينا أن الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع السعودى فى زيارته الأخيرة لليونان قد بحث وضع مسلمى اليونان مع المسؤولين اليونانيين ، وأن الأمير سلطان أقام مأدبة تكريماً لوزير الدفاع اليونانى يانيس هارالامبوس ، وكان من بين ضيوف الأمير السعودى على هذه المأدبة أبناء الشيخ مصطفى حلمى مفتى أيسكجه ومحمد أغا وحسين أغا وهما من زعماء الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية .

كما ذكرت المجلة التركية نقلاً عن مجلة « بونديكى » اليونانية أيضاً أن الحكومة الباكستانية أصدرت أمرها إلى سفير الباكستان فى أثينا بالتوجه إلى وزارة الخارجية اليونانية لتقديم مذكرة احتجاج شديدة اللهجة إلى المحكمة اليونانية بسبب (المظالم اليونانية ضد الأتراك المسلمين أصحاب منطقة تراقيا الغربية فى اليونان) . وأنكرت الخارجية اليونانية أن هناك مظالم يونانية واقعة على الأقلية التركية المسلمة فى تراقيا الغربية ، وطلبت من سفير الباكستان فى أثينا التأكد من معلوماته .

ثم عاد بعد عدة أيام السفير الباكستانى فى أثينا إلى وزارة الخارجية اليونانية ليؤكد أن معلومات بلاده صحيحة فيما يتعلق بالمظالم التى يتعرض لها مسلمو تراقيا الغربية ، وأنه شاهد بنفسه مظاهر هذه المظالم الشديدة ، وأنه – أى السفير – يحتج على الحكومة اليونانية مرة أخرى باسم حكومة الباكستان .

لماذ تنصير المسلمين ؟

فى مقال للكاتب التركى (لطيف مرد) فى جريدة « مِلِّى غزته » التى تصدر فى استانبول بعنوان (الحكومة اليونانية وتنصير أتراك تراقيا الغربية) يقول : « إن الحكومة اليونانية تقوم – وبخاصة فى عهد باباندريو – بمحاولة للقضاء على هوية الأتراك المسلمين بتنصيرهم » . ويقول لطيف مرد : « إن التركى المسلم فى اليونان يعامل معاملة المواطن المنبوذ برغم تعهد الحكومة اليونانية فى معاهدة لوزان بمعاملة الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية معاملة تتعادل مع معاملتها لليونانيين النصارى ، وأن الحكومة اليونانية تقوم بعمل الدعاية للنصرانية بين مسلمى تراقيا الغربية ، وتعد المسلمين الذين يتنصرون « بالمال الوافر » و « إيجاد عمل » و « الحياة المرفهة » ، وذلك فى نشرات التنصير التى تُوزَّع على المسلمين بشتى الوسائل . إن الحكومة اليونانية تستغل ظلمها للمسلمين هناك وحرمانهم من العمل ومن المعاملة غير الكريمة لكى تنشر النصرانية بينهم » .

ويقدم هذا الصحفى المسلم نص المادة (٤٢) من معاهدة لوزان الخاصة باحترام الدين الإسلامى وهى : « تتعهد الحكومة اليونانية بأنها لن تتبع أى طريق من شأنه إفساد العبادات الدينية أو عمل شىء ضد المعتقدات الدينية للأقليات فى اليونان » .

ويستطرد قائلاً : « إن الحكومة ترسل إلى منطقة تراقيا الغربية منصرين هم من الموظفين الرسميين لديها لعمل الدعاية الخاصة بالنصرانية بين المسلمين » .

إن هؤلاء المنصرون يدورون على منازل المسلمين منزلاً منزلاً فى تراقيا الغربية ويحدثونهم بصراحة أن من يعتنق النصرانية منهم ستزول عنه معاملة مواطنى الدرجة الثانية وبالتالى سيتمتع بكل الحقوق التى يتمتع بها النصرانى اليونانى (جريدة ملى غازته فى ٢١ / ٦ / ١٩٨٧) .

شهود يَهْوَه :

والحكومة اليونانية تسمح لشهود يهوه أن يمارسوا نشاطهم فى الدعاية لمعتقدهم بين الأتراك المسلمين فى تراقيا الغربية باليونان . ويقوم أتباع شهود يهوه بممارسة نشاطهم فى هذه المنطقة المسلمة ، ويوزِّعون منشوراتهم عن طريق البريد . كما يمارسون هذا النشاط بالمقابلات الشخصية وتوزيع منشوراتهم أثناء ذلك .

والغريب أن الحكومة اليونانية تحرص على تيسير عمل شهود يهوه بين مسلمى تراقيا الغربية وتسمح لهم بذلك وفى الوقت نفسه تمنع هذه الحكومة نشاط شهود يهوه وممارستهم للدعاية لمعتقدهم بين اليونانيين النصارى .

الفصـل الثانى

البوسـنة والهرســـك

١ - مأساة أول امرأة ترتدى الحجاب فى يوغسلافيا .

٢ - تاريخ البوسنة والهرسك فى كتاب جديد .

[١]

مأساة أول امرأة ترتدى الحجاب فى يوغسلافيا

- **د . مليكة .. اعتقلها الشيوعيون وأذاقوها العذاب النفسى والجسدى !**
- **تركيا هاجر إليها المسلمون اليوغسلاف هرباً من الاضطهاد !**

فى جزيرة بريونى اليوغسلافية عُقد اجتماع بين الوفد المصرى برئاسة الرئيس جمال عبد الناصر والوفد اليوغسلافى برئاسة المارشال جوزيف بروس تيتو . وأثناء الاجتماع وقف تيتو ووفده وقفة حداد مفاجئة فاضطر الوفد المصرى إلى الوقوف . وبعد حين سأل عبد الناصر : ماذا حدث ؟ فأجابه تيتو قائلاً : لقد أُذيع الآن أن الشيوعى المصرى شهدى عطية الشافعى قد مات توًا نتيجة التعذيب فى السجون المصرية ضمن حملة التعذيب الموجهة ضد الشيوعيين المصريين . فاعتذر عبد الناصر بأنه لا يعلم بهذا . وأصدر أمره بإيقاف تعذيب الشيوعيين فى سجون مصر .

ولم يخطر على بال الرئيس جمال عبد الناصر ولا على بال أحد من أعضاء الوفد المصرى المصاحب له فى مباحثات بريونى أن يسأل الرئيس اليوغسلافى تيتو عن الوحشية التى يمارسها النظام الشيوعى اليوغسلافى ضد المثقفين المسلمين فى سجون يوغسلافيا ، ولا عن الشهداء الذين قتلهم زبانية تيتو منهم .

والمسلمون فى يوغسلافيا السابقة هم أكبر جماعة إسلامية فى أوروبا على الإطلاق . ويكوّن المسلمون ٤٥ ٪ من مجموع السكان فى البوسنة والهرسك . وتُعدُّ مدينة سراييفو عاصمة الإسلام فى يوغسلافيا ، بل فى كل أوروبا الشرقية ، وهى مجمع ومركز مجلس العلماء المسلمين فى يوغسلافيا ، ومقر جامعة إسلامية هامة ، وبها حوالى (٩٠) مسجداً . ويكوّن المسلمون الألبان أكثر من ٩٠ ٪ من سكان قوصوة فى يوغسلافيا . والمسلمون فى يوغسلافيا عام ١٩٨٠ حوالى ٤,٥ مليون نسمة (أربعة ملايين ونصف مليون مسلم) .

تكوَّنت يوغسلافيا - قبل انهيارها - من الناحية الإدراية من ست جمهوريات فيدرالية (أو الولايات) هى : البوسنة والهرسك - خرواتيا (أو كرواتيا) - الجبل الاسود - الصرب - سلوفينيا - مقدونيا . والدولة كانت شيوعية تُدار بالنظام الماركسى ، وعاصمتها بلجراد . ولم يظهر اسم يوغسلافيا (ومعناها فى اللغة الصربية بلاد السلاف) إلا فى ٦ / ١ / ١٩٢٩ م .

كيف دخلها الإسلام ؟

عرفت البلاد الإسلام بعد انتصار العثمانيين على التحالف الصليبى الأوروبى عام ١٣٦٤ م . وظل العثمانيون يديرون يوغسلافيا على أسس إسلامية راعوا فيها الشرع والعدل ، وتدافع الناس فى ظلهم إلى الإسلام . واستمرت هذه البلاد تتمتع بالحكم الإسلامى حتى جاءت الثورة الفرنسية بمفهومها القومى العلمانى فأثرت تأثيراً كبيراً خاصة فى النشء ذلك لأن الدولة العثمانية أثناء حكمها للبلقان كانت تنفيذ سياستها فى ترك الحرية للكنائس والمدارس التابعة للكنائس ولم تكن الدولة العثمانية تتدخل فى أمورها . فتحولت الكنائس ومدارسها إلى مراكز لنشر الفكر القومى ومن هنا نشأت الثورات القومية فى البلقان .

وما أن جاء القرن العشرين الميلادى إلا وقد بدأت فى خرواتيا الحركة القومية لتوحيد السلافيين . وما أن جاء عام ١٩١٢ حتى وصلت الدولة العثمانية إلى أحرج لحظات تاريخها . ففيها أعلن كل من الصرب وبلغاريا واليونان والجبل الأسود الحرب على العثمانيين ، وبذلك انتهى حكم الدولة العثمانية فى هذه البلاد والذى دام أكثر من (٥٠٠) عام . وعندما حل عام ١٩٢٩ م أُعلن قيام دولة يوغسلافيا بشكلها المعروف الآن .

كان عدد الشيوعيين فى يوغسلافيا قليلاً جدًّا عندما قامت الحرب العالمية الثانية . ولم يكن أحد قد سمع اسم تيتو إلا عندما شارفت الحرب على الانتهاء . وكان من حظه أن الجيوش الروسية فى أوروبا قد نشرت الإحساس بأن الروس هم الذين أنقذوا بلجراد . وعملت روسيا وهى منتصرة على أن يتولى الشيوعيون - وهم قلة قليلة - الحكم فى بلجراد . وبذل ستالين كل ما فى وسعه لكى يتولى تيتو الحكم .

اضطهاد المسلمين :

واتخذ الحزب الشيوعى اليوغسلافى منذ استيلائه على الحكم سياسة اضطهاد المسلمين . وبدأت السياسة الشيوعية تجاه المسلمين بمنع الكتب الإسلامية من مدارس المسلمين فى يوغسلافيا ، وهذه الكتب كانت ترد من تركيا . وعلل أحد زعماء الشيوعيين هناك وهو « مالينسكايا » هذا التصرف بالآتى : « إن الرأسماليين ينشرون الدعاية للرأسمالية حتى فى كتب الحساب والرياضيات » .

واتخذ الحزب الشيوعى برئاسة تيتو ومن بعده عدة قرارات ضد المسلمين منها : إغلاق المساجد والجوامع والزوايا . وعندما حدث زلزال فى أسكوب عام ١٩٦٦ م تهدمت بعض المساجد فلم تسمح السلطات الشيوعية بترميمها ، ومنعت الدولة اليوغسلافية العطلات أيام الأعياد الإسلامية ، وبدأ الحزب الشيوعى اليوغسلافى سياسية سلفنة المسلمين ، أى القضاء على الشخصية الإسلامية وتحويل المسلمين إلى سلافيين بالقوة ، كما كانت تعمل بلغاريا على بلغرة الأتراك المسلمين فيها .

اضطر المسلمون فى يوغسلافيا إلى عمل تنظيمات سرية للحفاظ على شخصيتهم من الذوبان ، ومن ذلك حركة (بوجال) ، لكن المخابرات اليوغسلافية اكتشفت هذا التنظيم فى أغسطس ١٩٤٧ م وقُبض على زعمائها وأعدم من رجال هذه الحركة من أُعدم ، وحُبس بالأشغال الشاقة المؤبدة من حبس ، وسيق إلى معسكرات العمل الشاق من سيق . وأخذ الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى سياسة تهجير المسلمين للتخلص منهم بعد أن كانوا هم يهاجرون .

تقول دائرة المعارف اليوغسلافية : « قد حدثت هجرة إسلامية من يوغسلافيا إلى تركيا لأسباب دينية وسياسية ، خاصة من منطقة البوسنة والهرسك وسنجق وقوصووه . وقد بلغ عدد المهاجرين (بدينهم) حتى عام ١٩٤٠ م (٢٥٠,٠٠٠) نسمة » .

ثم اتجه الحزب الشيوعى اليوغسلافى لتهجير المسلمين من البلاد ليستولى على ممتلكاتهم ويصادرها لحساب الدولة ، فترك هؤلاء كل ما لديهم وكل مستحقاتهم لإنقاذ أرواحهم وأعراضهم ودينهم وهاجروا إلى تركيا .

وقد بلغ عدد العائلات المسلمة المهاجرة من النظام اليوغسلافى (من الأتراك فقط) إلى تركيا فيما بين عامى ١٩٥٢ - ١٩٦٧ م عدد ٢٣٨, ٤٦ عائلة فيها ٣٩٢, ١٧٥ نسمة .

طريقتان للسلفنة :

يلجأ الشيوعيون اليوغسلاف إلى طريقتين لسلفنة المسلمين من الأتراك والبوشناق والألبان وغيرهم من الشعوب الإسلامية داخل يوغسلافيا :

الأولى : الاضطهاد الثقافى وذلك بمنع الإسلام من المدارس ، فكل الكتب المدرسية فى مناطق المسلمين فى يوغسلافيا عبارة عن ترجمة عن كتب غير إسلامية أو تأليف بمفهوم ماركسى . ويتعمد واضعو الكتب المدرسية فى يوغسلافيا - وبالذات فى مناطق المسلمين - أن يحقروا الإسلام وتاريخ المسلمين فى نفوس الطلاب. ومن هذا الطريق الثقافى يمنع تداول الكتب الإسلامية خاصة بين الشباب .

الثانية : الاضطهاد والتعذيب الجسدى .

وفى يوغسلافيا سجون مشهورة وهى : سجون سراى بوسنة ، وسجن سلافونسكايا ، وسجن بوزاكى ، وسجن فوجى . وفيها العذاب والقهر الذى لقيه وما زال يلقاه المسلمون . وأشهر مثال لهم الكاتبة والشاعرة اليوغسلافية الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش .

مأساة الدكتورة مليكة :

والكاتبة اليوغسلافية الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش مسلمة من البوسنة ، حاصلة على درجة الدكتوراة فى الفلسفة من جامعة السوربون فى فرنسا . كانت عضواً نشطاً وهاماً فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى ، كما كانت شاعرة وكاتبة لكنها لم تكن على دراية بالإسلام إلى أن هداها الله إلى فهم الإسلام فتحجبت ، وكانت أول امرأة بين ثلاثة ملايين امرأة مسلمة فى يوغسلافيا ترتدى الحجاب الشرعى ، وكان ذلك عام ١٩٧٨ م . ومنذ ذلك التاريخ بدأت محنة الدكتورة مليكة لأنها حتى ذلك

التاريخ كانت نجماً لامعاً فى الحزب الشيوعى اليوغسلافى ، وكان الحزب ينتظر لها فيه مستقبلاً براقاً . فدراستها فى السوربون من ناحية وكتاباتها الفلسفية العميقة من ناحية أخرى جعلت لها شهرة كبيرة . كما كانت قصائدها تحظى باهتمام كبير أيضاً ، ولذلك أصبحت عضواً فى الاتحاد الثقافى فى البوسنة .

أما فى هذا العام المذكور – أى عام ١٩٧٨ م – فقد تغير كل شيء فى حياة الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش بعد أن وصلت بتفكيرها إلى معنى الإسلام الشمولى ، وأن الإسلام ليس مجرد الإسم فقط ، فتعرضت بالتالى إلى أقصى درجات الاضطهاد من الحزب الشيوعى اليوغسلافى ومن الدولة أيضاً ، وبذل الحزب الكثير لكى تتراجع الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش عن حجابها وأفكارها الإسلامية لكنها لم تتراجع ، ففصلوها من عملها .

دعت الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش إلى الإسلام وهاجمت علناً النظام الشيوعى فقبضوا عليها وأذاقوها العذاب ، ولكنها أصرت على ما أصبحت عليه فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات . وبعد انقضاء سجنها خرجت لتعيش مع ابنها (أمير) فى سطح إحدى العمارات وهى لا تملك شروى نقير . وزاد الأمر سوءًا عندما منعتها الحكومة من الاتصال بالناس لكى تُترك فى مواجهة العون والفاقة والوحدة حتى الموت .

الإعلان الإسلامى :

وفى عام ١٩٨٣ م قُدِّمت الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش للمحاكمة مع مجموعة من الإسلاميين على رأسهم على عزت بيكوفتش ، وكانت هذه المجموعة تضم (١٣) مسلماً وحُكم عليهم بالسجن المؤبد ، وكان سبب المحاكمة هو « الإعلان الإسلامى » الداعى إلى حقوق المسلمين فى يوغسلافيا والذى نشره على عزت بيكوفتش . وسبق بعض أفراد المجموعة إلى معسكرات العمل الشيوعية الشاقة وما زالوا هناك حتى اليوم .

لم تأبه الدكتورة مليكة صالح بيكوفتش بالتعذيب المادى والمعنوى وقاومت كثيراً

أعلنت إضرابها عن الطعام حتى يُطلق سراحها . وبعد إضراب عن الطعام استمر ٧٢ يوماً أشرفت فيه على الموت خافت السلطات اليوغسلافية من الرأى العام العالمى فأطلقت سراحها . وكان وزنها عند ذلك أقل من أربعين كيلو جراماً .

فى هذه الأثناء طُلِّقت الدكتورة مليكة من زوجها بعد أن تمسك بالاستمرار فى ماركسيته ، فاتفقا أن يقضى ابنهما أمير أسبوعاً معها وأسبوعاً مع والده ، ثم فضل أمير أن يبقى مع أمه دوماً ، مع علمه أن أمه منبوذة فى هذا المجتمع الماركسى .

وبين الحين والحين كانت السلطات تقبض على الدكتورة مليكة لأسباب تافهة ، ومع ذلك كانت تقاوم . واتخذت السلطات قراراً باستجواب كل من يلتقى بالدكتورة مليكة صالح ، وحُرمت من العمل تماماً ومن حق مقابلة المسلمات والأقارب .

واتخذت الدكتورة مليكة صالح خطوة صعبة أخرى وهى التوجه إلى ساحة البرلمان اليوغسلافى فى ١٧ / ٩ / ١٩٨٧ م وطالبت بأحد أمرين : إما توظيفها وإما إعطائها جواز سفر لتهاجر من يوغسلافيا ، وأنها ستضرب عن الطعام إلى أن تستجيب الدولة والحزب إلى أحد مطلبيها . وتسرع قوات الأمن الداخلى فى القبض على الدكتورة مليكة بتهمة التظاهر دون إذن مسبق ويُحكم عليها بالسجن ٦٦ يوماً وهى مضربة عن الطعام ، ثم يُطلق سراحها بعد أن يتنبه الرأى العام العالمى ومنظمة العفو الدولية إلى أن الكاتبة الدكتورة مليكة صالح تكاد تموت . فأسرعت الحكومة اليوغسلافية بإعطائها هى وابنها أمير جواز سفر ووضعتهما على أقرب طائرة لتهاجر بدينها .

[٢]

تاريخ البوسنة والهرسك فى كتاب جديد

- الكتاب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة .
- الكاتب : محمد حرب .
- الناشر : المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى .
- راجعه : محمود السيد الدغيم .
- فـى : جريدة الحياة الدولية فى ٦ / ٥ / ١٩٩٣ م .

مَنْ يستعرض ما نشر عن البوسنة والهرسك يجد تفاوتاً ملحوظاً بين الكتَّاب الذين تناولوا القضية . فمنهم من تناولها بشكل عاطفى مردِّداً ما أفرزته وسائل الإعلام ، ومنهم من تناولها بشكل علمى ، فقدم مادة قائمة على البحث والتنقيب متسلحاً بسعة الاطلاع . ومن الكتب المميزة فى هذا المجال الكتاب الذى وضعه الدكتور محمد حرب ، رئيس المركز المصرى للدراسات العثمانية . فالمؤلف من خريجى جامعة اسطنبول ، ومتابعته لما كُتب باللغة التركية واللغة العربية يُعطى الكتاب أهمية خاصة لأنه يطلُّ على مصدر غنى من مصادر المعلومات الخاصة بمنطقة البلقان بشكل عام .

والكاتب متخصص فى التاريخ العثمانى . سبق أن وضع أعمالاً عدة ، وترجم مذكرات السلطان عبد الحميد وصدرت (١٩٧٧) ، كما ترجم مسرحية « أيها الشهداء إنَّا قادمون » وموضوعها : المسلمون فى بلغاريا ، وهى من تأليف : « رمزى أوزجليك » وصدرت عن « الدار الشامية » فى بيروت سنة ١٩٩١ . وترجم رواية « صقور القوقاز » تأليف « سلجوق قللى » وصدرت عن دار « المنارة » فى جدة ١٩٩٢ .

يتألف الكتاب من بابين : أولهما تحت عنوان : « البوسنة والهرسك وتطور وضع المسلمين فيها إلى اليوم » (ص ٥ – ١٦٣) وثانيهما تحت عنوان : « البوسنة والهرسك هوية المدن والرجال وشهود المأساة » (ص ١٦٥ – ١٩٦) .

قسَّم المؤلف الباب الأول إلى أربعة فصول . تعرض فى الفصل الأول لتاريخ « البوسنة والهرسك قبيل اسلام » فأوضح مقاومة البوسنة للفتح العثمانى بالتعاون مع الصرب حتى تحقق الانتصار العثمانى فى معركة نى - بولى التى قادها السلطان العثمانى بايزيد الأول على نهر الطونة (الدانوب) ضد الحملة الصليبية الرابعة التى قامت بها أوروبا ضد العثمانيين ، وذلك فى ٢٥ أيلول (سبتمبر) سنة ١٣٩٦ ، وبعد ذلك خضعت البوسنة للسيطرة العثمانية .

وعن أحوال البوسنة فى العهد العثمانى الإسلامى كتب المؤلف الفصل الثانى من هذا الباب ، وضمَّنه مراحل الفتح التى بلغت الكمال على يد السلطان العثمانى محمد الفاتح فى ربيع ١٤٦٣ ، وتحرر البوشناق (البوسنيون) من ظلم الصرب والكروات . وفى هذا الفصل يعرض المؤلف الوقائع التى شارك فيها البوشناق كفاتحين لما جاورهم من بلدان ، أو مدافعين عن الجبهة الإسلامية الغربية فى وجه الهجمات الأوروبية ، فيقدم عرضاً تاريخيًّا دقيقاً ومفصلاً عن المواقع والقادة والولاة ، ويذكر مساهمات أبناء البوشناق ضمن حدود بلادهم وخارجها ، حيث تسلموا الصدارة العظمى فى السلطنة العثمانية ، كما عُيِّن منهم الولاة أمثال : مصطفى باشا (البوشناق) صهر السلطان سليم الأول ، وتولى ولاية مصر (أمير أمراء - بكلر بك) لمدة خمسة أشهر وسبعة أيام » وذلك سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٢٣ م .

وفى هذا الفصل يعرض المؤلف معلومات دقيقة للغاية ربما كانت مجهولة من قِبَل قرّاء اللغة العربية ، ويستمر فى عرض المعلومات فى هذا الفصل حتى قيام الحرب العالمية الأولى حينما قتل ولى عهد النمسا فرانسوا فرديناند فى سراى البوسنة (سراييفو) يوم الأحد ٢٨ / ٦ / ١٩١٤ .

عقد المؤلف الفصل الثالث تحت عنوان « البوسنة والهرسك من الحرب الأولى إلى قيام دولة يوغوسلافيا » (ص ٧٥ - ١٠٥) وقدم عرضاً وافياً لسير مأساة المسلمين تحت الاحتلال الأوروبى ، وما تعرضوا له من ضغوط وتصفيات على أيدى الجيوش النظامية الأوروبية ، والعصابات المحلية الصربية الكرواتية الخارجة على القانون منذ القدم وحتى سقوط الاتحاد اليوغسلافى .

فى هذا الفصل اعتمد المؤلف على الكثير من المراجع وأشار إليها . وهذا شأنه فى عموم الكتاب . ومن المراجع التى اعتمدها مقالنا الصادر فى جريدة « الحياة » العدد ١٠٨٧٦ فى ١٩ / ١١ / ١٩٩٢ .

اختتم المؤلف هذا الباب بالفصل الرابع الذى أورده تحت عنوان « جمهورية البوسنة والهرسك المستقلة من الاستقلال حتى اليوم » (ص ١٠٦ - ١٦٣) وفى هذا الفصل حشد كمًّا من المعلومات التى تعددت مصادرها ولغاتها ، فقدم صورة واضحة عن كل ما حدث فى مسألة البوسنة والهرسك منذ ٢٩ / ٢ / ١٩٩٢ وحتى ٣ / ١٢ / ١٩٩٢ . ومن جملة مصادره ومراجعه فى تلك الفترة جريدة « الحياة » أيضاً .

هوية المدن :

تناول المؤلف فى الفصل الأول من هذا الباب مسألة مهمة تحت عنوان : « هوية المدن فى البوسنة والهرسك فى العهد الإسلامى » (ص ١٦٥ - ١٧٦) وشمل هذا الفصل عشرين مدينة إسلامية بما تحتوى عليه من المنشآت العامة والخاصة الإسلامية وغير الإسلامية ، كما قدم إحصائيات بعدد السكان ، واللغات المتداولة وعروق السكان . وهذا الفصل مترجم عن اللغة التركية ، من كتاب « تاريخ تركيا الكبير » لمؤلفه يلماز أوزطونه (المجلد ١٢ / ص ٤٥٥ - ٤٧٧) ووردت فيه بعض الأرقام القديمة التى لا تنطبق على الواقع المعاصر ، ومن شاء المقارنة فليراجع « الحياة » العدد ١١٠٠٦ الصادر يوم الخميس ١ / ٤ / ١٩٩٣ . تحت عنوان « قراءة فى خريطة المدن الإسلامية فى البوسنة - الهرسك مدن البوسنة تحت مطارق الصرب » .

أما الفصل الثانى فهو « جدول حكام بلاده البوسنة والهرسك فى العهد العثمانى » ابتداء بالغازى إسحق بك ١٤٥٤ وانتهاء بأحمد مظهر باشا ١٨٧٩ م ، وبلغ عدد الذين ورد ذكرهم فى هذا الجدول ٢٣٦ حاكماً والجدول مترجم عن المرجع السابق أيضاً .

ثم قدم المؤلف جدولاً بأسماء الوزراء العظام والصدور العظام فى الدولة العثمانية

من أبناء البوسنة والهرسك » وتضمن ١٣ وزيراً وصدراً ، وأعقبه بجدول بأسماء « قادة الأساطيل العثمانية من أبناء البوسنة والهرسك » وبلغ عددهم ١٦ قائداً .

وفى الفصل الثالث تعرض المؤلف لتصحيح بعض الأخطاء الشائعة فى وسائل الإعلام فيما يخص البوسنة والهرسك مدناً وسكاناً . ومصطلحات .

وخصص الفصل الرابع لمقتطفات الذين « قالوا عن البوسنة » فأورد فقرات لخمسة عشر كاتباً وسياسياً .

إلا أن المؤلف لم يفصل تاريخ هجرة البوشناق من آسيا الوسطى إلى أوروبا ، كما أن المعلومات التى أوردها عن ديانة البوشناق قبل الفتح الإسلامى العثمانى غير واضحة ، إذ ذهب إلى القول : « فتكونت كنيسة مستقلة سميت باسم الكنيسة البوشناقية أو البوغوميلية وكانت هذه الديانة فى كل مظاهرها وعقائدها قريبة من الدين الإسلامى » (ص ٢٢) .

إن هذا الرأى لا يختلف عما قدمته أنا فى جريدة « الحياة » سابقاً ، وبعد البحث والتنقيب ظهرت عندى قرائن تاريخية جديدة وهى : أن البوشناق هم البجناق الذين سيطروا على منطقة نهر الفولغا ثم حاصروا القسطنطينية ، ووصلوا إلى حدود إيطاليا وقد حرَّف الروس كلمة بجناق التركية فقالوا : « بشننغ » وقلب الجيم الفارسية ذات الثلاث نقاط إلى شين أمر عادى ، وهكذا تم تحريف اسم هذا الشعب فأصبح « البوشناق » والمعروف أن البجناق والبلغار أسلموا منذ العصر العباسى ورحلة أحمد ابن فضلان (ت ٣١٠ هـ) الذى أوفده الخليفة العباسى ليعلمهم أمور دينهم هى من الرحلات المشهورة ، وهذه النقطة لم تُعطْ حقها فى الدراسات الحديثة .

والسؤال الملح هو : هل انتقل الدين الإسلامى مع البلغار إلى بلغاريا ومع البوشناق إلى البوسنة أم لا ؟ لعل بعض الباحثين يجيب إجابة علمية على هذا السؤال .

البـاب الرابـع

الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى والبلقان

(تراجم أدبيـة معاصـرة)

الفصل الأول : تراجم أدبية معاصرة من تركستان والقوقاز

الفصل الثانى : تراجم أدبية معاصرة من البلقان .

الفصل الثالث : دراسات أدبية .

الفصــل الأول

تراجم أدبية معاصرة من تركستان والقوقاز

١ - جنكيز آيتماتُوف (قيرغيزستان) .
٢ - عبد الرشيد إبراهيم (تتارستان) .
٣ - وهّاب زاده (آذربيجان) .
٤ - جنكيز ضاغجى (القرم) .

[١]

جنكيـز آيتِمَاتـوف

الروائى القيرغيزى المسلم

عندما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا اكتسحت فى طريقها كل القيم الإنسانية وكل الأراضى المسلمة المجاورة لروسيا ومن أول إجراءات الشيوعيين عندما يستولون على مكان أن يغيروا نظامه التعليمى فوراً إلى الماركسية ، وهكذا فعلوا فى قيرغيزيا .

وقيرغيزيا : بلد صغير ، يخضع لحكم الاتحاد السوفييتى ، وقيرغيزيا تُسمى أيضاً « قيرغيزستان » ، يعنى بلاد « القيرغيز » وهم مسلمون من أصول تركية يتكلمون التركية بلهجتها القيرغيزية . أما الروس فيسمون هذه البلاد باسم « قيرغيزسكايا » .

أراد نظام التعليم السوفييتى أن يقتلع من مسلمى « قيرغيزيا » الإسلام ، وبالفعل منع التعليم الدينى بكافة صوره وأشكاله ، بل حرَّم الإسلام وجرَّم المؤمنين به . لكن الدين مقره القلب . صحيح أن مسلمى قيرغيزيا نسوا العبادة وجهلوا دينهم الذى حرم السوفييت عليهم أن يتعلموه وأن يعلموه . ومع أن الطفل القيرغيزى – منذ قيام الثورة الشيوعية – يتلقَّى فى المدارس والجامعات والكلخوزات والنوادى والاجتماعات الإيمان بالماركسية وماركس ولينين وستالين وغيرهم من رموز الإلحاد لكن نظام التعليم الروسى لم يستطع أن يقلع من النفوس ومن القلوب ومن المشاعر الإيمان بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، فكانت الأم وكان الأب يلقِّنان الأولاد أن إسلامهم أعظم وأكبر من كل دعاوى الماركسية ونظام البلاد .

كان لا بد من وسائل تحافظ على جوهر الإسلام فى النفوس حتى ينهار الظلم السوفييتى ، ولا بد من الدعوة لانهيار النظام الملحد وإحلال الإسلام . وكان الأدب الإسلامى فى « قيرغيزيا » أحد هذه الوسائل ، ولكن كيف ؟ هذه هى القضية . المجاهرة معناها السجن والنفى وقتل الكلمة الطيبة . إذن الرمز ؟ نعم .. لكن الرقابة على المصنفات الفنية الروسية والسوفييتية يقظة لما وراء الرمز .

إذن ماذا ؟ هكذا فكَّر أديبنا المسلم جنكيز آيتماتوف ، الذى وُلد عام ١٩٢٨ م ، وخرج بنتيجة هى أن يصل بكلماته المخلصة ورواياته إلى كسب رضا السلطات العليا ، دون تملُّق ، ودون تنازل عن المبادىء التى تعلَّمها فى بيته .

إذن لا بد أن يجتهد حتى يقف ويجد مكانه فى عالم الأدب السوفييتى . فكتب روايته « جميلة » التى حاز بها على جائزة لينين عام ١٩٦٣ م ، وهى السبب فى شهرته العالمية بعد ترجمتها إلى اللغات الأوروبية والشرقية . وتلاها رواية « أيها الجواد كول صارى » . ثم روايته الأخيرة التى عبر فيها عن الإسلام صراحة : « يمتد اليوم فيصبح قرناً » .

وكتب روائينا المسلم القيرغيزى جنكيز آيتماتوف رواياته التى فاقت كل روايات القرن العشرين شهرة وفناً ، كتبها قبل ظهور جورباتشوف وقبل إعلان البروسترويكا ، وقبل حتى مجرد التفكير فى إلغاء الشيوعية ، ودعوة تحرر الشعوب الخاضعة للاتحاد السوفييتى إلى التخلص من حكم الحزب الشيوعى .

أى أن كاتبنا المسلم رائد . ولا بد من تسجيل هذا ، ولا بد من الوعى به . أما كيف كتب وكيف فسَّر النظام الشيوعى كتاباته ، وكيف تدرَّج فى فنه وفكره حتى صارح به ، فسيتضح من استعراض أشهر ثلاث روايات من رواياته ، وهى نقاط التحول فى فنه وفى فكره .

قبل البدء فى هذا أسجِّل فى فقرة أو أكثر رأى النقاد السوفييت فى فن كتابة الرواية الطويلة عند جنكيز آيتماتوف ، فهو مهم لرسم صورة معقولة لهذا الروائى الشهير :

- عاش جنكيز آيتماتوف يفكر فى قضية واحدة وهى شعبه القيرغيزى .
- إن القوة الرئيسية التى تحدد محتوى واتجاه أعماله تبقى دائماً واقعه المعاصر بكل مظاهره .
- إن جنكيز آيتماتوف قد استطاع التعبير عن أعمق ما فى روح شعبه .
- أبطال روايات جنكيز آيتماتوف أناس يعيشون فى زمن محدد ، وفى مكان جغرافى معلوم ، كل واحد منهم يرتبط بآلاف الخيوط بالماضى ، والحاضر ، وبالمستقبل ، لشخصه ولشعبه .

– رواية « جميلة » تأليف الكاتب القيرغيزى السوفييتى جنكيز آيتماتوف هى أجمل قصة حب فى كل آداب العالم « إن آيتماتوف لقادر على تحويل « نثر الحياة » إلى لآلىء الشعر » .

– إن موقع آيتماتوف الإبداعى والوطنى كان قد تحدد منذ بدء طريقه الأدبى والتى لعبت فى تثبيته تجربة الكاتب الحياتية . عمل زمن الحرب « العالمية الثانية » فى قرية ، سكرتيراً لمجلس سوفييت القرية ، مساهماً فى جمع الضرائب ، ومراقباً للجرارات .

إن نثره لا يحمل طبيعة إرشادية أو وعظية حزينة ، لكنه فى الحقيقة يربِّى فى الإنسان الإحساس بالجمال ، يعلِّم الاحترام والتعاطف مع الناس ، يعلم عدم مسامحة الأنانيين والمتعنتين « الحزبيين » فى أصغر تطاول لهم على الكرامة الإنسانية .

ويتحدث آيتماتوف عن نفسه : « إذا كنت قد عرفت الحياة فى طفولتى من جانبها الشعرى المضىء ، فإنها الآن انتصبت أمامى بجانبها الصارم ، العارى ، الحزين ، البطولى . لقد رأيت شعبى فى حالة أخرى له – فى لحظة الخطر الأقصى يتهدد الوطن ، لحظة التوتر الأكبر فى القوى الروحية والجسدية كنت مضطراً ملزماً برؤية هذا – عرفت كل أسرة فى القرية ، عرفت كل واحد من هذه الأسر ، عرفت الحياة من مختلف جوانبها ، فى مختلف مظاهرها » .

[٢]

الأديب الرحالة عبد الرشيد إبراهيم

داعية للإسلام من سيبيريا إلى اليابان

عبد الرشيد إبراهيم ، أديب تتارى ورحالة من كبار الدعاة إلى الإسلام فى القرن الماضى . نذر حياته وعلمه لخدمة قضية التضامن الإسلامى والتى سُمِّيتْ فى عهده باسم الجامعة الإسلامية . علَّم الناس فى سيبيريا - بلاده - الإسلام . وفى سيبيريا وفى كل تتارستان كتب المقالات فى الصحف والمجلات ، بل وأصدر المجلات وفتح المدارس لتعليم الإسلام . ثم ارتحل من بلاده - وكانت تحت الاحتلال الروسى كما هى حتى الآن (عام ١٩٩٣ م) - إلى بلاد آسيا « وكان وهو على هذا الارتحال يكتب فى صحف ومجلات العالم الإسلامى . وانتهت رحلته هذه بأن استقر فى اليابان لنشر الإسلام فيها ، وكان له جهاده فى افتتاح جامع طوكيو عام ١٩٣٧ م « ١٣٥٦ هـ » ، وبلغت جهوده حدًّا جعلت الحكومة اليابانية تعترف بالإسلام رسميًّا عام ١٩٣٩ م . وهو الذى أعدَّ كوادر العمل الإسلامى التى تدعو اليوم فى اليابان إلى الإسلام . إنه داعية أديب سخر الله له قلمه لاستخدام الأدب بمعناه الواسع فى خدمة نشر الإسلام وفى توعية المسلمين . لقد عاش عبد الرشيد حياة مثيرة كلها جهاد ، وخلف لنا رحلة هى نبراس للأديب و المفكر والداعية إلى الإسلام . عبد الرشيد إبراهيم كسبٌ للأدب الإسلامى وعلى المسلمين أن يعرفوه . ولهذا كانت هذه الدراسة .

وُلد عبد الرشيد إبراهيم فى « طارا » ولها اسم آخر هو « أومسك » إقليم فى سيبيريا مشهور ويقع فى بلاد تتارستان عام ١٨٥٧ م . وتلقَّى تعليمه الإسلامى فى بلاده ثم اتَّجه إلى صحارى قيرغيزستان ليدعو هناك إلى الإسلام ، ثم سافر إلى الحجاز لتلقِّى العلم « عام ١٨٧١ م - ١٢٨٨ هـ » وقضى فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ثمانى سنوات . وقد أثَّر على تفكير عبد الرشيد إبراهيم فى الحجاز التقاؤه بالمجاهد

الإمام الشيخ شامل ، ثم سافر إلى استانبول عاصمة الخلافة ليتزود بالعلم فيها ، ثم عاد لبلاده .

واتجه إلى فتح المدارس الإسلامية الخاصة بعد أن وجد روسيا تهمل تعليم المسلمين ، فافتتح فى بلدته مدرسة أسماها « الأصول الحديثة » ، ثم وجد أن خير وسيلة – حسب اجتهاده – لكى يتعلم مسلمو بلاده تعليماً إسلاميًّا تشجيع المسلمين على الهجرة من روسيا إلى الدولة العثمانية . وقد نجح فى تهجير ٧٠,٠٠٠ « سبعين ألف » مسلم وبالتالى ضمن أن يتعلم هؤلاء المهاجرون الإسلام فى بلاد المسلمين .

نشاطه العلمى :

كانت قضيته فى البداية هى مهاجمة الحكم الروسى ليفضح معاملة روسيا للمسلمين وليفضح أهداف الهيئات التنصيرية فى روسيا . لذلك كتب مقالات عديدة فى صحافة العالم . فى دولة الخلافة وفى مصر وفى أمريكا ، فاعتقلته الشرطة الروسية عام ١٩٠٤ م « ١٣٢٢ هـ » .

ثم قام عبد الرشيد إبراهيم بعمل أدبى دعائى كبير هو رحلاته فى العالم الإسلامى وهذه بدءاً من ١٩٣٤ م « ١٣٢٢ هـ » إلى وفاته ١٩٤٤ م . عمل فى أثناء هذه الفترة على دراسة أسباب رقى اليابان ، وجاهد فى نشر الدعوة الإسلامية فى اليابان ومنها إلى البلاد المجاورة لها .

وبلغت مكانة هذا الأديب الداعية أن إذاعات اليابان أذاعت خبر وفاته « عام ١٩٤٤ م » فى كل محطاتها ، وأقيمت له فى طوكيو جنازة ضخمة حضرتها أعداد وفيرة من جميع أنحاء اليابان والدول المجاورة لها .

وقد قام كاتب هذه السطور بدراسة للشيخ عبد الرشيد إبراهيم من الناحيتين الفكرية والحركية ضمَّنها كتاب السلطان عبد الحميد الثانى أخر السلاطين العثمانيين الكبار (طباعة دار القلم بدمشق عام ١٩٩٠ م) .

وحق الرجل علينا بل حق المسلمين أيضاً ، أن نتناوله من ناحيته الأدبية والدعوية هنا .

فللشيخ عبد الرشيد إبراهيم غير مقالاته ، ستة كتب بالتركية هى :

العالم الإسلامى وانتشار الدعوة الإسلامية فى اليابان – المرأة – سيرتى الذاتية – محاكمة الضمير ميزان الإنصاف – كوكب الزهرة – آسيا فى خطر « ترجمة من اللغة اليابانية إلى اللغة التركية » .

ورحلته هى الدالة على أدبه، وأدبياته، ونظرته إلى الدعوة الإسلامية، واتحاد المسلمين .

أدب الرحلة :

إن رحلة عبد الرشيد إبراهيم للعالم الإسلامى وانتشار الدعوة الإسلامية فى اليابان وكانت فى الأصل رسائل صحفية عن رحلته ، كتبها عندما كان يدعو إلى الإسلام فى اليابان ليرسلها إلى جريدة « الصراط المستقيم » الإسلامية التي كانت تصدر فى استانبول . وهى فى جزئين : الأول صدر عام ١٣٢٨ وهى من أدب الرحلات ، وأدب الوصف أيضاً ، وشملت رحلاته فى تركستان وسيبيريا « بلاده » ومنغوليا ومنشوريا واليابان وسوريا والصين وسنغافورة ، لكن الجزء الخاص باليابان فى هذا المجلد هو الأغلب . أما المجلد الثانى فيشمل وصفه لرحلته ولرؤيته فى سنغافورة أيضاً ثم جزر المحيط الهندى والجزيرة العربية واستانبول .

وكانت الطبعة الأولى للرحلة فى استانبول عامى ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ باللغة التركية فى حروفها العربية .

ثم قام الأديب التركى محمد باك صو بتفريب أسلوب الكتاب إلى اللغة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ، وأضاف إليه تعليقات قيمة ، وأورد فيه قصائد كتبها شاعر الإسلام محمد عاكف ، وكان شاعر الإسلام معجباً أى إعجاب بعبد الرشيد إبراهيم فنظم فيه وفى رحلته التى نعرضها الآن شعراً مادحاً لأدب عبد الرشيد وفكره وجهاده فى دعوته لدين الإسلام فى آسيا . وأصدرت هذه الطبعة الحديثة دار نشر « آسيا الجديدة » ، وهى دار تتبع جماعة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسى ، وحملت عنواناً ترجمته كالآتى : « العالم الإسلامى والإسلام فى اليابان فى مطلع القرن العشرين الميلادى » .

وأقدم هنا مقاطع مثيرة طريفة كتبت بأسلوب أدبى بليغ من هذه الرحلة عند هذا الأديب الداعية .

معلوماتنا عن المسلمين ممن ؟

« قال لى محدثى : لا علم لنا بأخبار مسلمى تركستان والصين . ولا بد أنهم أيضاً مثلنا يجهلون أحوالنا . فكلنا فى الجهل سواء . وعندما أود معرفة شىء عن المسلمين فى الصين لا بد أن ألجأ إلى المصادر الإنجليزية مع إدراكى بأنها ضد الإسلام . وإنى لأرغب جدًّا أن أجد مصادر تُمدُّنى بالمعلومات التى احتاج إلى معرفتها باللغات الإسلامية » .

« إن المسلمين اليوم يغطون فى نوم الغفلة ، وعلينا الآن أن نوقظهم ، وعلى الدعاة القيام بهذه المهمة » .

« الوحدة الإسلامية ليست كما يظنها الأجانب ، إنها ليست اتحاداً جديداً لمجرمين متوحشين يسعى المسلمون فيه نحو النصارى الوادعين ليقتلوهم . إن التضامن الإسلامى قائم على إخوة الدين . إننا نقف متسائلين مع الذين يتساءلون : ترى ما السبب فى فزع الأوروبيين من التضامن الإسلامى ؟ إنهم ليسوا فى هذه القضية وحدها ، بل فى كل قضية إسلامية تنتابهم سوء النية . على أن الحقيقة الأساسية فى تضامن المسلمين ترتكز على أن نكون مسلمين حقًّا فى الوقوف على حقيقة الإسلام ، وهذا وحده كاف ليكون قضية مهلكة للأجانب ، دون استثناء » .

« الجهل مخيم – فى الهند – على المسلمين وعلى المجوس على حد سواء . فقراء الهند عراة يتسكعون طوال النهار والليل فى الشوارع ولا يبالون بأن يتقلبوا بين الأتربة والأحجار ، وأن ينغمسوا فى المستنقعات والطين . أما الفقراء من المسلمين فيجدون لهم فى المساجد مأوى ومستظلاً ، ولذلك فهم قلة فى الأزقة والشوارع . أما بعض المبتدعة الضلال فهم أكثر تعصباً وليس بينهم فقير ، وهذه الفئة متعاونة فيما بينها . وهذا الأمر يلفت النظر ويذكرونه على أنه إلهام ربانى ، لكن هذه الفئة تبغض أهل السنة وبخاصة الشيخين الجليلين وتكن العداء الشديد لهما » .

الشرطة تضرب المسلمين فى المسجد :

« فى الهند يتكاثر الفقراء فى شهر رمضان بالذات فى كل جامع ، ذلك لأن فيها

عادة شائعة هى توزيع الخبز فى المساجد ، ومع هذا العمل تحدث المشاكل ، ولهذا الأمر شرطى مخصوص ، عمله هو توزيع الخبز ، وفى يد هذا الشرطى عصا من الخيزران يضرب الناس بها . وذات يوم جاء رجل يوزع الخبز على الفقراء فحدث بينهم هرج ومرج فداهمهم الشرطى بعصاه وصار يضربهم بها - كيفما اتفق - والناس من حوله يتفرجون . وكان فى المسجد شيخ تركى رأى هذا المنظر فانطلق من مكانه كالأسد وداهم ذلك الجمع من الفقراء الذى كان تحت وطأة عصا الشرطى وخطف من يده عصاه وراح يضربه بها ضرباً مبرحاً دون هوادة ، ولما فقد الشرطى سلاحه بهذا الشكل لجأ إلى صفارته مستنجداً بزملائه فلما لم يدركه أحد أدرك هو باب الجامع فارًّا » .

ترجمة القرآن :

« وقد ترجم المسلمون العديد من الكتب الدينية إلى اللغة الأوردية - كما تُرجم القرآن الكريم قبل مائة سنة « من وقت كتابة هذه الرحلة » - ترجمه الشيخ عبد القادر إلى اللغة المذكورة ، ثم جاء شمس العلماء نذير أحمد فى « دهلى » وترجمه أيضاً إليها قبل ١٢ عاماً ، وخلال هذه الأعوام المحدودة طُبعت الترجمة للمرة الرابعة » .

« يتعمد الإنجليز أن يلغوا من الهند - وهى مستعمرتهم الكبرى - الأحرف العربية ، لأن هذه الأحرف تحيط بالمسلمين ويحيطون بها ، وهى بذلك توطد من رابطتهم وتوثق من إخوتهم التى أكدتها لهم رابطة الإخوة الإسلامية المثلى » .
(ملاحظة من كاتب هذه السطور : كتب الأديب الرحالة عبد الرشيد إبراهيم هذا الكلام قبل ظهور أتاتورك وتغيير الحروف العربية فى تركيا) .

أصول الدعوة الإسلامية فى اليابان :

« قدمنى صديقى إلى بعض وجهاء اليابان قائلاً : هذا هو الشيخ عبد الرشيد إبراهيم التاتارى عالم مسلم ، وسننتفع به وهو المؤسس لوجود الإسلام فى اليابان .
قال لى أوهادا : ها نحن أمامكم خمسة رجال سنقوم بترويج أفكاركم فى اليابان ، وسنعاهدكم على العمل على نشر الإسلام بما نملك من قدرات وطاقات بدنية ومالية .

قلت لهم : وأنتم من كبار رجال الشرق ومن صفوة الأمة اليابانية لذلك سيكون كلامى معكم فى غاية الوضوح سأهتم بتعليمكم أسس الإسلام وأركانه . ولهذه الدعوة جهة رسمية تتولى الإشراف عليه ، لذلك يجب علينا طلب العون الرسمى من باب المشيخة الإسلامية العالمية وهى فى دار الخلافة استانبول . أما الآن فإنى سأفصّل لكم بعض الأمور العامة :

ليس فى ديننا ما هو سر خفى ، والمسلم هو العبد الذى يقر بخالقه الواحد الأحد ووجوده القادر والمطلق ، وعلى المسلم أمور شرعية ، والشريعة الإسلامية هى حبل الإخوة فى الإسلام فى حين أن مقام الخلافة هو الصرح المعظم الذى تلتف حوله أطراف الحبل وتتوحد به . إن المسلمين الموجودين على سطح الأرض يرتبطون بمقر الخلافة المركزية . ومع هذا فلا بد الآن أن نؤسس فيما بيننا جمعية وأن نعقد عهد إخوة ، لا بد من السعى لإعداد أرض لبناء مسجد عليها لينتشر الإسلام فى ربوع اليابان » .

[٣]

بختيار وهّاب زاده « خادم الفن الرفيع »

بختيار بن عبد الوهاب ، أو بختيار وهّاب زاده ، هو أشهر شاعر معاصر الآن فى آذربيجان . شخصية محترمة من الصغير إلى الكبير . يزوره فى بيته رؤساء الجمهوريات كما يزوره الأدباء الناشئون المغمورون . يمتاز بالطيبة والصراحة واحترام الكلمة . أحبه الناس كما أحب الناس ، وجعل من منصبه استاذاً بجامعة باكو موقعاً فى خدمة الأدب الإسلامى التركى المكتوب باللهجة الآذرية لهجة بلاده آذربيجان . وهو عضو مجلس الشورى الآذرى ، وبعد انحلال الشيوعية وسقوط الحكم الماركسى وإعلان بلاده دولة مستقلة ذات سيادة ، جعل من منصبه فى مجلس شورى الشعب الآذرى خدمة للناس صغيرهم قبل كبيرهم .

وُلد بختيار بن عبد الوهاب « وهاب زاده » فى مدينة شَكِى عام ١٩٢٥ م فى أسرة سنية مسلمة ، وعُيِّن معيداً بكلية اللغات التابعة لجامعة الدولة فى آذربيجان عام ١٩٥١ م ، وما زال يعمل أستاذاً جامعيًّا هناك للأدب التركى المعاصر :

له دواوين شعر ومسرحيات وقصائد طويلة ، كما أن له مترجمات . وفى خارج بلاده نُشرت له دواوين شعرية فى تركيا . فقد سافر إليها مرتين وهناك نشر أشعاراً له فى مجلة الأدب التركى « تورك أدبياتى » فعرفه القراء الأتراك فى تركيا ، ثم نشر مجموعة شعرية صغيرة باسم « سلام للصباح المشرق » « حوالى عام ١٩٧٦ م » ، ثم ظهرت له أشعار مختارة اختارها له ياووز آق بينار « أستاذ جامعى تركى » ونشرتها دار « أوتوكان » الوطنية التركية عام ١٩٧٩ م .

ونقاد الأدب يجمعون على أن أشعار وهاب زاده تبعث على التفكير .

وهو أكبر شاعر آذرى مشهور خارج بلاده آذربيجان .

وإذا أردنا أن نشير إلى أعماله نقول : إن له عدداً من المسرحيات منها : مسرحية « الصوت الثانى » ومسرحية « ما بعد المطر » و « الرجل المهمل » . ومسرحية « الضمير » . وله مقالات جمعها فى كتب ، مثل مجموعة مقالاته التى نشرها عام ١٩٧٦ م باسم « الفنان والزمن » وعام ١٩٧٨ م باسم « العظمة فى البساطة » .

وقد أصدرت له وزارة الثقافة التركية – ليس فى بلاده آذربيجان وإنما فى تركيا – ثلاثاً من مسرحياته فى كتاب صدر فى استانبول وهى مسرحيات « إلى أين تمضى هذه الدنيا » و « الصوت الثانى » و « استغاثة » .

ومن دواوين أشعاره صدر : « أصدقائى » عام ١٩٤٩ م و « الربيع » ١٩٥٠ م و « نغمة الصداقة » عام ١٩٥٣ م و « التذكار الخالد » عام ١٩٥٤ م ، و « الصفصاف » عام ١٩٥٦ م و « رجال بسطاء » عام ١٩٥٦ م و « ليال مقمرة » عام ١٩٥٨ م .

ومن قصائده المشهورة خارج وطنه : « بعض غزليات » و « سلام عليك يا أوزبكستان » و « حال يتغير فى لحظة » و « هدية الأم » و « لغتنا الجميلة » .

وفى قصيدة « غزل » يقول :

النور يحتاج النار .
والنار تحتاج الفضاء .
والفضاء يحتاج الأرض .
والنظام الذى على الأرض يحتاج حتماً إلى السماء .
والحاكم الذى يجبر العالم على الخضوع لحكم نفسه ؛
لا بد أن تحتاج عيناه إلى غزال ، وإلى راحة حلوة .

وفى قصيدة « هدية الأم » يقول فى مطلعها :

صلّت أمى ثم رفعت يدها نحو السماء تقول :
اللهم إنى أتوسل إليك وأنت ربى .
أنت ياربى خلقت السماء وخلقت الأرض .

إن ابنى عَذْب طيب ، يا أللهْ .
اللهم خذ من عمرى وأمدد بما تأخذه منى فى عمر ابنى .
فأنت أنت الله .

وعن لغته التى كان الروس الشيوعيون يجبرون المسلمين هناك على نسيانها ليتبنوا اللغة الروسية بدلاً منها ، يقول عبد الوهاب زاده فى قصيدة لغتنا الجميلة :

هذه اللغة ، روحنا ، عشقنا ، حبنا .
هذه اللغة عهد أماننا .
هذه اللغة عرفتنا كل شىء فى هذه الحياة .
هذه اللغة تركها لنا الأجداد أمانة وذهبوا .
أقْيَمْ ميراث نضعه نصب أعيننا .
نحميها للأجيال ، نهديها إليهم بدورنا .
هذه اللغة عقل الشعب وحكمته .
يا لغتى الجميلة لقد عرفت بقدرتك الاتصال بالناس .

موقفه من الشعر الحر ورأيه فى وظيفة الأدب :

لقد حصل عبد الوهاب زاده عام ١٩٧٥ م على جائزة الدولة التقديرية فى آذربيجان . وحصل على لقب : « خادم الفن الرفيع العامل » .

لقد كان لهذا الشاعر المسلم انتشار كبير عن طريق ترجمة أشعاره إلى عدة لغات ، ففضلاً عن ترجمة أشعاره إلى كل لهجات اللغة التركية – لغته الأصلية – فإن أعماله قد ترجمت إلى اللغة الألمانية واللغة الفرنسية واللغة الفارسية .

ووهاب زاده يقف بقوة ضد الشعر الحر . وبتعبير الناقد الدكتور آق بينار : « لا يلتفت وهاب زاده كثيراً إلى الشعر الحر ويقول إنه ليس أصلاً بشعر » .

إن وهَّاب زاده ينظم أشعاره على وزن العروض ، ويتبع – من حيث المحتوى – التقاليد الشعرية الكلاسيكية . إنه يريد بالأدب الحديث أن يكون استمراراً للأدب التقليدى فى الأمة . وفى الوقت نفسه يقابل الاحتياجات المطلوبة من الأدب .

إننا نجد فى شعر وهَّاب زاده عنصراً فكريًّا كثيفاً خاصاً به . إنه لا يتردد فى سكب مشاهداته وأحاسيسه ، على عمق ، حول مسألة أو موضوع .

يشبِّه شاعرنا الشعر بنار متأججة محترقة داخل الإنسان ، وينبغى إلقاء نبض العصر فى أنغام الشعر . يجب أن يكون الشعر مالكاً لهوية تحث على التفكير العميق . وشعر كهذا يجب أن يكون كالنهر فى فيضانه بحب الوطن والأمة ، ممتلئاً بعشق الثقافة الوطنية .

إن هذا الشاعر العملاق يقف بقوة ضد هؤلاء الذين يسميهم بالطفيليين ، ويقصد بهم هؤلاء الذين يتوقون لتقليد أنماط الفكر والحياة الأجنبية التى ينكر تراث الوطن وتاريخ الأمة ويقلدون الأجنبى .

يرى وهَّاب زاده أن جسد الشاعر من أرض الوطن ، ونفس الشاعر هو الريح التى تهب من نهر الخزر « لأنه أذرى » ودم الشاعر نهراً تورو أراس .

يرى وهاب زاده أن الشاعر لا يستطيع أن يحيا بلا وطن ولا أمة ويرى أن أعظم وظائف الشاعر هى حب الوطن .

الشاعر فى نظر وهاب زاده هو الإنسان المحارب فى طريق الله والحق والحقيقة ، الشاعر هو إنسان جيبه فارغ قلبه ممتلىء إنه يتحدث فى أحد دواوينه عن العمال الأتراك الذين قابلهم فى ألمانيا ويقول عنهم إنهم يتعرضون لشتى أنواع المضايقات فى بلاد الكفار فى سبيل الخبز والنقود ، لكنهم يفقدون سعادتهم . ذلك لأن السعادة الحقيقية – فى نظره – إنما تكون داخل الوطن المسلم الحر .

ويهجو فى شعره هؤلاء المتنطعين الذين يقولون إن وطنى هو الأرض التى تشبع فيها معدتى .

وأهم مواضيع أدب وهَّاب زاده هى : اللغة – الأسرة – الأم وحب الأم .

كيف يدافع الأديب عن قضايا بلاده السياسية ؟

فى لقاء مع بختيار وهاب زاده تحدث عن إقليم ناجورنو – قاراباغ وهو إقليم فى وسط آذربيجان ، كان مقرًّا لجيوش المسلمين وهم يفتحون بلاد الروم ، وكان هذا

الإقليم مشتى السلطان ألب أرسلان ، وقصته فى الجهاد معروفة ، وهو الذى لبس الكفن الأبيض وقاد به الجيوش الإسلامية وانتصر فيها على الروم ، وكان الروم فى كثرة عددية ويقودهم الإمبراطور الرومانى رومانوس ديوجينس الذى اشتهر بقدرته العسكرية . وكان النصر فى موقعة ملاذكرد المشهورة للمسلمين ، وأسر المسلمون فيها سلطان الروم هذا .

يقول وهاب زاده - كأديب وسياسى - « قاراباغ منذ القدم مسلمة تركية . إنها أرض تركية . إن وجهة نظرى أنه لا بد من تسوية المسألة سلميًّا ، لأن التحاكم إلى السلاح أمر صعب ، لأن « أخوال » الأرمن و « أعمامهم » كثيرون (يقصد النصارى فى العالم » ، وهؤلاء يمدون الأرمن بأحدث الأسلحة . قضية قاراباغ مشكلة للآذريين وللأرمن على السواء . الدماء تسيل من الجانبين . لمصلحة من ؟ إن هذا العهد عهد الديمقراطية ، وأصعب المسائل تحل بالسلم وبالطرق السلمية . لكنى أريد القول هنا إن التاريخ معروف لدينا .

قاراباغ أرضى أنا وأبى مات هنا وأجدادى دفنوا فيها ولن أفرط فى أرضى . إن كل سكان آذربيجان من المسلمين الأتراك يمكن أن يستشهدوا لكنهم لا يمكن أن يفرطوا فى قاراباغ لأحد » .

الأديب وعناد السياسة :

يقول بختيار وهاب زاده فى معرض امتصاص الكفار الروس الماركسيين لثروات بلاده المسلمة :

« قالت لنا جمهورية روسيا الاتحادية - وهى وارثة الاتحاد السوفييتى - إن علينا دَيْناً لها يبلغ ٦٠ مليار روبل . وأنكرنا على الروس هذا . قلنا لهم أعطونا أولاً كل ما سلبتموه إياه من ثروات بلادنا وذهبت لمنافعكم . اعطونا ثمن البترول الذى سحبتموه من أرض بلادنا طيلة سبعين سنة . فإذا فعلتم هذا فلا بد أن ندفع لكم ما تقولون إنه دَيْنٌ علينا !

لقد نهب الروس منا حتى اليوم ملياراً و ٢٥٠ مليون طن بترول ، ثم يحدثوننا عن دَيْن علينا لهم ؟!!

الشاعر والشعر فى آذربيجان :

« ونحن هنا فى آذربيجان نحترم أصحاب اللحى البيضاء ونحترم طائفة الشعراء . يُعَدُّ من الفخر فى بلادنا أن نشترك فى حفلات زواج أولاد الشعراء . لكن هناك شعراء لهم اعتبار أكبر . وهذا يتعلق بشخيصة الشاعر نفسه . وهذا يتوقف أيضاً على مدى اهتمام الشاعر فى بلادنا بآلام أمته .

وفى شعوبنا المسلمة فى آسيا الوسطى والقوقاز كان الضغط الروسى رهيباً ، لكن هذا الضغط الرهيب أظهر للعالم كُتَّاباً مسلمين كباراً مثل : جنكيز آيتْماتوف الأديب القيرغيزى الكبير . كل أعمال جنكيز آيتْماتوف ضد الاستعمار السوفييتى من أولها إلى آخرها . لو لم يكن جنكيز قد عاش هذا الضغط الروسى ما كان بمستطيع كتابة روايته الرائعة . إن روايته « يمتد اليوم ليصبح قرناً » عمل أدبى مدهش .

إن فى بلادنا آذربيجان احتراماً للكتَّاب والشعراء قَلَّ أن نجده فى الدول المجاورة . ليس الأدباء بهذا القدر المحترم فى تركيا وجورجيا ، بل ولا فى أرمينيا .

شعبنا فى آذربيجان شعب قارئ يعشق الأدب ويقتنى الكتب الأدبية ، ولذلك فطباعة الكتب الأدبية عندنا تجد رواجاً هائلاً بالنسبة لدول كثيرة أخرى . على سبيل المثال : آخر كتاب طُبع لى منه خمسون ألف نسخة ونفدت فأُعيد طبعه فى ٢٦ ألف نسخة » .

ليت كل الناس شعراء :

يقول بختيار وهَّاب زاده فى ديوانه :

« أحياناً نسمع من الناس ما معناه : ما أكثر ما عندنا من شعراء ، إن الأمة تحتاج المهندس وتحتاج الطبيب . أما أنا فأقول : فليكثر الشعراء فينا وليت كل الناس عندنا يُولدون شعراء . لا تغضبوا ممن يقول لكم إن الشعراء كثيرون ، بل قفوا احتراماً أمام الكلمة الطيبة .. الشعراء لا يهتمون بمنصب ولا بوظيفة ما دامت قلوبهم سليمة وأصوات قلوبهم تنادى بحب الوطن . وأكبر واجبات الشعراء – عندنا – الترنم بحب الوطن ، فالترنم يعنى الحفاظ على الوطن » .

[٤]

جنكيز ضاغجي

وُلد جنكيز ضاغجي عام ١٩٢٠ فى « قيزيل طاش » إحدى قرى يالطا فى القرم ، فى وقت المجاعة التى حدثت فى القرم واحتجاج القرميين على إصرار ستالين على إقامة وطن قومى لليهود فى القرم .

وعندما بلغ جنكيز الثانية عشرة من عمره شاهد بنفسه احتلال الروس لأرض أبيه الفلاح المتوسط الحال ، وتحويل أصحاب الأراضى الكبيرة إلى (عبيد) فى المزارع التعاونية ، وأثَّر فى نفسه تأثيراً سيئاً انعكس بعد ذلك فى أدبه . وأُلقى القبض عليه ، ونفى مع جزء كبير من أهل قريته وكان بينهم أعمامه . وبموجب قرار حكومى حرم بقية أفراد أسرة جنكيز من العمل « عثمان قرجة قابلان ، حول روايات جنكيز ضاغجى ، مجلة حركة عدد ٦ / ١٩٧٩ ، استانبول » .

فى هذه الظروف تلقَّى جنكيز تعليمه الابتدائى فى قريته ثم الإعدادى فى مدينة « آق مسجد » (١٩٣٨) والتحق بمعهد التربية فى آق مسجد لكنه لم يكمل دراسته لتجنيده فى الجيش الروسى عند قيام الحرب العالمية الثانية (١٩٤٠) .

حارب جنكيز فى جبهة أوكرانيا ضد الألمان ، ثم أدخله الروس مدرسة الضباط فى أوديسا حيث تخرج برتبة ملازم دبابات (١٩٤١) وفى نفس العام وقع جنكيز فى أسر الألمان .

وفى السنوات الأخيرة من الحرب بعد هزيمة الألمان تخلص جنكيز من الأسر ولجأ إلى الحلفاء . وفى عام ١٩٤٦ استقر فى انكلترا مع زوجته البولندية وابنته الوحيدة ، ثم افتتح مطعماً فى حى (Chelsea) فى لندن ، وما زال يديره حتى الآن (١٩٩٣ م) .

وكما كانت مرال الإفغانية على غير علم بإمكاناتها الإبداعية فى التعبير عن جهاد شعبها الأفغانى ، ليسجل الجهاد الأفغانى لنفسه فصل تفجيره لطاقات مرال المبدعة ،

كانت مأساة شعب القرم المسلم مفجِّرة لإبداعات شخص لم يكن على أدنى علم بطاقاته الهائلة التى يطلقها من عقالها تأثير قرار « جوزيف ستالين » الديكتاتور الروسى فى عام ١٩٤٤ م بنفى شعب القرم المسلم من شبه جزيرته (القرم) وإلقائه فى بيادى البلدان المجاورة ليقيم الشيوعيون وطناً لليهود السوفييت فى القرم ، ساعتها قامت عربات السكة الحديد المخصصة لنقل الحيوانات بنقل مسلمى القرم إلى المعسكرات التى خُصصت لهم فى آسيا الوسطى ، وظلوا مشردين بها .

كانت بداية ضاغجى الأدبية كما سجلها ناشر رواياته كالآتى :

« كنت أجلس فى مكتبى فى يوم من أيام أغسطس عام ١٩٥٥ م وإذا بظرف بريدى كبير يأتى من لندن . فتحت الظرف فإذا بى أجد خطاباً وحكاية طويلة . وفهمت من الخطاب أن مرسله تركى من القرم يدعى « جنكيز ضاغجى » وأنه استقر فى لندن غداة الحرب العالمية الثانية . وفى لندن رأى أحد كتبنا يُباع هناك فقرر أن يرسل لى أول إنتاجه الأدبى . وكانت هذه الحكاية التى أرسلها لى بعنوان « صديقى عبد المقصود » وكانت فى حدود مائة صفحة صغيرة مع بعض الاختلافات اللغوية ، فهمت منها أننى أمام فنان كبير ، خاصة وأن موضوع حكايته مأساة القرميين .

كتبت له أفكارى حول قصته ، فردَّ على قائلاً : إن هذه أول مرة يمسك فيها القلم ويكتب رواية . وهو الآن – عام ١٩٥٥ م – يحاول كتابة رواية كبيرة عن مأساة بلاده بعنوان « مذكرات صادق طوران » وأنه سيرسلها لدارنا .

وبعد فترة أرسل لنا مسودات روايته هذه حتى أكوِّن رأياً عنها ، فإذا بى أجد نفسى أمام عمل أدبى رائع كبير وليس فى هذا أدنى مبالغة » .

ترى ما هو هذا العمل الأدبى الهام ؟

« السنوات الرهيبة » أولى أعماله :

كانت رواية « السنوات الرهيبة » أول وأعظم ما كتب جنكيز . أرسلها عام ١٩٥٦ م للنشر – وترجمها كاتب هذه السطور إلى اللغة العربية عام ١٩٨٨ م ١٤٠٨ هـ –

وهى عبارة عن رواية قرمى جُنِّد فى الجيش السوفييتى ضابطاً واشترك فى الحرب العالمية الثانية ، وكان مضطراً للحرب تحت علم الاتحاد السوفييتى وهو لا يحبه بل يكرهه وينفر منه ، ثم يقع هذا الضابط أسيراً للجيش الألمانى فى أثناء حربه ضد روسيا ، وأودعه الألمان معسكرات التجمع التى لم يراعوا فيها ديناً ولا عرفاً . وذاق الأمرَّين فى هذا المعكسر الرهيب . ثم كوَّن الألمان جيشاً من مسلمى الاتحاد السوفييتى أطلقوا عليه اسم « جيش تركستان » ليحاربوا به الروس . وفى هذه المرة كان من سوء طالع ضابطنا أن كان عليه محاربة الروس تحت العلم الألمانى .

وتعكس رواية « السنوات الرهيبة » أحاسيس القرمى المسلم الذى يريد التخلص من تبعية بلاده للاتحاد السوفييتى وأحاسيس هذا القرمى المسلم فى النفور أيضاً من السيطرة الغربية الألمانية عليه . يريد أن يعود لوطنه ليعيش عزيزاً فيه . إنها تصور مأساة رجل يفقد وطنه وكل ناسه وأهله . الأرض نفس الأرض ، لكن لم يعد فوقها من القرميين شخص واحد . كان يحلم بعودته لبلاده ذات يوم لتحتضنه أمه ، لكن هذه الأرض تعج الآن بالأجانب ، ولم يعد فى بلاده القرم قرمى واحد .

وصف كاتب سعودى رواية « السنوات الرهيبة » فى مقالة فى جريدة « الشرق الأوسط » بقوله :

« بعض الكتب يسبب لك ألماً أكثر من مبضع الجراح ، ويسبب لك وجعاً أشد من وجع الضرس ، ولكنك رغم هذا تمضى فى القراءة وفى الألم ، وليس حبًّا فى التألم ولا هو مازوخية أو تعذيب للذات ولكن لأن مادة الكتاب عظيمة رغم الألم . ممتعة رغم الوجع .. وإننى أهيب بالنوادى الأدبية فى السعودية وباتحادات الكتاب ونقابات الصحفيين فى العالم المسلم كله أن يجعلوا من هذه الرواية مادة لحوار واسع وخصب » .

وعندما وجد « جنكيز ضاغجى » أنه استطاع أن يلفت الأنظار ويجذب الاهتمام إلى مأساة بلاده القرم من خلال روايته هذه انطلق يكتب الرواية حتى وصل عدد ما كتبه من روايات أكثر من عشر روايات ، كلها تعبِّر عن بلاده القرم وأهله القرميين . وهذه الروايات هى : « السنوات الرهيبة – الرجل الذى فقد وطنه – هم أيضاً كانوا بشر –

سنوات الموت والرعب – هذه الأرض كانت أرضنا – الحياة فى الكولخوز – العودة – الشاب تيموجين – الأطفال المشنوقون على أغصان شجرة الزيتون – الشارع المصاب بالبرد » . وكلها – كما سبق القول – تتغنَّى بالأرض القِرمية السليبة وتتمنَّى عودة القرميين إليها .

وفى تعبير جنكيز ضاغجى عن أرض بلاده عذوبة ورقة وشاعرية وإحساس بالفقد وإحساس بالأمل أيضاً فى العودة إليها مرة أخرى . وخير نموذج لهذا ما كتبه فى روايته الطويلة « هذه الأرض كانت أرضنا » يحدث أرض القرم السليبة على لسان أحد الفلاحين القرميين بقوله :

« حديثنى يا أرضى ، أمعقول أن أتركك وأذهب ! ألست أنت أرضى ؟! أجدادى وُلدوا هنا . نشأوا هنا .. عاشوا هنا .. وماتوا هنا !.. كنت يا أرضى بواراً ففلحناك . أجدادى وأنا نظَّفنا ترابك . انظرى يا أرضى إلى يدىَّ الجافتين المشقوقتين هاتين ، لقد طهرتك من الحصى ومن الكلأ .. طهرتك من الأعشاب وجعلتك جميلة مثل الجنة » .

لم تصدر منى شكوى ضدك . إذ كيف أشكو ؟! وسعادتى تكون بقدر ما أصابنى من جهد وإرهاق فى أثناء تطهيرى لك وفلاحتى فيك . كثيراً يا أرضى ما غرستُ بيدى هاتين أغصان العنب فيك .. كنت أرويك يا أرضى بدموعى بينما كنت أدعو الله أن يمنَّ عليك بالماء .

حبات أعنابك يا أرضى عندى بمثابة حبات اللؤلؤ فى الجنة .. أوراقك يا أرضى عندى بمثابة قطع الذهب . لا رغبة لى فى هذه الدنيا إلَّاك أنت .. أنت يا أرضى .

عن جنكيز ضاغجى :

وُلد جنكيز فى القرم ، وهى أرض اغتصبها روس الاتحاد السوفييتى يوم ٩ مارس عام ١٩٢٠ م . وُلد فى قرية تدعى « قيزيل طاش » وهى قرية قريبة من مدينة « يالطا » المشهورة .

والده قروى من أسرة متوسطة الحال تعيش على الزراعة ويُدعى « أمير حسين » .

وكانت حياة جنكيز تخلو من الراحة والطمأنينة بين المجاعات التى حدثت من سوء النظام الشيوعى وكان - نظاماً جديداً وقتها - وبين الزلازل الطبيعية .

وفى عام ١٩٣٢ م أُخذت الأرض بالقوة من الفلاحين المسلمين ، وأسس الشيوعيون مزرعة جماعية (كولخوز) فى القرية ، وأجبرت السلطة الشيوعية مالكى الأرض أن يتحولوا إلى أجراء أرقّاء للسلطة .

وفى ظل النظام الشيوعى الإرهابى اقتحم دارهم مجموعة جنود روس مدجَّجين بالسلاح ليسوقوا والده إلى السجن وإلى التعذيب . وفى اليوم التالى فصلت المدرسة جنكيز - وكان فى المدرسة الابتدائية - لمجرد أن والده قد قُبض عليه . ثم قامت السلطات الشيوعية فى ذلك الوقت باقتياد أعمام جنكيز إلى المنفى ، وهذا المنفى غير معلوم مكانه . ورأى جنكيز بأم عينيه أنه فى فترة قصيرة تمَّ إخلاء نصف القرية من أهلها . وظل هو مع أمه وسبعة من إخوته . وزاد الأمر سوءاً أنه كان هناك قرار بعدم تشغيل أى أحد له أقارب مقبوض عليهم أو سجناء . وهذا القرار أتى بالفقر والبؤس إلى هذا المنزل الطيب الكريم .

وبعد عام من هذا خرج أبوه من السجن ، وكانت الأسرة كلها مضطرة للعيش فى كوخ - وليس بيتاً - افتقدوا فيه الجو الصحى للحياة . وظل هذا الأمر حتى عام ١٩٤٠ م .

لكن جنكيز استطاع بعد انتقال أسرته من القرية إلى مدينة « آق مسجد » أن يدخل المدرسة . وعندما تخرَّج من المدرسة المتوسطة عام ١٩٣٩ التحق بمعهد التربية وظل فيه سنتين إلى أن جُنِّد فى الجيش الروسى برتبة ضابط احتياط ليحارب الألمان . لكنه وقع أسيراً فى يد القوات الألمانية عام ١٩٤١ م ، وأمضى أياماً سوداء فى معسكرات الأسر الألمانية . وأخيراً استطاع الهرب إلى انجلترا ، وطلب حق اللجوء عام ١٩٤٦ م ومنحته بريطانيا هذا الحق ، وتزوَّج هناك وله الآن ابنة . وهو الآن (عام ١٩٩٣ م) يتحدث باسم شعبه القرمى فى محاولة لإقناع العالم بأن يؤيِّد قضية بلاده فى السماح للقرميين المشتَّتين فى كل أرجاء الاتحاد السوفيتى أن يعودوا لأرضهم وبلادهم القرم ليعيشوا فيها وهذا حق طبيعى . وهذه حياته الحقيقية صوَّرها كما هى فى روايته « السنوات الرهيبة » .

وعن حياته - كما مرت - يقول جنكيز ضاغجى :

« الحمد لله على إسلامى أنا التركى القرمى جنكيز ضاغجى . وأقسم بالله أن كل ما كتبته عن حياتى صحيح وأنه حقيقة » .

الفصـل الثانـى

تراجم أدبية معاصرة من البلقان

١ – محمد سليموفتش (البوسنة والهرسك) .

٢ – رجب كوبجى (بلغاريا) .

[١]

محمد سليموفيتش
رائد الرواية الإسلامية المعاصرة فى البوسنة

جمهورية البوسنة والهرسك جمهورية إسلامية مستقلة . كانت إحدى الجمهوريات الفيدرالية الست التى كوَّنت اتحاد دولة يوغسلافيا ، وعاصمتها « سراى بوسنة » أو « سراييفو » . المسلمون هناك أكثرهم بوشناق ، والبوشناق قوم أعزهم الله بالإسلام ، وكانوا فى قديم الزمان من البوغوميل أقرب أهل أوروبا إلى الإسلام .

وأنقل هنا عن الدكتور على الكتانى فى كتابه الرائد القيم « المسلمون فى أوروبا وأمريكا » عبارة كانت دائماً تستلفت انتباهى عن البوشناق : « لقد حافظ الشعب البوشناق على تقاليده القبلية ، ولم يقتنع بالنصرانية لا فى مذهبها الكاثوليكى ولا الأرثوذكسى ، وبقيت دولة البوشناق تقف موقف الحياد بين نزاعات الصرب « الأرثوذكس » والكروات « الكاثوليك » الدينية . وأعانهم على ذلك موقعهم المنيع فى جبال وعرة ، فتكونت كنيسة مستقلة سُمِّيت بالكنيسة البوشناقية أو البوغوميلية ، وكانت هذه الديانة البوشناقية فى كل مظاهرها وعقائدها قريبة من الدين الإسلامى ، فأثارت حقد البابا وملوك المجر الذين حاولوا جهدهم إرغام البوشناق على اعتناق المذهب الكاثوليكى ، وأنقذهم الله على يد السلطان محمد الفاتح فاتحاً لبلادهم ، ومنه عرفوا الإسلام فصاروا من أقوى أنصاره وأعز حماته طيلة الحكم العثمانى » .

ولغتهم هى الصربية الكرواتية .

ويصف كاتب تركى معاصر عاصمة جمهورية البوسنة والهرسك بقوله : كل ناحية فى سراييفو مليئة بالمساجد وبالآثار المعمارية العثمانية ، وكانت فى إدارة العثمانيين من ١٤٣٥ م حتى عام ١٨٧٨ م ، وفى ذلك العهد كانت أكبر مدن البلقان فناً وحضارة وثقافة . اسم العاصمة « سراى أوفا » و « سراييفو » وأطلق الأتراك عليها « بوسنة سراى » ثم أصبحت بعد ذلك « سراى بوسنة » .

وعبر العصور بنى العثمانيون فيها وعمروا كعادة العثمانيين إذا نزلوا بلداً يبدأون ببناء المسجد – المدينة ، أى المسجد وملحقاته : المستشفى والحمام والمدرسة والسوق . ورغم التخريبات الكبيرة التى أحدثها احتلال النمسا والمجر ، وكذلك الحروب الأخرى التى حدثت فى البلاد فإن سبعين جامعاً وقفت – قبيل التدمير الصربى – فى شموخ هذه المدينة « سراى البوسنة » أهمها : جامع فرحات باشا ، وجامع السوق ، وجامع على باشا ، وجامع الخونكار . فضلاً عن مدارس الغازى خسرو باشا والخانات التى بناها .. وإن سحر كلمة « السلام عليكم » التى يرددها أهل البلاد « وعليكم السلام » لتزيل كل إحساس للغريب المسلم بالغربة .

فى هذه البلاد الطيبة ، وفى مدينة طوزلا من بلاد البوسنة وُلد محمد سليموفيتش فى ٢٦ إبريل ١٩١٠ م . وُلد فى أسرة ثرية ثراء واضحاً . درس دراسته الابتدائية والإعدادية فى طوزلا ثم درس دراسته الجامعية فى بلغراد وكانت عاصمة للاتحاد اليوغوسلافى السابق . درس محمد سليموفيتش فى جامعة بلغراد فى كلية الفلسفة قسم اللغة والآداب . وفى عام ١٩٤١ اشترك فى الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب عاد إلى بلغراد وعمل فى الحكومة المركزية عضواً فى المجلس الثقافى الحكومى ، ثم إداريًّا فى دائرة العلاقات الثقافية بدول العالم الخارجى ، ثم عُيِّن عضواً فى هيئة التدريس فى المدرسة التربوية العالية فى سراى بوسنة عام ١٩٤٧ م ، ثم انتقل إلى كلية الفلسفة ليعمل أستاذاً مساعداً فيها ، ثم مديراً للدراما فى المسرح الشعبى بعد ذلك . أما بعد عام ١٩٦١ م فعمل مديراً عامًّا للنشر فى دار « سفيتلوست » فى سراى بوسنة .

بدأ التأليف القصصى والروائى بعد الحرب . وله سبعة أعمال مطبوعة :

١ – « أول اتحاد » ، مجموعة قصصية عام ١٩٥١ م

٢ – « الصامتون » ، رواية ١٩٦١ م

٣ – « البلد الأجنبى » ، مجموعة قصصية ، ١٩٦٥ م

٤ – « دراسات ومحاولات » ، دراسة ، ١٩٦٦ م

٥ – « السحاب وهالة القمر » مجموعة قصصية ١٩٦٦ م

٦ – « الدرويش والموت » ، رواية ، ١٩٦٧ م

٧ – « عن فوك فاراجيج » دراسات لغوية ، ١٩٦٧ م

وقد حازت مجموعته القصصية « السحاب وهالة القمر » على جائزة الأدب فى جمهورية البوسنة والهرسك . وفازت روايته « الصامتون » بجائزة أدب مدينة سراى بوسنة . وحازت روايته « الدرويش والموت » على عدة جوائز هامة منها : جائزة مجلة « فين » البلغرادية ، وجائزة أحسن رواية يوغسلافية عام ١٩٦٧ م ، وجائزة جريدة « فييسنك » وهى أهم جريدة تصدر فى زغرب (جائزة أحسن كتاب يوغوسلافى عام ١٩٦٧ م) كما حازت على جائزة مدينة سراى بوسنة .

وفى سنة ١٩٧١ م مُنِحَت روايته « الدرويش والموت » أيضاً جائزة آفنوى . وقد تُرجم العديد من أعماله الروائية والقصصية إلى عدة لغات .

[٢]

الشاعر الشهيد

رجب كـوبجـي

من بلغاريـا

« كان وضع المسلمين فى بلغاريا مأساة . إنهم لم يكونوا بأقلية صغيرة ، ولم يكونوا أيضاً بأقلية ثانوية ، فعددهم فيها لا يقل أبداً عن مليون ونصف نسمة . أى أنَّهم حوالى ١٦ – ١٧ ٪ من مجموع السكان ، وعددهم يتزايد بنسبة أكبر من نسبة تزايد بقية السكان فى البلاد . لكنهم – قبل التحرر من الشيوعية – كانوا تحت اضطهاد كبير ومهلك للقضاء على شخصيتهم الإسلامية . وكانت الدولة تحاول تنصير أبنائهم – على الأقل اسماً – بتبديل أسمائهم الإسلامية بأسماء نصرانية فى بلغارياً ، رغم أنها كانت دولة شيوعية إلا أنها كانت لا تضطهد النصرانية بل تضطهد الإسلام على وجه خاص ، ولا تضطهد الأتراك فقط بل تضطهد المسلمين كلهم بما فى ذلك البلغار والبوماق والأتراك . فليست القضية قضية قومية أو مسألة نزاع مع تركيا ، ولا هى مسألة ضد الأديان كلها ، بل هى عداوة للإسلام ذاته » .

بهذا لخَّص الدكتور على الكتانى وضع المسلمين فى بلغاريا . وكان ذلك فى لقاء لى معه حول الأقليات الإسلامية عام ١٩٧٧ م ، عقب صدور كتابه الموسوعى المفيد : « المسلمون فى أوروبا وأمريكا » وقبل تحرر بلغاريا من الشيوعية .

لكن الدكتور على الكتانى شد انتباهى بعبارة قالها وقتها وهى : « ومع الأسف الشديد لم تظهر زعامة للمسلمين البلغار لا داخلية ولا خارجية تقاوم هذا الاعتداء على الشخصية الإسلامية » . ولم يكن وقتها قد وصل إلى أسماع العالم بعدُ ما يدور فى بلغاريا من اعتداءات على الهوية الإسلامية .

وفى مجال دراسة قمت بها حول أدب المقاومة الإسلامية بين الشعوب الناطقة بغير العربية وجدت شخصيات قيادية فى الفكر ، وفى الحركة ، وفى الأدب ، تبلغ الذروة فكراً وفناً وحركة ، أمثال : « نجيب فاضل » فى تركيا ، و « جنكيز ضاغجى » فى منطقة القرم - التابعة سياسيًّا لأوكرانيا .

وبعد دراسة للإدب الإسلامى فى بلغاريا إذا بى أجد نفسى أمام شخصية أدبية كبيرة أقلقت من يواجهها ، وذلك لأن الكلمة الأدبية المسلمة تحولت فى بلغاريا إلى حركة - وجدت نفسى أمام أدب الشاعر المسلم الشهيد « رجب كوبجى » .

قلنا إنه شاعر ، لأنه نظم الشعر فى ديوانين بلغته « التركية » ولغة عدوِّه « البلغارية » وقلنا : إنه شهيد لأن قصائده بتأثيرها فى المسلمين هناك أدت إلى إعدامه غيلة عام ١٩٧٦ م .

كان مولد شاعرنا الشهيد « رجب كوبجى » عام ١٩٣٤ م فى قرية « كوكلان » التركية التابعة لمدينة « فيليبه » فى بلغاريا ، لأب مسلم فقير يعمل بالفلاحة . درس رجب دراسته الابتدائية ثم المتوسطة فى قريته ، ثم سجَّل اسمه فى المدرسة التركية الخاصة بإعداد معلِّمى المرحلة الابتدائية بمدينة « قيرجه على » فى بلغاريا .

وبدأ رجب كتابة الشعر وهو فى المرحلة المتوسطة . وبدأ قراءته على إخوانه من المسلمين وهو لا يزال بعدُ فى مدرسة المعلمين هذه . وكان فى هذه المرحلة المبكرة يقف بإيمان وقوة أمام دعايات المعلمين البلغار ضد الإسلام والثقافة الإسلامية . فاتُّهم بالتعصب القومى ، فنقلوه وهو طالب بعدُ إلى مدرسة إعداد المعلمين التركية فى « راجراد » . إلَّا أن هذا ساعده على نشر أشعاره بدرجة أفضل . وتخرج « رجب كوبجى » فى هذه المدرسة عام ١٩٥٥ م .

بداية الكفاح :

فى العام الدارسى ١٩٥٩ - ١٩٦٠ م صدر قرار الحكومة البلغارية - بناء على توجيهات الحزب الشيوعى البلغارى - بإلغاء المدارس التركية . وأنظمتها التعليمية جميعها ، ودمجها فى المدارس البلغارية . وتبع هذا بالضرورة تغييرات كان منها تعيين

المدرسين المسلمين معلمين بالمدارس البلغارية . وصدرت إليهم الأوامر بأن يقوموا بتدريس اللغة البلغارية .

من هنا بدأ صدام « رجب كوبجى » رسميًّا بالسلطة الشيوعية فى بلغاريا ، لأنه خالف هذا القرار . وجاهر بصوت مرتفع – وهو فى غرفة المعلمين وقد أصبح مدرساً – قائلاً : « أنا مسلم تركى أقوم بتدريس اللغة التركية للمسلمين الأتراك هنا ، فكيف تأمروننى بتدريس اللغة البلغارية وهى لغة الكفار .. إنى أربأ بنفسى عن هذا . وكانت مقولته هذه ذريعة رسمية اتخذتها السلطات البلغارية لمحاكمته . ثم استجواب الشرطة بما تبع هذا من تعذيب . وكتبوا فى ملفه : « رجب كوبجى لا يصلح أن يكون معلماً » وعلى هذا أُلغى قيده من سجل المعلمين ، وصدر الحكم بأن يقضى مدة عقوبة قدرها سنتان ونصف عاملاً لصبِّ الحديد أمام أحد الأفران فى مصنع الحديد والصلب مع مراقبته من قِبَل الشرطة لأنه قد يجهر بالشعر أمام المسلمين .

نظَم « رجب كوبجى » فى مدة هذه العقوبة الشعر باللغة البلغارية ؛ ليثبت أن قضيته قضية مبدأ وليست ضعفاً منه فى اللغة البلغارية ، وليوصل كلمته المسلمة إلى البلغار .

وبعد أن قضى مدة عقوبته عُيِّن فى قسم اللغة التركية بجامعة « صوفيا » إلَّا أنه طُرد منها بعد عام واحد بسبب مناقشاته الحادة مع زملائه البلغار حول حماية اللغة التركية فى بلغاريا ، وبسبب نشره الفكرة الوطنية الإسلامية . فعُيِّن مراسلاً لجريدة الضوء الجديد (ينى إيشيق) فى مدينة « بورغاز » ، وهى جريدة كان يصدرها الحزب الشيوعى (!!) فى صوفيا موجَّهة إلى الأتراك فى بلغاريا .

أسباب تمرد الشاعر :

بدأت أجهزة الأمن البلغارية بمختلف فروعها التضييق على الشاعر « رجب كوبجى » لرفضه مشروع الحكومة البلغارية الخاص بإذابة العنصر المسلم فى الشخصية البلغارية ، والتى كان منها هدم وإغلاق المساجد ، وعدم السماح بقيام مدارس

لتحفيظ القرآن ، ومنع اقتناء نسخ من القرآن الكريم ، ومنع الزواج وفق الأصول الإسلامية ، ومنع المسلمين من دفن موتاهم إسلاميًا ، وإجبار نساء المسلمين على ترك الحجاب وإلزامهن بالتزيّى بزىّ البلغاريات السافرات ، وتغيير أسمائهم إلى أسماء بلغارية نصرانية .

أعقب صدور هذا المشروع حركة تمرُّد بين المسلمين فى بلغاريا ، فتدخلت الحكومة تدخلاً سافراً لقمعها . وكان لابد أن تبدأ الحكومة برصد حركات كبار رجال المسلمين فى بلغاريا ، ومنهم الشاعر « رجب كوبجى » .

وفى ٢٦ أبريل ١٩٧٦ م انضم « رجب كوبجى » إلى ركب الشهداء المسلمين فى بلغاريا الذين قتلتهم الحكومة الشيوعية البلغارية نتيجة معارضتهم مشروع الحكومة بإذابة العنصر المسلم فى المجتمع البلغارى الشيوعى . قبضوا عليه وهو يسير فى أحد شوارع مدينة « فارنا » ثم سحبوه إلى « حديقة البحر » حيث الأشجار الكثيفة وانهالوا عليه ضرباً ، وشجوا رأسه ، وظلوا يضربونه حتى فارق الحياة . بعدها أذاعت الشرطة بياناً قالت فيه : إنها عثرت على جثة « رجب كوبجى » فى أحد شوارع مدينة « فارنا » ثم أحضروا جثته إلى مدينته « بورغاز » حيث سلّموها لزوجته .

بعد ذلك قام الحزب الشيوعى البلغارى فى « بورغاز » بالتعاون مع شرطة المدينة بتنظيم جنازة كبيرة لتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير حيث دُفن . وأصدرت السلطات بياناً مقتضباً حول سبب الوفاة قالت فيه : « إنه مات نتيجة تسمُّمِه بأكلة فاسدة أكلها » .

رجب والشعر :

كان « رجب كوبجى » ينشر أشعاره فى الجرائد التركية فى منطقته مثل جريدة « شباب الشعب » . أما أول ديوان له فقد صدر عام ١٩٦٢ م فى خمس وثلاثين صفحة من القطع الصغير ، فيه خمسون قصيدة . وبالطبع فإن الرقيب الشيوعى قد حذف أغلب ما قدمه للطبع . وديوان شعره الثانى صدر عام ١٩٦٧ م بعنوان : « ما بعد هذا ليس حلماً » .

وكان للتربية الإسلامية التى تلقَّاها « رجب » فى بيته أثرُها فى تكوينه ، كما أن قراءته لشعر الشعراء الإسلاميين والوطنيين الأتراك فى تركيا قد أثرت كثيراً فى نضجه . ومن هؤلاء الشعراء : شاعر الإسلام فى تركيا « محمد عاكف » صاحب ديوان « صفحات » وصاحب نشيد الاستقلال التركى ، وكذلك الشاعر « يحيى كمال » كما أسهمت قراءات « رجب كوبجى » للشعراء الروس المتمردين مثل « ليرمنتوف » و « آسنين » فى نظمه الشعر .

إن شعر « رجب كوبجى » يزخر بالإيماءات الخاصة بنقد النظام الشيوعى ، ونقد الفكر الماركسى ، ونقد عملاء النظام وأجهزة الأمن فيه . ونجد فيه أيضاً تعبيراً غير مباشر « لظلام الحكم الشيوعى » والشكوى من : « الظلام ، والغدر ، وإخفاء الحقيقة كل الحقيقة عن الناس » وذلك : « بإسدال الستار الحديدى » على كل شىء . كما نجد فى أشعاره الأمل فى مستقبل حرٍّ للمسلمين فى بلغاريا ، والشوق إلى الوطن المسلم .

وتظهر فى أشعاره روح التحدى للنظام الشيوعى الخالى من الإنسانية . وكذلك نجد فى أشعاره : « الإيمان و « العزة » و « الكرامة » للمسلمين . وتبدو أيضاً الصرخة الذكية لإيقاظ المسلمين حتى يتنبهوا إلى مأساة إخوانهم فى بلغاريا .

إن الدعوة إلى التمرد ، وإدانة النظام الشيوعى بهدم المقدسات الإسلامية وحرمان المسلمين هناك من حقوقهم العقيدية والإنسانية الطبيعية ، وتشوقه لمواجهة الأعداء مواجهة مباشرة ، وإدانة النظام الشيوعى بالطعن فى الظلام — من الخطوط العريضة فى أشعار شاعرنا « رجب كوبجى » .

الفصـل الثالث

دراســـات أدبيـــة

١ - الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى تنبَّأ بسقوط الشيوعية .

٢ - الأدب الإسلامى المعاصر فى بلغاريا .

٣ - عندما صمت الشاعر ناظم حكمت قهراً فى دول آسيا الوسطى والبلقان أثناء الشيوعية .

[١]

الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى تنبأ بسقوط الشيوعية

قد لا يتفق معى الكثير من المهتمين « بآداب الشعوب الإسلامية داخل الاتحاد السوفييتى » والكثير من نقاد الأدب والأدباء خاصة إذا تعلق موضوع هذا الفصل بكاتب عالمى كبير هو الروائى « جنكيز آيتْماتوف » الحائز على جائزة لينين ، والذى يكنُّ له الكثير من الكتَّاب فى مصر أعمقَ آيات الاحترام والود ويميلون إليه . ولكن للكاتب أن يكتب وللناقد أن ينقد وللمفسر أن يفسر ، فمهما ادَّعى الكاتب وقال عن عمله فإنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً فى لحظات إبداعه ، وعندما تنتهى هذه اللحظات لنا أن نحاسبه بمقاييسنا ونطبق عليه أفكارنا ونحاول ونحاول ، وليس للكاتب وقتها إلا أن يسمع ويعى .

والواقع أنه لم يكن يدور بخلدى عندما قرأت رواية « جميلة » لجنكيز آيتْماتوف منذ سنوات عديدة أننى سأجد لها تفسيراً تاريخيًّا ، ذلك لأننى قرأتها مع نقدها وتفسيراتها من وجهات متعددة باستثناء النظرة التاريخية للرواية ، بمعنى ارتباط الرمز فيها بأحداث تاريخ قيرغيزيا وبتطور العلاقات الروسية القيرغيزية . وهذا ما حدث بعد قراءة وبعد اطلاع ودراسة لتاريخ الأدب القيرغيزى وتاريخ قيرغيزيا .

ولا بد من القول هنا إن الأدب القيرغيزى أدب شعب صديق للعرب ، شعب من شعوب منطقة بلاد التركستان كان مستقلاً ذات يوم ، وهو الآن جمهورية باسم قيرغيزستان بعد أن كان داخل نطاق الاتحاد السوفييتى .

وأنجب هذا الأدب روائع ، وبرزت فى سمائه نجوم ساطعة مثل « طوق طوقول » (١٨٦٤ - ١٩٣٩ م) الذى يُعتبر رائد الأدب القيرغيزى الحديث ، وهو صاحب الكلمة التى شاعت فأصبحت مثلاً : « للكلمة الصادقة رنين الذهب » .

وأنجب أدب قيرغيزيا الروائى الشهير « قاسم على باى علينوف » وهو مؤلف رواية « هجر » التى يصف فيها ما آل إليه مصير بلاده بعد ثورة القيرغيز على روسيا عام ١٩١٦ .

وأنجب هذا الأدب الشاعر الروائى « ناصر الدين باى تميروف » مؤلف رواية « السهم الأخير » عام ١٩٥٥ م والتى صوَّر فيها الحياة فى مشاتى القيرغيز وما صاحب قيام الكولخوزات من ثورة الفلاحين القيرغيزيين إبان تطبيق مبادىء ثورة أكتوبر .

لكن لا جدال فى أن أبرز أدباء قيرغيزيا وأكثرهم ذيوعاً و انتشاراً فى العالم أجمع هو : « جنكيز آيتْماتوف » الذى وُلد عام ١٩٢٨ وما زال يكتب . وهو روائى وإن اشترك مرة واحدة فى تأليف مسرحية مع كاتب آخر . وأبرز رواياته التى تُرجمت إلى لغات عالمية مختلفة هى رواية « جميلة » ، ثم رواياته : « بعد الأسطورة – أيها الجواد كول صارى .. وداعاً – معلِّمى الأول – وغيرها » .

وأخيراً صدرت له روايته : « يمتد اليوم ليصبح قرناً » .

وأشهد هنا أن الترجمة العربية لرواية « جميلة » التى تمَّت فى موسكو فى غاية الرداءة والركاكة ، وكان من الممكن أن تؤدى تأثيراً أجمل لو أعاد صياغتها أديب عربى حتى ترقى إلى بعض مستوى تأليفها . وأقول هنا أيضاً أن الترجمة التركية لهذه الرواية قام بها أتراك أدباء ونُشرت فى تركيا عدة ترجمات لها فأضحت صورة « جميلة » جميلة وأكثر تبياناً لما هى عليه فى الترجمة العربية .

ولا بد هنا أيضاً من إشارة سريعة موجزة إلى خصائص أدب « جنكيز آيتْماتوف » فنقول : إنه يعبر بشاعرية وانفعال عن وطنه قيرغيزيا وعن بواديه الواسعة وجباله الشمَّاء . ومن خصائص أدب « جنكيز آيتماتوف » روعة التعبير وبساطته عن حياة القرية ومعيشة الفلاحين فى بلاده وعن حياة الرعى التى ما زال بعض شعبه يحياها . كما يتميَّز جنكيز آيتماتوف باستلهامه القصص الشعبى والأساطير والملاحم القيرغيزية فى رواياته . ويشكل الحب والحرب عنصرين بارزين فى أدبه .

« جميلة » جنكيز آيتماتوف :

ولقد حازت رواية « جميلة » شهرة عالمية واسعة خاصة بعد أن تُرجمت إلى مختلف اللغات العالمية الواسعة الانتشار وإلى اللغات المحدودة الإنتشار أيضاً . ونالت أعظم جوائز الأدب فى الاتحاد السوفييتى .

الشاعر الفرنسى المعروف « آراجون » اعتبر رواية « جميلة » (أعظم قصة حب ظهرت فى الآداب العالمية) . والناقد السوفييتى « توركوف » بالغ فى مغازلته لـ « جميلة » . وكثرت الكتابات حول « جميلة » كل صاحب وجهة يريد تفسيرها حسب وجهته . رآها بعضهم (رمزاً للقوى الروحية التى اكتشفها أبطالها فى أنفسهم ..) و (هؤلاء الأبطال فى رواية « جميلة » أبطال استعبدتهم تقاليد الماضى وعاداته خاصة تلك التقاليد المتعلقة بالمرأة ووضعها ، تلك التقاليد التى تقول بأن سعادة المرأة فى الإنجاب) و (أن رواية « جميلة » تعبر عن طموح المرأة حتى لا تكون حياتها عادية لا مكان فيها لطموحات ومشاعر عالية) .

بين الرمز والتاريخ :

لكن الرؤية التاريخية أو فلنقل التفسير التاريخى لرواية « جميلة » تقول إن هذه الرواية رمز يقصد تاريخ شعب قيرغيزيا وتطوراته وواقعه ، ثم يربط الروائى « جنكيز » بين هذا الرمز التاريخ ليصل إلى استشراف آفاق المستقبل فى قيرغيزيا ، لأن « جميلة » بطلة الرواية (وتمثل أو ترمز للشعب القيرغيزى) فتاة جميلة قوية تنبض بالحياة وبالشباب والحيوية والأصالة . وكانت ترعى الخيول فى جانب من جوانب قريتها . وذات يوم ظهر شاب قوى من قرية كبيرة مجاورة لقرية جميلة ، يرعى الخيول ويفخر بقوته . ويبدو أن جميلة لم تعجب به وكان اسمه صديق (ويرمز إلى روسيا فى الواقع التاريخى) . ولما وجد صديق أن إعجابه بمفاتن جميلة وإمكاناتها الجسدية وحيويتها لم يؤثر فيها من قريب ومن بعيد قام بخطفها ليتزوجها (ويرمز الروائى هنا إلى الاحتلال الروسى لقيرغيزيا بالقوة الجبرية المسلحة عام ١٨٧٦) . ومن ثَمَّ أودعها بيت أسرته بقريته ، تلك القرية الأكبر المجاورة لقرية جميلة .

وكان بيت أسرة صديق كبيراً ، يضم أفراداً مختلفين مثل أخيه الصغير وزوجات إخوته (وهذا البيت يمثل الاتحاد السوفييتى) وكانت أم صديق تهيمن على البيت الكبير ، تارة بالقوة والشدة وتارة برفق يشوبه السيطرة وإظهارها (ترمز أم صديق وحماة جميلة هنا إلى سلطة الحزب الشيوعى المركزى) .

وقامت الحرب العالمية الثانية وجُنِّد صديق وذهب إلى الجبهة . وفى هذه الأثناء كانت الأم تطلب فى حزم من كل أفراد الأسرة الكبيرة – بما فيهم جميلة قيرغيزيا – الطاعة العمياء لها والانقياد دون مناقشة . وكانت الأم (الحزب) تتمنى من جميلة (قيرغيزيا) زوجة أبنها المخطوفة قهراً الإخلاص لصديق (الاتحاد السوفييتى) .

لكن جميلة لم تكن تعرف إحناء الرأس ، خاصة أمام الكبار ، لا فى البيت الكبير ولا فى القرية فكانت دائماً متمردة (ولعل المؤلف يرمز بهذا إلى انتفاضات الشعب القيرغيزى المتكررة ضد السلطة السوفييتية) وكانت جميلة – مع ذلك الزجر وهذه الإهانات نتيجة تمرُّدها على البيت الكبير – تحب أن تغنِّى وتشتاق دائماً إلى الغناء (بمعنى تَوْق قيرغيزيا جميلة إلى الحرية) .

كان عمل جميلة فى بيت أهل زوجها شاقًّا ، فكان يُوكل إليها من الأمور الشاقة فوق طاقة تحملها مما جعلها دائماً فى مشقة . وعرفت جميلة مدى اهتمام زوجها بها من خلال رسائله التى كان يرسلها فى الجبهة إلى أمه دائماً فكان لا يذكر جميلة فى الخطابات إلا فى جملة مقتضبة فى نهاية كل رسائله (ولعل هذا مما يبرز لنا مجالات أهمية جميلة قيرغيزيا لدولة الاتحاد) .

وعندما صدر قرار السلطة السوفييتية فى البلاد بقيام زوجات الجنود بالمساعدة فى أعمال تموين الجيش قال رئيس عمال القرية : إن على جميلة نقل القمح ويساعدها فى هذا الأخ الأصغر لصديق ورجل آخر يدعى دانيار (وسيرمز فى الرواية إلى الحرية كان التى ينشدها القيرغيزيون) وبالتالى حصلت على عربة ذات حصانين) .

دانيار والحب والحرية :

كان دانيار جنديًّا جريحاً وفلاحاً ، كان يقطن قديماً (وهو الحرية) فى نفس

المنطقة ، لكنه هاجر منها وذهب إلى القوقازيين أقاربه من ناحية أمه ، ثم عاد إلى القرية كبيراً . وكان به عرج ، لكنه كان قويًّا ، دقيقاً فى العمل ، طيباً ، ينظر أمامه إلى جهة ما بنظرة كلها ألم وافتقاد (رمز النظر إلى التاريخ القيرغيزى القريب والتطلع إلى الأمل فى المستقبل) . كان فى صوت دانيار قوة ، وكان – بتعبير الرواية نفسها – يغنى أغنيات شوق إلى الوطن (وفى هذا رمز لحب شعب قيرغيزيا للحرية) .

ومن خلال العمل المشترك والآلام المشتركة أحبت جميلة دانيار وأحبها وتشابكت أيديهما تشابك حب نسيجى قوى . فتحداهما أهل القرية (رمز الشعوب الروسية المختلفة) فزادهما التحدى حبًّا .

وكانت جميلة تطلب من حبيبها دانيار أن يغنى فكان يغنى ويتغنى بوطن هو أرض آبائه وأجداده ويقول : « أنت أرض آبائى وأجدادى .. أنت مهدى » . وفى لحظة حب قالت له جميلة : « أين كنت إذن من قبلُ يا دانيار » .

وعلى حين فجأة وصلت من الجبهة رسالة من صديق إلى زوجته جميلة يخبرها بأنه قادم ، أمسكت جميلة بالرسالة ونظرت إلى دانيار فوجدته فى ضيق شديد . قالت له : « وهل من الممكن أن أفضله عليك ؟! كلا .. أبداً .. إنه لم يحبنى قط .. فمنذ زمن بعيد ! وأنا أحبك أنت . وحين كنت لا أعرفك كنت أحبك .. وكنت أنتظرك ، وها قد جئت كما لو كنت تعلم أننى أنتظرك » .

تلتقى جميلة (قيرغيزيا) بدانيار (الحرية) ويهربان معاً دون نظر إلى الوراء . وأراد أهل القرية اللحاق بهما لقتلهما ولم يتمكنوا .

ثم يأتى عقب هذا صديق زوج جملية من الجبهة .. علم بالأمر ، فقال ساخطاً : « لقد ذهبت جميلة فهذا طريقها » .

وهذا طريق جميلة :

رغم التفسيرات العديدة لهذه الرواية العالمية ذات القيمة الأدبية والفكرية العالمية ، فإنى أرى أن « جنكيز آيتماتوف » يعبِّر فيها ، لا عن حب بين رجل وامرأة

كما تصور « آراجون » ولا عن شجب عادات قديمة وطموح إلى مستقبل فيه عادات جديدة تختلف عما كان فى التراث كما تصور « توركوف » – وإنما أراد جنكيز آيتماتوف – فى هذا التفسير التاريخى لرواية جميلة على اختصاره – أن يعبر – شعر بذلك أم لم يشعر – عن مأساة شعبه القيرغيزى بدءاً بالاحتلال الروسى القيصرى لقيرغيريا عام ١٨٧٦ إلى مجىء السلطة الثورية التى كونت الاتحاد بعد ذلك ، ثم قيام الشعب القيرغيزى بانتفاضاته وثوراته العديدة – وقد سجلها فى أدبه – وفشل هذا الشعب فى تلك ، لكنه أخذ يتوق إلى الحرية ويتوق إلى الأمل فى الحرية التى أحبها وانتظرها ، وأنه فى النهاية لا بد أن تتجه قيرغيزيا إلى آفاق رحيبة من الحرية « فهذا هو طريقها » كما قال صديق فى رواية « جميلة » .

وقد استقلَّت قيرغيزستان بعد ذلك والتقت بحرِّيتها بعد انهيار الاتحاد السوفييتى .

[٢]

الأدب الإسلامى المعاصر فى بلغاريا

عرفت بلغاريا الإسلام عندما رفرفت رايات النصر العثمانية على منطقة البلقان ، وبالتالى عرفت بلغاريا الأدب الإسلامى .

وتشهد مكتبات العالم بما لدى المسلمين فى البلقان من آداب وعلوم إسلامية ، والمخطوطات خير دليل .

وعندما تكاتف الغرب الصليبى على الدولة العثمانية اضطرت للانسحاب من النمسا والمجر ورومانيا ويوغوسلافيا وألبانيا واليونان ، انسحبت بعد أن تركت تراثاً إسلاميًّا هائلاً ، ومن ضمن هذا التراث الأدب الإسلامى .

وعنايتنا هنا بالأدب الإسلامى (المعاصر) فى بلغاريا . وهو الذى بدأ على يد مجموعة من المعلمين المسلمين من الذين عاشوا فى بلغاريا فى القرن الماضى ، وقاموا بدور الريادة فى إرساء أسس هذا الأدب .

التزم الأدب الإسلامى المعاصر فى بلغاريا فى أوائل تكوينه بالأدب الشعبى ، ولم يكن من الممكن للحكومات البلغارية منعه وقتها . لذلك يتضح تأثير هذا الأدب غير المكتوب على الأدب الإسلامى المعاصر فى بلغاريا . يتضح فى أعمال كل من : حسن قاراحسين ونيازى حسين وشاهين مصطفى ولطيفة على وأحمد شريف نوزاد محمد وصلاح الدين بايرام ولطفى دمير .

الأدباء المسلمون ومجتمعهم :

اتخذت هذه المجموعة الرائدة رؤيتهم للقرية المسلمة فى بلغاريا بالحياة الاجتماعية فيها وأهلها وتقاليدهم الإسلامية وفنونهم الشعبية من أناشيد ومسرح متجول وآلة « الساز » التى تشبه الربابة عند المصريين . واتخذت هذه المجموعة الرائدة الوزن الحر فى أشعارهم .

انضم لهذه المجموعة بعد عام ١٩٥٠ ميلادية مجموعة أثْرت الأدب الإسلامى فى مرحلته هذه ، وهم :

طورخان حسن وعثمان عزيز وناجى فرحات ورجب كوبجو .

كان الجيل الثانى – إذا جاز هذا التعبير – أكثر نضجاً فنيًّا وأدبيًّا من روادهم ، ولذلك كانوا أكثر تطوراً وأنتجوا أعمالاً أدبية نستطيع القول بنضجها ، ومما زاد هذا النضج أن المسلمين فى بلغاريا استطاعوا الحصول على الكتب الأدبية التركية من استانبول ، ولما كان المسلمون فى بلغاريا يشكِّلون فى أغلبهم العرق التركى فإنهم يتخذون تركيا النموذج لهم .

وتحضرنى هنا حادثة « أدبية » هامة ، أود قولها ، وهى أن الحكومة البلغارية كانت فى السبعينيات من هذا القرن الميلادى قد تعبت كثيراً من مقاومة الأقلية المسلمة فى بلغاريا ، ولما كانت هذه الأقلية على وعى بدورها فقد تماسك أفرادها وقاوموا كل أنواع الضغط الشيوعى الرسمى من تغيير للأسماء المسلمة وعدم إتاحة فرصة العبادة والضغط على المسلمين ليتعلموا الثقافة البلغارية بديلاً عن الثقافة المسلمة . ساعتها استدعت الحكومة البلغارية الشاعر التركى الشيوعى الذائع الصيت « ناظم حكمت » للتفاهم مع الأقلية التركية المسلمة فى بلغاريا لإقناعهم بأعمال الحكومة البلغارية . وقابلوا ناظماً وقالوا له : « كيف ترضى أنت يا ناظم بما يحيق بنا ، إنهم يحرِّمون علينا العبادة ويمنعونا من دخول مساجدنا ويرفضون أن يتعلم أولادنا ديننا . إنهم يريدون القضاء على لغتنا التركية الجميلة يا ناظم » . ولم يستطع ناظم قول شىء فقد أسكته القهر الذى تبذله الحكومات البلغارية ضد الهوية الثقافية والفكرية الإسلامية التى يحملها هؤلاء المسلمون الأتراك .

ثم جاء الجيل الثالث من الأدباء المسلمين فى بلغاريا . وفى هذا الجيل اتضحت أكثر وأكثر الهوية الأدبية والأداء الغنى وفنية التعبير والعرض والتكوين . والذى ميَّز هذا الجيل الثالث اهتمامهم بالتعبير ، ليس عن مشاكل الأقلية المسلمة فى بلغاريا فقط بل اتجهوا – بحكم الضغط الرسمى البلغارى – إلى توظيف أدبهم فى خدمة قضايا المسلمين فى بلغاريا بشكل مباشر ، كما اهتم هذا الجيل الشاب بالقضايا العالمية وربط قضايا بلادهم بهذه القضايا العالمية فى أدبهم .

أبرز أسماء هذا الجيل : « مفكورة مُلَّا » والتى امتازت بغنائيتها الفنية الرقيقة ، و « حسن حسين » الذى امتاز برقة أحاسيسه و « رضا مُلَّا » و « إسحاق رشيد » و « شكرى طاهر أوغلو » .

نخصَّ هنا بالحديث : رضا مُلَّا ، الذى قدَّم دراسة عن أدب المسلمين فى بلغاريا ، وهو أدب قد يكون من الصعب – فى الواقع – تتبُّعه . وقد عانى كاتب هذه السطور كثيراً فى تتبعه – أقول : قدَّم رضا مُلَّا دراسة هامة ألقت أضواء طيبة على هذا الأدب الذى نحن بصدده وأسمى دراسته هذه بعنوان« من أدب المسلمين الأتراك المحلى » نشره فى ملحق الأدب والفن المعاصرين » الذى تصدره جريدة ينى إيشيق » (يعنى الضوء الجديد) فى العدد (٢٠٠) كما قدَّم رضا مُلَّا « تقريراً » علميًّا هامًّا بعنوان : « إرهاصات أدب المسلمين الأتراك الحديث والمعاصر فى بلغاريا » قدمه إلى جامعة الدولة فى جمهورية آذربيجان . وكان ذلك عام ١٩٣٧ م .

تجريم الأدب الإسلامى :

إلا أن الحكومة البلغارية الشيوعية دأبت ابتداء من عام ١٩٦٧ على القيام بضغوط ضد المسلمين الأتراك فى بلغاريا نتج عنها أن فرضت السلطات الرسمية على الأدباء المسلمين أن يطرحوا التعبير الأدبى والفكرى بلغتهم جانباً وضرورة استخدام اللغة البلغارية بديلاً عن اللغة الإسلامية التركية . وأحدثت هذه السياسة الجديدة تضاؤل الكتابة الأدبية الطبيعية بين المسلمين . وكانت الحكومة البلغارية جادة فى هذه السياسة إلى درجة أن المخابرات البلغارية قد اغتالت الشاعر المسلم « رجب كويجو » عام ١٩٧٦ م .

استمر هذا الضغط اللغوى والأدبى من الحكومة البلغارية ضد المسلمين إلى عام ١٩٨٤ م وأصبح الضغط دستوراً وقانوناً ، ففى هذا العام تم منع نشر الأعمال الأدبية التركية فى الدولة البلغارية . وقصد الحكومة البلغارية من هذا واضح : استئصال الأدب الإسلامى فى بلغاريا من جذوره . ولكن للأستاذ الدكتور نعمت الله حافظ كلمة فى هذا الصدد يطيب لى الاستشهاد بها هنا – قال : « الأدب مثل

نبع الماء مهما حدثت من محاولات لتغطيته وإنهاء عمله فلن تكون نهايته إلا فى أمرين : إما أن يجد هذا النبع لنفسه شرياناً آخر يتجه من خلاله ، أو أنه يتسع من حيث هو » . وقائل هذا من هؤلاء المتخصصين الذين بذلوا جهوداً مضنية لجمع الأدب المسلم التركى وتسجيله ، والذى اعتمدنا على كتاباته هنا .

ملاحظات على الأدب الإسلامى فى بلغاريا :

حُرم المسلمون فى بلغاريا من حق التعبير ومن حق العبادة ومن حق تسمية أبنائهم كما يريدون . وتعرضوا لاغتصاب أراضيهم منهم ، وتعرضوا لتحويل مساجدهم إلى استخدامات صغيرة غير التى خصصها لها أجدادهم . وكانوا يحسون بعزتهم وبدينهم وبتاريخهم المجيد ، وعلى ذلك يمكن ملاحظة النقاط التالية فى أدابهم :

أولاً : تمسكهم بالأرض والملكية الشخصية ، حتى لو هاجر بعضهم إلى تركيا ، رغم أن الحكومة البلغارية كانت قد استهدفت ترحيلهم من أرضهم .

ثانياً : تبرز إرادة هؤلاء المسلمين القومية فى أدبهم رغم الأذى الذى تعرضوا له ، وهو أذى بشع نُشر عنه فى الصحف الإسلامية العربية والغربية .

ثالثاً : الأمل : وهو أن هذه الأقلية المسلحة فى بلغاريا جديرة بالإعجاب حقًّا ، فهى لم تيأس من روح الله فى النصر رغم السواد الحالك الذى عاشوه قهراً .

ففيما يتعلق بالتمسك بحب الأرض والإرادة والأمل نجد هذا ظاهراً عند أُدبائهم خاصة من الذين بلغوا شأواً عالياً فى التعبير الفنى الجميل من أمثال : حسن قاراحسين فى قصيدة : « هذه الأرض » وفى أشعار نيازى حسين فى قصيدته « أرضنا الخصبة » وفى قصيدة لطيف على « ذلك الشيء الذى ليس بين أيدينا » وقصيدة شاهين مصطفى « الحمامة » وقصائد الشاعر الشهيد رجب كوبجو ، خاصة قصيدته « الحرية كما أفكر فيها » .

[٣]

عندما صمت الشاعر ناظم حكمت قهراً فى دول آسيا الوسطى والبلقان أثناء الشيوعية

أقدِّم هنا صفحات مجهولة عن ناظم حكمت (١٩٠٢ - ١٩٦٣) ستكون صدمة لمحبِّى ناظم ولكل الشعراء المصريين والعرب الذين تأثروا به فى الخمسينيات وفى الستينيات من هذا القرن ، ولكل من أحبه من المثقفين . وهؤلاء يعرفون حياته وتطوره الفكرى والشعرى حتى عام ١٩٥١ ، أما بعد ذلك فصفحات مجهولة عن ناظم فى تلك الفترة حتى مماته ، من شأنها إلقاء الضوء على فنه وأدبه .

وناظم حكمت ليس جديداً على العالم الثالث ومنه مصر ، فلقد زار مصر ، وعن العدوان الثلاثى وصمود بور سعيد كتب قصيدته المشهورة ، وكان صديقاً شخصيًّا للعديد من كتَّاب مصر وشعرائها : عبد الرحمن الخميسى وصلاح عبد الصبور وغيرهما من مجموعة أعلام الشعر الحديث فى مصر .

كما قدَّمه من الروسية إلى العربية ماهر عسل ، وقدَّمه من التركية مباشرة إلى العربية فى ترجمة قوية وجميلة الدكتور أكمل الدين إحسان مدير المركز الإسلامى باستانبول ، حين ترَّجم عن ناظم ملحمته الذائعة الصيت « حرب الاستقلال » ومسرحيته البديعة : « قصة حب أوفرهادوشيرين » وصدرت الترجمتان فى القاهرة فى الستينيات .

وأسهم محمد البخارى بترجمة مجموعة قصائد لناظم عن الفرنسية إلى العربية .

وناظم شاعر ترك بصماته على الأدب العالمى ، وحاز إعجاباً لا مثيل له ،

فتُرجمت أشعاره إلى اللغات الواسعة الانتشار وإلى اللغات المحدودة الانتشار ، تُرجم إلى الروسية وإلى الانجليزية وإلى الفرنسية ، كما تُرجم إلى العربية – وخاصة فى العراق – كما تُرجم إلى مختلف اللغات الآسيوية والأفريقية .

قال عنه بعض الأتراك : « ناظم حكمت أكبر شاعر فى القرن العشرين ، وليس فى العالم كله شاعر يضارع ناظم حكمت عبقرية شعرية » .

وقال عنه بابلونيرودا : « إننا لا نُحسب فى عداد الشعراء عندما نقف بجوار ناظم حكمت » .

وسبب قولى أن صدرت فى استانبول مذكرات على قدر كبير من الأهمية الأدبية والفنية ، هى مذكرات « زكريا سرتل » رفيق ناظم حكمت ومصاحبه فى المنفى منذ خروج ناظم من تركيا وحتى موت ناظم عام ١٩٦٣ .

وزكريا سرتل ، كاتب تركى مشهور ، كان عضو نقابة الكتاب الأتراك ، كما كان أقرب الناس إلى قلب ناظم . وكان منفياً مثله ، وكان مؤنسه فى غربته ، واستمر نفى زكريا حتى بعد موت الشاعر ناظم حكمت ، إلى أن قامت الحكومة الاشتراكية فى تركيا بقيادة بولند أجاويد ، فاستصدرت أمر عفو عن زكريا سرتل ، فعاد إلى بلاده ، واستُقبل استقبالاً كبيراً ، واستكتبته الصحف ، واستكتبته دور النشر ، وتسابقت فى ذلك . وكان أن استجاب لطلب جريدة كون آيدين اليومية (وكون آيدين كلمة تركية معناها صباح الخير) ، فكتب لها وفيها مذكراته مع ناظم حكمت فى البلدان الديمقراطية الاشتراكية . وطبعت هذه الجريدة هذه المذكرات بعد ذلك فى كتاب بلغ ٢٨٨ صفحة .

كانت المفاجأة كبيرة والصدمة أكبر أثناء نشر هذه المذكرات ، فاجتمع اتحاد نقابة الكتَّاب الأتراك اجتماعاً طارئاً ليتخذ قراراً تاريخيًّا بفصل زكريا سرتل عن الاتحاد ومن نقابة الصحفيين .

قام الكاتب والأديب التركى عزيز نسين – المشهور فى مصر وفى العراق – بإعلان استقالته من نقابة الكتَّاب الأتراك ، ومن رياستها ، بسبب اتخاذ قرار

فصل زكريا سرتل ، خاصة أنه - أى عزيز - كان متغيباً عن الاجتماع . قال عزيز نسين : إن فصل هذا الكاتب الكبير من النقابة إنما هو عمل موجَّه ضد حرية الكلمة .

قصة كاذبة :

من الجديد فى هذه المذكرات وهى بعنوان : « ناظم حكمت فى سنواته الأخيرة » أن القصة التى حكاها ناظم حكمت - عندما كان فى مصر - عن هربه من تركيا ، كانت قصة كاذبة اختلقها ناظم اختلاقاً .

يقول زكريا سرتل : لماذا كان ناظم حكمت مضطراً لمغادرة وطنه ؟ ثم يجيب على هذا بقوله : إن ناظم حكمت كان قد قضى فى سجون تركيا ثمانية عشر عاماً ، وكان بعدها عاطلاً . ولم يكن يحب أداء الخدمة الوطنية (العسكرية) فى وطنه تركيا . ولما عرض عليه رفاقه تهريبه من تركيا وافق .

القصة التى يرويها ناظم هى : « عام (١٩٥١) قارب بخارى يشق عنان البسفور بعد الفجر بهدوء ويتجه إلى سفينة رومانية بيضاء متجهة من استانبول إلى رومانيا . تنتشل هذه السفينة الشاعر ناظم حكمت . يصعد عليها . فإذا به يجد صورته تتصدر المائدة فى قاعة احتفال أعدها القبطان .. وتتجه السفينة إلى بوخارست . وفى مينائها يجد ناظم وزيرة الخارجية الرومانية على رأس وفد من كتَّاب رومانيا وشعرائها فى استقباله » .

يقول زكريا سرتل - رفيق ناظم حكمت ، وأقرب الناس إلى قلبه - : إنَّ هذه القصة غير حقيقية ، وأشك فيها ، لأن ناظم كان يميل إلى المبالغة وكان مفتوناً .

صمت الشاعر قهراً فى بولندا :

ومن رومانيا إلى المجر يذهب ناظم وسط احتفالات الكتَّاب به ، لكن ناظم - كما يقول سرتل فى مذكراته - (لم يستطع فهم المأساة التى يعيشها المثقفون المجريون) .

ومن المجر إلى بولندا . وبولندا هى موطن ناظم حكمت الأساسى ، ويجدر القول هنا أن ناظم حكمت ينتمى إلى أسرة بولندية تسمى آل بورجنسكى .

وفى بولندا استقبل البولنديون ناظم حكمت ، لا على أنه شاعر تركى بل على أنه بولندى منهم ، لذلك كان استقباله فى بولندا حافلاً .

يقول سرتل : « وهناك فى وارسو زاره أقاربه البولنديون . وفى وارسو مُثِّلت مسرحيته « العبيط » . وكان كل بولندى يقابل ناظم فى بولندا يحدثه عن ظلم ستالين ، وأن ستالين اقتطع جزءاً من الأراضى البولندية وضمها إلى أوكرانيا . لكن ناظم سكت قهراً » .

ومن شعر ناظم حكمت وهو فى بولندا :

« حبيبتى ! .. واحد من أجدادى هاجر من بولندا .
وترك بلاده فى عام ١٨٤٨ .
قد يكون لهذا شاربى أشقر .. وقامتى مديدة .
والأغنية البولندية تهزنى » .

صمت الشاعر قهراً فى بلغاريا :

وجهت الحكومة البلغارية دعوة إلى ناظم حكمت لزيارتها باعتباره العالمى المعروف ، لكى يقوم بدور الوسيط بين بلغاريا والأتراك القاطنين فى المنطقة التركية من بلغاريا . وكان السكان هناك يشتكون من حرمان منطقتهم من الكهرباء ، ومن الطرق المرصوفة ، ومن الطرق الرئيسية ، ومن اضطهاد اللغة التركية ، ومن القانون البلغارى الذى يجبر الأتراك هناك على تغيير أسمائهم بأسماء بلغارية (وما زال الكلام لزكريا سرتل) فوصل ناظم إلى بلغاريا وتوجه إلى المنطقة التركية وقابل الأتراك ، وأخذ يقنعهم بقبول الواقع ، وإذا بهم يتكلمون ويتكلمون قالوا له : يا أخانا ناظم إنهم ينظرون باحتقار شديد إلى مساجدنا .. إنهم يا أخانا ناظم يريدون منا أن ننسى لغتنا الجميلة .. يريدون منا أن ننسى (وعند ذلك صمت الشاعر قهراً) .

صمت الشاعر قهراً فى آذربيجان :

كان لناظم حكمت مآس فكرية وروحية فى منفاه ، فقد كانت أشعاره تمرُّ – بموجب قانون النشر – على رقباء لا يمتون للأدب ولا للفن بصلة ، وكان من حق الرقيب

أن يتصرف فى أشعار ناظم دون أن يأخذ رأيه فيها . مع العلم بأن ناظم اعتاد فى تركيا أن تُنشر أشعاره أولاً ، فإذا رآها المسئولون مخالفة للنظام قُدِّم الشاعر للمحاكمة .

وفى المنفى كان ناظم حكمت يسأل عن أصدقائه فيسمع إجابات غريبة : أُعدم البعض ، ونُفى البعض إلى سيبيريا ، وقُتل البعض الآخر .. ويسمع الشاعر هذا فيصمت قهراً .

وفى آذربيجان – وهى بلاد تركية يتحدث أهلها التركية – قابل ناظم – وهو فى المنفى – رئيس جمهورية آذربيجان : ميرزا إبراهيم . اقترح الشاعر الضيف على الرئيس أن يصدر قراراً بأن تكون اللغة التركية هى اللغة الرسمية الأولى فى آذربيجان لأنها لغة شعبها ، خاصة أن دستور جمهورية آذربيجان يعطى أهلها الحق فى هذا . فأصدر الرئيس ميرزا إبراهيم قراراً جمهوريًّا بذلك ، لكن قراراً عالياً من موسكو صدر بعزله من رياسة الجمهورية وتقديمه للمحاكمة بتهمة الخيانة ، وكان أن ورَّط الشاعر ناظم حكمت الرئيس ميرزا إبراهيم . وعندما عُوتب ناظم فى هذا صمت قهراً .

وعندما أذاع المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفييتى مآسى ستالين : (بأوامر من ستالين قُتل عشرة ملايين مسلم) ص ١٦٥ من المذكرات ، (بأوامر من ستالين نُفى شعب القرم التركى إلى صحارى قازاخستان نفياً جماعيًّا فوريًّا) ص ١٦٥ أيضاً – بدأ ناظم حكمت ينقد سياسة ستالين فى قصيدته المشهورة (الأمل) التى قال فيها :

إنى أنظم الأشعار .. لن تطبع :
لكنها ذات يوم سترى النور .
إنى أنتظر خطاباً يأتينى بالبُشرى .
قد يكون يوم وفاتى مَقْدِمه .
لكنه سيأتى بالتأكيد .

يستمر الكاتب اليسارى زكريا سرتل فى حديثه عن رفيق كفاحه قائلاً : عاش ناظم حكمت بورجوازيًا فى بلاد البروليتاريا ، وكانت أول مسرحية تُمثَّل له فى موسكو هى « فرهادوشيرين » .

تمنَّى ناظم حكمت أن تشتهر أشعاره فى أوروبا وأمريكا ، فأرسل قصيدته (السلام) إلى هيمنجواى طالباً منه ترجمتها إلى الإنجليزية ، وأرسل إلى المغنى الزنجى الأمريكى بول روبسون ليغنيها بعد أن ينتهى هيمنجواى من ترجمتها ، لكنهما لم يحققا له أمنيته رغم إلحاحه عليهما . وهنا أيضاً صمت الشاعر قهراً .

تبدأ قصيدة ناظم حكمت (السلام) بقوله :

شابًا ، كان ذلك الصياد اليابانى .
ذاك الذى قتلتْه سحابةٌ فى البحر .
استمعتُ إلى أغنية له ، غناها لى أصدقاؤه .
وكان الوقت مساء أحد الأيام الشديدة الصفرة ..
فى الباسفيك .

أما أكثر فصول مذكرات زكريا سرتل إثارة – وهو الأديب الاشتراكى الذائع الصيت فى تركيا – فهى التى تحكى تنكُّر ناظم حكمت لزوجته ورفيقة كفاحه : السيدة « مُنوَّرْ » ، مع أن ناظم نظَم فيها أشعاراً تُرجمت إلى لغات كثيرة . وأذكر أن قصائده فى زوجته مُنوَّرْ ظهرت فى ترجمتها العربية فى مجلة الكاتب القاهرية فى أواخر الستينيات تقريباً بعنوان (إلى زوجتى الحبيبة) ويقول ناظم فيها :

أفكر فيك يا مدينة استانبول ..
يا مدينتى ذات العينين الزرقاوين ..
زرقة عينى زوجتى ..

والسيدة مُنوَّرْ بلغارية ، كما يبدو من قصائد ناظم إليها ، وقد وصل عدد رسائل الحب المتبادلة بينهما إلى (٨٠٠) رسالة أثناء الغربة والنفى .

وفى قصيدة عنها نظمها ناظم فى صوفيا عاصمة بلغاريا يقول :

تسلمت خطاباً من زوجتى الحبيبة مُنوَّرْ ..
تقول لى فيه :
حدثنى عن صوفيا كأنى يا ناظم أعرف اللغة البلغارية ..
كيف هى صوفيا يا ناظم ؟
كنت أسمع من أمى أن صوفيا مدينة صغيرة ..
كانت تكبر ..
تخيَّل ! .. كان ذلك منذ واحد وأربعين عاماً ..

وعندما هرب ناظم من تركيا هرب على أمل أن تلحق به زوجته السيدة مُنوَّرْ وابنهما محمد . وبعد محاولات مضنية تمكَّنت مُنوَّرْ من السفر بابنها إلى وارسو عاصمة بولندا ، وهناك أرسلت لناظم وجلست تنتظره ، ولكن المفاجأة أن ناظم كان قد وقع فى غرام موظفة روسية تسمى فيرا ، كانت فى الرابعة والعشرين من عمرها وناظم فى الثامنة والخمسين . تزوَّجا ، وبعدها تلقَّى خبر وصول زوجته التركية مُنوَّرْ وابنهما محمد إلى وارسو .

كانت مفاجأة سيئة لناظم حكمت . قابلها فى وارسو متبلِّد الحس والذهن ، اعتذر لها وقال : « يا مُنوَّرْ لن أستطيع الحياة معك » فانهارت . وعندما أفاقت قال لها : وماذا بيدى ؟ إنى مضطر للحياة فى موسكو ، فابقِ أنت هنا فى وارسو . البولنديون طيبون ، وسيجدون لك عملاً وسكناً .

وكان الطفل محمد ناظم حكمت فى تلك اللحظة يتقدم نحو أبيه ، الذى غرست مُنوَّر فى قلبه الحب الكبير له ، لكن ناظم لم يعد كسابق عهده ، لم تتحرك فيه شاعريته ، ولم تستيقظ فيه عاطفة الأبوَّة ، فلم يتحرك لاحتضان ابنه محمد .

وعاد ناظم حكمت إلى موسكو ، إلى زوجته فيرا الروسية .

وفى ٢ يونيو عام ١٩٦٣ مات ناظم حكمت فى موسكو على إثر نوبة قلبية أصابته . وعرف العالم كله النبأ بعد أن قطعت إذاعة موسكو إرسالها لتذيع الخبر .

مات ناظم حكمت بعيداً عن وطنه ، وفى أرض لم يَعُدْ يحبها .

مات بعيداً عن زوجته مُنَوَّرْ ذات العينين الزرقاوين ، وبعيداً عن ابنه محمد الذى نظَم فيه الأشعار .

مات بعد قليل من نظْم قصيدة يقول فيها :

ترى .. هل من حوش منزلى تخرج جنازتى ؟!
ولكن كيف تُنزلون جثتى من الطابق الثالث ؟!
فالمصعد الكهربائى لا يتَّسع لتابوتى !
وسلالم بيتى ضيِّقة .. أضيق من أن تَسَعَه .

الباب الخامس

نماذج من الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى والبلقان

(تركستان – القوقاز – أوروبا الشرقية)

الفصل الأول : القصة القصيرة :

١ – من تركستان .

٢ – من القرم .

٣ – من تتارستان .

٤ – من آذربيجان .

٥ – من ألبانيا .

٦ – من البوسنة والهرسك .

٧ – من بلغاريا .

الفصل الثانى : الشعر :

١ – من البوسنة والهرسك .

٢ – من بلغاريا .

الفصل الثالث : الرواية والمسرحية :

١ – من قيرغيزستان .

٢ – من البوسنة والهرسك .

٣ – من داغستان .

٤ – من بلغاريا .

الفصل الأول

القصة القصيرة

١ – من تركستان	: وداعاً يا بخارى	قصة مرال معروف
٢ – من القرم	: الصلاة فى زمن الحرب	قصة جنكيز ضاغجى
٣ – من تتارستان	: رفيق المسجد	قصة عبد الرشيد إبراهيم
٤ – من آذربيجان	: العجوز والفتاة	قصة محمد أصلان
٥ – من ألبانيا	: الخندق	قصة إسماعيل قدارة
٦ – من البوسنة والهرسك	: الرحيل	قصة محمد سليموفتش
٧ – من بلغاريا	: عشق المفاتيح التسعة والعشرين	قصة نادية أحمد وفا

[١]

من تركستان
وداعـــاً يا بخـــارى

بقلم : مرال معروف

عاد إلى أفغانستان ، عمِّى الذى رافقنا من أفغانستان إلى باكستان عندما هاجرنا إليها . المجاهدون فى حركة دائمة يذهبون دوماً إلى باكستان فى مجموعات . كان عمى قد اتفق وهو هناك مع مجموعة من المجاهدين تذهب إلى باكستان للحصول على السلاح . اتفق معهم أن يأخذوه معهم . وافقوا وأتى معهم بالفعل . كان عمى يأتى إلى باكستان ليسأل عن أحوالنا ويطمئن علينا . حكى لى عمى حكاية مثيرة رآها فى طريقه عند حضوره إلينا ، قال :

– كانت مجموعتنا كلها – ما شاء الله – من الشباب . لم يكن أحد مُسِنًّا بينهم إلا أنا . سافرنا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ بلا توقف . كنا نسير متعبين . وعندما رأى رئيس مجموعتنا مدى التعب الذى حل بنا ، قال :

« تحملوا ! هل ترون هذه الأشجار . هناك فوق تل خلفها مسجد بناه حديثاً مجاهدو قولمان . نصلى العصر هناك ونستريح قليلاً » .

سَهُل علينا السير لأن الجو كان ملبداً بالغيوم . لأننا بهذه الغيوم نكون فى مأمن من الطيارات . نسير الآن مسرعين . وبعد نصف ساعة قربنا من الأشجار . عند ذلك استطعنا رؤية المسجد اللطيف . بدأت السماء تمطر مطراً خفيفاً . دخلنا المسجد ونحن مسرورون . وكان الوقت عصراً والجو بارداً بشكل محسوس . سمعنا أصواتاً بالداخل . دفع رئيس مجموعتنا الشاب الباب دفعاً خفيفاً . كان المسجد مزدحماً فى الداخل . البعض يقرأ فى القرآن الكريم ، والبعض يجلس فى زاوية يسبح بمسبحته . وكان هناك ما يقرب من العشرة أو الاثنى عشر مسافراً . نهضوا واقفين بمجرد دخولنا المسجد .

تردد رئيس مجموعتنا فى الدخول إلى داخل المسجد . قال واحد من بين الموجودين فى المسجد ، كبير السنّ وجهه نور ولحيته بيضاء :

« تفضّلوا يا شباب ! ألستم مُتعبين ؟ لماذا تنظرون وتنتظرون ؟ أدخول بيت الله يحتاج إلى دعوة ؟! » .

وضع رئيس مجموعتنا سلاحه بجوار الحائط ، وقال :

« السلام عليكم .. يا سيدى بارك الله فيك . سنصلى ونعود إلى طريقنا . أرأيت إلى أننا مجموعة كبيرة لا تقل عن عددكم ، والإقامة هنا من حقكم أنتم » .

أخرج الرجل نظارته من جيب جبته وقال بعد أن وضعها على عينيه :

« ما شاء الله يا أولادى ما شاء الله .. أراكم مجاهدين . يا حى ! يا الله ! الواقع أن كل شعب أفغانستان مجاهدون . أليس كذلك ؟ تعالوا ، اجلسوا ، فأنتم متعبون » .

جلسنا على الحصير . وحصير هذا المسجد مفروش بالأوراق الجافة التى تفوح رائحتها مسكاً . فهمنا من لهجتهم ومن ملابسهم أنهم من « بدخشان » . وبعد قليل قمنا جميعاً فى هذا المسجد اللطيف لنصلى جماعة . وكان إمامنا ذلك الرجل النورانى الوجه ، وكان أكبر المسنين ، وبعد الصلاة جلسنا جميعاً نتحدث . قام طوفان فى الخارج . المطر يهطل وكأنه ينسكب من كوب انسكاباً . مرة أخرى قال ذلك الرجل :

« حسناً يا أولادى إنكم هنا ولستم فى الطريق . الحمد لله رب العالمين . كم كان الأمر جميلاً أن دخلنا هنا ، وإلا أصبحنا كالبط » .

قال هذا وضحك ، التفت إلى رئيس مجموعتنا وسأله :

– من أين أنت يا بنى ؟!

أجابه قائدنا بقوله : « أنا من « شانج » ونحن الآن فى طريقنا إلى الوادى لشراء سلاح .

طال حديثنا . لم يكن فى مجموعتهم من كبار السن غير شخصين أو ثلاثة . أما الباقون فشباب بين الخامسة والعشرين والثلاثين من أعمارهم . أوقدنا ناراً لأن الجو كان بارداً . وكان الشباب يذكون النار بين الحين والآخر ليجددوها ، كما كانوا يشتركون فى الحديث من جانب آخر . أخذ الرجل ذو الوجه النورانى فى الحديث مرة أخرى ، فقال :

– نحن من بدخشان ، من قرية آمو ، وهى تجاور آمو – داريا . إنها أول قرية فى بدخشان تعلن الثورة . قريتى فى مواجهة روسيا مباشرة . نراهم من قرب . هم يتفرجون علينا ونحن نتفرج عليهم كل يوم . لم تكن روسيا تخاف منا ، لأننا كنا قريبين منهم بمقدار خطوة . لكن أهالينا نسفوا أحلامهم وكانوا أول من وقف على أقدامه . لا أدرى هل سمعتم أنتم أيضاً بهذا أم لا ؟ دمَّروا قريتنا ذات ليلة بالقنابل . مجاهدو بدخشان فرسان . نزلوا ليلاً بخيولهم وعبروا آمو – داريا . دخلوا الأراضى الروسية بغية الانتقام . فى تلك الليلة أحرق فرساننا مراكز حرس الحدود الروسية وجمعوا الغنائم وعادوا دون أن يستطيع الروس معرفة ما حدث . كان ذلك يوم بمنزلة يوم عيد عندنا . ربما لم يصدق أحد قط ما حدث . لكن الله شاهد . لم ينبس الروس ببنت شفة من فرط خجلهم . كما أن كثيراً منَّا استُشهد . ابنى الشاب أيضاً استُشهد هناك . لم يكن ممكناً إحضار الشهداء . بقوا هناك . لكننا كنا سعداء . وقد بعثنا العديد من جنودهم كالقطعان إلى جهنم . ودخل التاريخ عنوان آخر وهو : اعتداء أفغانستان على الأراضى الروسية !.

غرق هذا الرجل النورانى الوجه فى التفكير لحظة ثم سكت . كلنا سكتنا لنسمعه . يبدو وكأنه يحدث نفسه . كان يتكلم وهو غارق تماماً فى التفكير . كانت عيناه بين لحظة وأخرى تمتلأن بالدموع . حدثنا قائلاً :

– أنا فى الأصل بخارى . وُلدت هناك . وكانت أسرتى تعيش هناك حياة سعيدة . كنت ابن رئيس القرية . وكنت فى الثانية عشرة من عمرى عندما امتدت يد روسيا الحمراء بمخلبها إلى بخارى . كانوا يستولون على القرى قرية بعد قرية . ولم أكن أفهم شيئاً مما يجرى ، إنما كنت لا أستطيع الخروج من البيت خوفاً عندما أسمع كلمة « روسى » . ما زال شيء واحد باقياً قليلاً فى مخيِّلتى حتى الآن .

جاءوا مرة أخرى قريباً من قريتنا بعد سنة . جاء بعض الفرسان المسلمين على خيولهم ليقولوا لنا إن الروس فى الطريق إليكم . جمع والدى فى تلك الليلة كل أهل القرية فى الجامع ووقف فيهم خطيباً لساعات ، وقال لهم :

يا مواطنىَّ ! إن الروس الظالمين فى طريقهم إلى قريتنا ! لذلك لا بد من أن تستعدوا للحرب !.. سنقابلهم بالحجارة والعصى .. إن الكتاب الأحمر الذى يحملونه فارغ وكفر . أما نحن فإننا تابعو القرآن الكريم . ومهما يحدث فلن ننحنى للكفر !

أقسم الجميع وعادوا من حيث أتوا . وفى اليوم التالى أطلق الروس علينا النيران . حاربناهم رجالاً ونساءً . ولكن لأننا كنا القرية الوحيدة لذلك أسرونا .. عذبونا عدة أيام وتركونا جوعى عطشى . أخرجوا فتيات القرية الشابات وأخذوهن . أخذوا أيضاً أختى الكبيرة وكانت شابة . وعندما أخذوها كان يجُرُّونها من شعرها . أما هى فكانت تتلوى . ولا أدرى ماذا حدث لأختى المسكينة العاجزة عن فعل شىء .. ربما تكون ماتت . عذَّبونا لأننا نؤمن بالله . لكن لم يسَّلم لهم أحد منا . وأخيراً قاموا ذات يوم بدفعنا إلى الطريق فى حراسة آلاف الجنود الروس . سرنا عدَّة أيام . كنا جوعى وكنا متعبين . كانت أمى دائماً مشغولة بمتابعتى أنا وإخوتى الصغار الآخرين . كانت تقسِّم علينا – خفية – الطعام الذى كانت تخبئه . ولا أدرى كم يوماً أحضرونا إلى طريق مفروش بالحديد . كان على هذا الطريق شىء مؤلف من غرف مظلمة طويلة مثل الثعبان . بعضها خلف بعض . وكانت هذه هى أول مرة أرى فيها شيئاً من هذا . قلت لوالدى :

– ما هذا ؟

قال :

– قطار .

وكنت أنظر بدهشة . قال والدى :

يبدو أنهم ينفوننا إلى سيبيريا .

ما زلتُ أنا أنظر مندهشاً . مرة أخرى كرر والدى قوله :

– يبدو أنهم ينفوننا إلى سيبيريا .

عدد الموتى منّا كان كثيراً . دفعوا بنا بالقوة جماعات جماعات فى عربات القطار . لا أدرى كم يوماً بقينا فى عربة القطار المظلمة ونحن جوعى عطشى . كانت أُمنا تعطينا شيئاً فى أفواهنا . وكانت هى منهكة وجائعة . وأخيراً فُتحت الأبواب وأنزلونا من عربات القطار وهم يدفعوننا بمؤخرات بنادقهم كنا كلنا منهكين .

والمكان كان صحراء .. صحراء لا نهاية لها .. كلها تلال .. ربطوا أيادينا ، أيادى الكبار .. لكنهم تركونا لأننا صغار . ربطوا الرجال من أياديهم وركبوا هم القطار وأغلقوا الأبواب . وأخذ واحد منهم فى إطلاق الرصاص من مكانه من عربة القطار إلى الخارج . ماذا يحدث ؟! وبين نظراتنا الممتلئة بالحيرة والدهشة والرعب كانت تتجه نحونا مجموعة من وحوش الصحراء . ولم أكن أنا قد رأيت من قبل شيئاً من هذا . ولم أر من بعد شيئاً من هذا . ربما كانت هذه الوحوش قروداً وربما فهوداً وربما حيوانات أخرى . فى تلك اللحظة تحولت الصحراء إلى بحر من الدماء . والروس يطلقون النار على الذين بقوا أحياء . الجرى والصراخ والعويل . وبين كل هذا أخذت أنا أيضاً أجرى .

فى ذلك الزحام عبرت أنا من تحت القطار . قضيت فترة طويلة أزحف حبواً واختبأت بين عربتى قطار . مضت ساعات ، واختفت الأصوات . لكن المكان كان ممتلئاً برائحة الدم . نظرت إلى الخارج . وفجأة تحرك القطار وظللت أنا مختبئاً بين العربتين . وعندما توقَّف القطار بالقرب من إحدى القرى قفزتُ من القطار ودخلت تحته مرة أخرى وقضيت ليلتى هناك . ولم أكن أستطيع التفوُّه بكلمة أو صوت .

وقبيل الصباح خرجت من تحت القطار وأخذت فى الجرى نحو القرية . كنت أسير من أمام البيوت . وعندما كنت أمرُّ من أمام أحد البيوت رآنى رجل فجرى خلفى . وعندما رأيته أخذت فى الجرى بسرعة أكبر وأنا أبكى . وأمسك بى فى إحدى المنعطفات . ومن شدة خوفى أخذت أبكى بسرعة أكبر وبحرقة أشد ، إلى أن أمسك بى الرجل وقال لى سائلاً :

– لماذا تبكى ، ومن أين أنت ؟

وعندما لم يحصل منى على إجابة مسح رأسى بيده وأمسك بيدى وأدخلنى بيته

وقدم لى الطعام فأكلت حتى شبعت . وكان رجلاً يعيش هو وزوجته فقط . حكيت له حقيقة ما حدث . قال لى الرجل :

– انظر إن الروس قد وصلوا هنا أيضاً . كنت سأهرب فى هذه الليلة مع زوجتى ، ولكن سنأخذك معنا إلى مكان ما . تعال معنا .

وفى تلك الليلة نفسها خرجنا إلى طريقنا . مشينا عدة أيام من طرق خفية . وعندما وصلنا إلى إحدى القرى بعد حوالى ثلاثة أيام أو ربما أربعة ، قال لى :

– سنفترق هنا ، دبِّر حالك ، وفكِّر فى أمرك .

وتركانى بعد أن قالا لى هذا .

دخلت القرية . ولم أجد بالقرية أحداً . القرية مهجورة . تلك السيدة الطيبة أعطتنى خبزاً ونحن فى الطريق لكى آكله . أسير فى الطريق بمفردى هذه المرة . لا أدرى أين أنا ولا إلى أين أذهب . وصلت إلى ضفة نهر فإذا به نهر آمو دريا . أسير على ساحل النهر . رأيت قطيعاً أمامى . عرفت بعد اقترابى منه إنه قطيع خنازير . نهض الراعى وكان يرقد على الأرض تحت الشمس . وقف عندما رآنى . اقتربت منه وأنا حذر . أشار إلىَّ أن أقترب منه . اقتربت وجلست بجانبه . قال لى :

– من أنت يا بنى ؟ لماذا جئت هنا ؟

حكيت له ما حلَّ بى وأنا أبكى وأنتحب . أغرورقت عينا الراعى بالدموع ، قال وهو يتنهد حزناً :

– آه يا ولدى ! هل حلَّ بك هذا أنت فقط ؟ انظر إلىَّ !! إنهم دفنوا أسرتى كلها أحياء !.. وجدت الحل فى أن أُسلِّم لهم نفسى . وبالفعل عملت هذا ! وها هو ذا الأمر كما ترى ، يعطوننى لقمة الخبز فى مقابل أن أرعى هذا القطيع القذر الذى تراه . هناك مركز حدود روسى خلف ذلك التل العالى . طيب أنك لم تذهب إلى هناك . ابق معى ، نقتسم ما نجد . أخبئك حتى لا يعرفوا أمرك . والمكان هنا هادىء حالياً .

أقمت معه . أسوق فى ساعات الصباح المبكرة هذا القطيع النجس حتى نهر آمو ،

وأعود به فى المساء . نفسى لا تطاوعنى فى السير مع هذا القطيع . إنى أشمئز من الخنازير .

وكما يحدث فى كل وقت كان قطيع الخنازير أمامى وقد تمددت فى اتجاه ساحل نهر آمودريا . وفجأة تراءت أمى أمام عينى . كانت تشير إلىَّ بيدها وهى فى حجابها الأسود أن « تعال » . نعم . نمت وكنت مع أسرتى فى نومى كنت فى منطقة أخرى لا أعرفها . كنت أرى أختى الكبيرة تضمنى إلى صدرها وتقول :

– نجونا !.. لا تخف فستنجو أنت أيضاً .

كنت أرى حولنا أشخاصاً معمَّمين . نهضت واثباً من النوم بتأثير الرؤيا التى رأيتها . كان الوقت ظهراً . أفكر فى الرؤيا وأنا أبكى وأنتحب فى ذلك المكان الخالى . نظرت إلى حافة النهر المقابلة . ما أجملها ! مليئة بالخضر . خطر فى بالى فجأة ما شرحه لى الراعى ذات يوم . كان قد قال لى :

– تلك الحافة المقابلة هى ولاية « بدخشان » الأفغانية . يعنى أفغانستان . شعبها سعيد وشبعان ، أتعرف أن هناك أرزاً ؟! عندما كنت قادماً رأيت فى الطريق تلك القرية الخالية . لقد هرب شعبها ذات ليلة على الأطواف وقطع الخشب الكبيرة التى صنعها أهل القرية لينجوا بها عن طريق النهر . أما هؤلاء الأفغان فسعداء جدًّا . عندما يحضرون إلى النهر لاصطياد السمك كنت أراهم ولمرات كثيرة فى النهر . كم كان ما يلبسونه من قماش جميلاً وغالياً ، إنهم أحرار . لا يأمرهم أحد قط . يفعلون ما يودونه . طوبى لهم .

وعندما استعدت هذه الكلمات مرة أخرى فى ذهنى نظرت إلى أفغانستان طويلاً . ليتنى أنا أيضاً أستطيع الذهاب إلى هناك !.. ولكن كيف لى بالذهاب ؟.. بينى وبين أفغانستان نهر . والنهر عميق . النهر ظالم . ولا أجيد السباحة . هكذا كنت أفكر .

وفجأة ! ما هذا يارب ! أين القطيع ؟! ليس هناك خنزير واحد قط . جريت هنا وهناك . ولكن لا أثر للخنازير . وتعبت من البحث . كنت خائفاً . ماذا سأقول للراعى ؟ مع أنه فى كل مرة يأتى فيها يقول لى :

انتبه يا بنى ! ما أسوأ حالنا لو فقدنا واحداً من هذا القطيع النجس ! .. لن يرحمنا الظلمة بعد ذلك . كما أننا أسرى عندهم !.

جلست أرضاً وأخذت أفكر . ماذا عساى أن أفعل ؟ كنت أبكى .. وبينما كنت أبكى نمت . وإذا بأمى وأسرتى مرة أخرى . السعادة والطرب مرة أخرى .. ومرة أخرى استيقظت من النوم هلعاً . كان الوقت عصراً . جريت أبحث عن القطيع ، ولم أستطع أن أصدق عينىَّ . لاح خنزير أمامى ، فجريت بسرعة لأرى القطيع وأنا فرح سعيد .

نظرت إلى قذارتها وكدت أفقد عقلى ! انحنيت ونظرت من قريب .. أرز !!.. يا الله .. وأخذت أصيح قائلاً : أرز .. أرز .. التفت خلفى ونظرت إلى أفغانستان وكأنها فتحت لى ذراعيها . معنى ذلك أن هذا القطيع النجس قد عبر النهر وأنا نائم ، لكى يأكل الأرز . ثم عاد .

وسريعاً توضأت وصليت . ولفنى السكون . واتجهت إلى الله أدعوه مخلصاً أن يحقق لى رؤياى . لم أنم طول هذه الليلة . كنت أفكر فى أفغانستان . أتقلب على هذا الجنب وذاك حتى أصبح الصباح . ومرة أخرى توجهت إلى ربى عز وجل وأخذت فى التوسل إليه . أخذت القطيع أمامى وذهبت إلى المكان نفسه . وكان نور الشمس قد أضاء المكان جيداً . تظاهرت بالنوم . وبعد نصف ساعة جاء الخنزير نفسه . أخذ يشمنى . حبست أنفاسى . وبعد قليل رمى هذا الخنزير نفسه إلى النهر . نعم ! الخنزير يجتاز النهر سابحاً إلى الضفة الأخرى . رأيته وهو يدخل بين الحقول . صحت بفرحة :

– اشكر الله يا مصطفى ! فلقد نجوت . نجوت ! ..

راقبت الخنزير ثلاثة أيام أو أربعة . وذات يوم خرجت من البيت مع القطيع وأنا أدعو الله . ثم ، وذات يوم نظرت إلى هذا الراعى المسكين . دعوت له أيضاً من كل قلبى . واتخذت قرارى : سأهرب اليوم إن شاء الله . ألقيت نفسى على الأرض وأنا أضع فى ذهنى كل شىء . تظاهرت بالنوم . بعد قليل جاء نفس الخنزير يشمنى . وعندما كان على وشك الهرب بالضبط أمسكت برقبته وهو بجانب ضفة النهر تماماً .

وركبت على ظهره وهو يحاول التخلص منى .. وأخيراً استسلم الخنزير وألقى بنفسه إلى النهر وأنا عليه . كنت خائفاً . وأغلقت عينىَّ وقبضت على رقبة الخنزير بكل قواى . ومرة أخرى حاول الخنزير التخلص منى . لكنْ يداى كانتا قد أقفلتا على رقبته . وبفرحة فتحت عينىَّ . لقد اقتربنا من الضفة الأخرى للنهر .

نظرت إلى الخلف . ها هىَ ذى الضفة الروسية من النهر قد بعدت عنى جدًّا . كنت أبكى فرحاً . سكن الخنزير . وأخيراً وصلنا إلى الضفة . وسريعاً انطلقت من على ظهر الخنزير . ودخلت فى المياه . الماء الآن كان يصل حتى ركبتى . كنت أجرى وأجرى . دخلت حقول الأرز . كان الخنزير يجرى ورائى . جريت فى حقول الأرز هذه المملوءة بالطين حتى ركبتى وفى هذه الحقول اللامتناهية ، الخضراء الشديدة الاخضرار . أنفاسى كانت تضيق ، والآن أخذ المطر يمطر خفيفاً . توقفت .

وعندما رآنى الخنزير أقف . وقف هو أيضاً وأخذ يأكل من الأرز الذى فى الحقول . أخذت أتفرج عليه وغرقت فى هذا . أكل كثيراً !.. ثم وقف وانتظر . يبدو أنه لا يريد العودة إلَّا معى . والآن يقترب الظهر .. وقت الظهر . واصلت المسير ، والخنزير يسير معى . فكَّرتُ كيف أتخلَّص من هذا النجس . بدأت أجرى .

خرجت من الحقول واتجهت جارياً نحو تل ، واختبأت خلف حجر ضخم . بدأ الخنزير فى الصياح فى حقول الأرز التى بالأسفل . أخذ يجرى بعد أن أكل من الأرز مرة أخرى ، وبعد أن صاح قمت من مخبئى ووقفت وأخذت أتفرج على جريه . وسعدت بذهابه .

وبعد قليل وصل إلى مسمعى أصوات ضحكات . صعدت إلى التل زاحفاً . يجلس على الأرض على شكل حلقة ما يقرب من عشرة أطفال أو ربما خمسة عشر . خمسة منهم أو ستة يلعبون فى وسط الحلقة لعبة تشبه ما نلعب به نحن أهل القوقاز . أما الآخرون فكانوا يصفقون بأياديهم . ثم يتصارعون ويتدافعون ويدفع بعضهم البعض الآخر . دهشت جدًّا لأنهم سعداء كثيراً بهذا الشكل . لأول مرة منذ شهور أرى أطفالاً فى سنِّى وأرى ضحكاتهم . كان فى أيدى بعضهم أشياء يأكلونها : جعت . تفرجت عليهم من التل الذى اختبأت فيه إلى وقت العصر. ولم أكن أفهم شيئاً مما يقولون .

وأخيراً وقفوا وأخذوا يسيرون إلى أعلى وهم يضحكون . ابتعدوا عنى . نزلت جارياً من على التل . أخذت أتتبعهم وأنا مختبىء عنهم . كانوا يسيرون وكنت أسير خلفهم . رأيت الفتيات الشابات وهن يحملن فى أيديهن أوانى الماء . اختبأت خلف شجرة . وعندما بدأ الجو فى الإظلام كنت أنتظر هناك وأنا جائع عطشان . كان كل الناس سعداء . كما أنهم كانوا كثيرين جدًّا . ومرة أخرى أخذت أسير أمام البيوت . وعلى كل حال كنت أخاف . أذان المغرب . الظلام يخيِّم على المكان .

والآن ، أرى جماعات من الناس يدخلون منزلاً ، أطفال أصغر منى سنًّا وبعضهم فى مثل سنى يدخلون المنزل أيضاً . انتهى الرائح والغادى . وبهدوء أخذت طريقى إلى ذلك المنزل . عبرت حوش المنزل بهدوء . ثم نظرت إلى الداخل . باب المنزل مفتوح . وإذا بى أجد أن هذا المكان مسجد . قلت فى نفسى : « كم هو كبير وجميل » . لم يكن هناك أحد قط فى الحوش الخارجى . كان الحوش واسعاً جدًّا وفيه الكثير من أشجار الصفصاف وبئر عميق . وقف كل الناس للصلاة جماعة . وبينما أتفرج عليهم علقت عيناى بالشيخ الذى يؤمهم . وكان فى الأمام . تذكرت والدى بثوبه الأبيض الشديد البياض والطويل . أردت فى ذلك الوقت أن أصرخ لكن الصوت لا يخرج من حلقى .

انتهت الصلاة . يخرج الجميع من المسجد اثنان اثنان أو ثلاثة ثلاثة يتجهون إلى منازلهم ، عند ذلك خبَّأت نفسى عند جذع شجرة صفصاف كبيرة كالعملاق . كان كل مكان فى الحوش مضيئاً . والآن ، لم يعد أحد هناك ، انتظرت نصف ساعة أخرى . نظرت فلم أجد أحداً . خرجت . كانت قدماى حافيتين ، فى ساقىَّ شىء فى شكل بنطلون ضيق جدًّا خاص بالرعاة . دخلت إلى داخل المسجد . داخله مفروش بالبُسط الحمراء القانية . قلت فى نفسى : « كم هى جميلة وناعمة » . ورويداً رويداً اقتربت من المرتبة التى كان الإمام يجلس عليها منذ قليل . ودون أن أفكر جلست عليها ونظرت إلى نسخة القرآن الكريم التى كان الإمام يقرأ فيها . بدأت أبكى وأنا أقول : « كان والدى يقرأ القرآن هكذا » . وفجأة أحسست أن يداً تمرُّ على رأسى . التفتُّ خلفى ونظرتُ . كان الشيخ يبتسم لى . وبدون أن أفهم شيئاً نظرت إلى وجهه : نعم ! هذا الرجل هو الذى رأيته فى رؤياى بعمامته هذه مع أختى

الكبيرة وأسرتي !.. كنت أنظر إليه وأنا فى دهشة . وهو أيضاً كان يسألنى ويسألنى . وأخيراً أنهضنى واقفاً بيده . كانت لحيته بالغة السواد ووجهه نورانى . وبتعجب ودهشة حدجنى بنظرته من أعلى إلى أسفل . وبلغة أعرفها قال لى سائلاً :

– أهربت من روسيا ؟! وأين أسرتك؟

شرحت له كل شئ وأنا أبكى . ضمنى إلى صدره بسرور وقال :

– آه .. معنى ذلك أنك بخارى ! يا أيها الصغير الضعيف انهض لنذهب .. لا تخف ! تعال .. قال هذا بعد أن أنهضنى وأخذنى إلى منزله .

كان له منزل جميل من طابقين . فتحت لنا الباب امرأة هى بعينها التى رأيتها فى الرؤيا نفسها أيضاً . وتعجبت هى عندما رأتنى. كانت تنظر مندهشة .. مرة نحوى والأخرى إلى الإمام الشاب ذى الثلاثين من عمره والذى كان يمسكنى من يدى ويبتسم . غريبة ! .. كانت تشبه أختى تماماً .. لكن شعرها لم يكن أصفر اللون بل كان أسود . أدخلنى الإمام البيت ، ثم شرح كل حكايتى لتلك المرأة ، بلسانها ولغتها . كانت المرأة شابة فى حدود الثامنة أو التاسعة والعشرين من عمرها . ضمتنى إلى صدرها بحب وحنان وهى تبكى . سألتنى شيئاً باللغة الفارسية بعينين دامعتين . ثم نهضت مسرعة وأحضرت لى أكلاً . وكانت هذه هى زوجة الإمام . كانا ينظران إلىَّ وأنا آكل وهما يبتسمان . ثم قال لى الإمام :

– عندما كنتُ فى سنِّك ، وعندما لم يكن هناك شئ من هذا ، ذهبت مع والدى إلى بخارى . وهناك كان أبى مشتغلاً بالوعظ والإرشاد . تعلمت لغتنا هناك . وهذه هى زوجتى . متزوجان منذ عدة سنين ، ولم يرزقنا الله بولد ، ولكن ها هو ذا قد أرسلك إلينا ، أتقبل أن تكون ابناً لنا ؟!

– نعم يا والدى الحبيب ! أقبل .

أخذنى فى اليوم التالى ظهراً بملابسى الجديدة إلى المسجد . حكى حكايتى لكل الناس المجتمعين هناك . قال لهم إنه اتخذنى ابناً له . وقال أمام الشهود إننى وارثه . ومنذ ذلك الوقت وأنا أقضى السنين بجانب أمى الحبيبة وأبى الحبيب .

كنت سعيداً . لم يكن لى أخ آخر . مات والدى وهو فى سن مبكرة . وماتت والدتى بعد أن زوَّجتنى بسنتين أو ثلاثة . وأصبحت إماماً للقرية ورئيساً لها .

وكان الدب الروسى قد علم بسعادتى فاعتدى هذه المرة على بلادى أفغانستان . لكنه أخطأ هذه المرة ، لأننا ومنذ اليوم الأول جعلناه يتقيَّأ دماً . وقف شعبى عاجزاً ذات يوم لكن أفغانستان سمعت بالألم الذى أشعر به ورأته . وشبابها أُسُود . لم تستسلم بأمر الله عز وجل ولن تستسلم أيضاً إن شاء الله .

وها أنا ذا هنا كما ترون . أذهب إلى باكستان لكى أحصل على أمر السلاح لشباب القرية . لى ولد استُشهد فى الأراضى التابعة لروسيا ، لكنى واثق من أننى سأرى تحرير أفغانستان . وسيساعدنى الله عز وجل – ن شاء الله – حتى أرى ذلك اليوم . وسأربى أحفادى من أجل تحرير بخارى . وسترون أن أسودى سيحررون أفغانستان حالاً . وليت الشعب هناك قد قابل الكفر بسلاح هكذا أو بدون سلاح كما فعلت أفغانستان .

وستكون أفغانستان قبراً للروس ولكل شيوعيِّى الدنيا . فى داخل نفسى صوت يقول : « أفغانستان حرة . وهذا الشعب يحارب من أجل تحرير بخارى ومن أجل آلاف المناطق الإسلامية الأسيرة » .

قال الرجل هذا . وإنى معه فيه و لأنى أثق أن هذا هو الواقع إن شاء الله .

* * *

نعم .. هذه هى الحكاية التى تمزق القلوب تمزيقاً . هذه هى الحكاية التى رواها عمى .. هذه قصة هجرة أحد الذين فروا من بخارى .. تُرى كيف هاجر الآخرون من هناك .. طُوبى لهم .. إنهم الآن يربون أولادهم على الجهاد .

[٢]

مـن القـرم

الصـلاة فـي زمـن الحـرب

بقلم : جنكيز ضاغجى

ألَا تأتى معى يا أغا قبلِ أن تذهب إلى القيادة ؟ أصدقاؤنا هناك . كلهم مسلمون . أنت متعب وبذلك تكون قد استرحت قليلاً .

بَعُدنا عن ازدحام الجنود فى الجبهة . خلَّفناهم وراءنا ، نتقدم عبر ماء ، وبعد عشر دقائق نقترت نحو مكان كثير الدغل ، أرى بين الأدغال حوالى عشرة أشخاص أو ثمانية يقف بعضهم على قدميه ، والبعض الآخر يجثو على ركبتيه .. يقف قيليج باى ويقول :

– أليس اليوم هو الجمعة يا أغا؟ إن صديقنا آق صقال لا يعترف بالجبهة ولا بغيرها .. إنه يقيم الصلاة بمجرد سنوح الفرصة . أنتظر هنا . أجلس على الأرض ، وأسأل قيليج باى :

– مَنْ هو آق صقال هذا الذى تحدِّثنى عنه ؟

– هذا الذى هناك ، الطويل القامة ، إنه أوزبكى من بخارى ، رجل حنون . ولكن .. انظر إلى المصلين – فى هذه الجبهة الحربية – وهم بين الأدغال ، يملؤون بأصواتهم الهامسة قلبى بأشياء .. أحسها فقط لكنى لا أستطيع فهمها ، ولا أستطيع شرحها . أريد أن أنهض من المكان الذى أجلس فيه وأذهب بجوار هؤلاء الناس . أريد أن أجرى إليهم . أريد أن أفرغ أمامهم كل ما فى قلبى . أعيش بينهم . أكون واحداً منهم . يُخيَّل إلىَّ كأنهم معى فى الحياة دائماً . هناك قوة فى دعائهم . هذه القوة تنتقل إلىَّ . إنهم يعيشون مع الله وأنا أيضاً أريد أن أعيش وأنا أذكر الله فى كل

نَفَسٍ من أنفاسى . إن اسم الله الذى يصدر من أفواه ثمانية جنود أو عشرة من هؤلاء الأوزبكيين فى نَفَس واحد وهم فى الجبهة وهم يصلُّون بين هذه الأدغال يبيِّن لى لماذا أعيش وفى أى سبيل سأحارب .

قلت لقيليج باى :

– ألّا تخافون وأنتم تصلون هكذا خفية بين الأدغال ؟

يقول آق صقال : سِرْ وأنت تذكر اسم الله . سلِّم نفسك لله ، ولا تخف بعد ذلك . فالله يحميك ، ولا شك فى هذا يا أغا .

نظرت إلى هؤلاء الأوزبك الذين يصلُّون وهم بين الأدغال . انتهت الصلاة . جلسوا كلهم على الأرض . ساد الجوَّ سكونٌ عميق . وأخيراً أنشدوا جميعاً وبأصوات حزينة رقيقة صادرة من قلوبهم المطمئنة نشيداً :

ماذا حدث لكِ يا تركستان الجميلة ؟

ذبُلت الورود فى غير زمان الذبول .

لا أدرى لماذا لا تغنى الطيور فى حدائقك ؟

آه .. فى حدائقك !

وجدتُ روحى – بهذا الشيد – تودُّ الانفصال عن جسمى

لتطير بعيداً .. بعيداً

إلى حدائق تركستان : الذابلة الجافة العطشى .

[٣]

من تتارستان

رفيـــق المسجـــــد

بقلم : عبدّ الرشيد إبراهيم

تعرَّفت على من يُدعى « ميران شاه محمد » فى مسجد « رنكارى » فى الهند . كنت جالساً فى المسجد مادًّا ساقىَّ فغلبنى النوم . وكنا فى رمضان ، ومن عادتى فى رمضان أن أغفو وأنا جالس لفترة بسيطة . لكننى فى ذلك اليوم كنتُ مجهداً فغلبتنى نفسى فإذا بى متمدداً على أرض المسجد . ولم أكن غارقاً فى نوم عميق ، لذلك سمعت من يقول لى : إن الحياء شعبة من الإيمان يا رجل . فانتبهت ولملمت ساقىَّ على أرض المسجد وعدت قاعداً . ثم تبين لى أن محدثى شخصية محترمة كان يقف أمامى يحدثنى وحديثه لى فيه تنبيه إلى غفلتى .

خجلت من نفسى وشعرت أن العرق يتصبب منى . نظر إلىَّ الرجل ونظرت إليه ، وأنا مأخوذ مندهش . سمعته يقول وكأنه يعاتبنى : الحمد لله أنك فى بيت الله . اعتذرت له واستغرق هو فى التفكير فترة . ثم نظر إلى رجالٍ فى المسجد مددوا سيقانهم أمامهم مثلما كنت أفعل ، وكانوا منتشرين فى أرجاء المسجد غارقين فى النوم ، نظر هو إليهم نظرة مستطلعة ، ثم التفت إلىَّ ليقول : فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً . ورفع يديه إلى صدره وبدا كأنه يدعو ربه ، فكررت أنا كلمة : آمين ، خلفه . فابتسم وجلس بجانبى . تبادلنا بعض الكلمات فاستأنس كلٌّ منَّا بالآخر .

ازددت تعجباً عندما تحدث معى ، خاصة عندما وجدته ملمًّا بأحوالى حتى كأنه كان مرافقى فى تجوالى . ولما تطرق فى حديثه عن مقامى فى اليابان قال لى : الأعمال الطويلة المدى لا يكفيها تحمل الإنسان لها . وبعد لحظة قال : خُلق الإنسان عجولاً . سبحان الله . وما على الرسول إلا البلاغ . بدا وكأنه يحدث نفسه بما كان يقوله لا بد أن يكون غريباً جدًّا علىَّ . فلبثت على صمتى مستمعاً إليه متطلعاً إلى وجهه

مزداداً فى الحيرة والدهشة . ولما سكت سألته عن اسمه فقال : « ميران شاه محمد » وقد كرر اسمه ثلاث مرات كأنه يريد تنبيهى إلى حفظ اسمه وعدم نسيانه . ثم عاوده السكوت لفترة طويلة قال بعدها .: هل يمكن أن نذهب إلى مسكنى أنا الرجل الغلبان . فسررت من اهتمامه فقلت له : إننى تحت أمركم . فتلقَّى كلمتى هذه بسكوت طويل ثم هبَّ بعدها واقفاً وصلى ركعتين . وجلس مجيلاً بصره هنا وهناك ثم قال : بعض الناس فى حاجة إلى التربية ولكن إذا كان استعداد المربين أنفسهم ناقصاً فلن تتم التربية على الوجه الأكمل . ثم أعقب قوله هذا بكلمات متقطعة إذ قال : وما أوتيت من العلم إلا قليلاً . الله . الله . فسبحان الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم . وراح يهز رأسه وبعد هذا قام وهو يقول : تفضل معى لنذهب ، فقمت . ومشينا سوياً إلى خارج البلد لنستقر فى مغارة .

ولقد مشينا ساعة من الجامع حتى المغارة ولم ينبس أحدنا ببنت شفه . وكانت المغارة نظيفة لكنها كانت خالية من أى شيء .. لا حصير ولا شيء للجلوس عليه . وإذا به يقول : والأرض فرشناها فنِعْمَ الماهدون . وجلسنا . وكان الجو لطيفاً والمغارة مروَّحه . ولبثنا ساعة جلوساً على الأرض ، قال مضيفى بعدها : هذا من فضل ربى . أهلاً وسهلاً بك . مرحباً بك . وكرَّر كلمات الترحيب هذه مُظهراً المودة والسرور الحقيقيّن .

ثم دحرج إلىَّ لبنة مربعة قائلاً : استرح قليلاً فلقد حِلْتُ بينك وبين راحتك فى المسجد ، هيا تمدد هنا فالمكان يسمح بهذا . فتمددت وجعلت اللبنة وسادة ، وتمتعت براحة محظوظة . ولما استوفيت حظى استسمحته بأن يأذن لى بالعودة . لكن (صاحب البيت) دعانى للبقاء حيث نفطر معاً . ولما كنت راغباً فى الاستزادة من صحبته قبلت دعوته شاكراً . وبقيت على صمتى ، لكن فى جو عالٍ من السمو والروحانية . يتفوه الرجل بين الحين والحين بأقوال متفرقة تضم آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، كأنه يتقصد التلميح إلى أمور . وكان من شأنه غريباً جدًّا . وكان من بين ما ردده : ألا بذكر الله تطمئن القلوب .. ولو أنَّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم . إن تنصروا الله ينصركم .. وذكر آيات غيرها ولكنى لم أحفظها تماماً .

[٤]

من آذربيجان

العجــوز والفتـــاةُ

(أسطورة شعبية آذرية)

صياغة : محمد أصـــلان

كان يا ماكان ، كانت الدنيا ظلاماً ، لذا فالعين لم تكن تستطيع أن تميِّز شيئاً ، أى شيء .

هل من المعقول أن منطقة الجبال الشاهقة والصخور الصلدة هنا فى آذربيجان لم تعد غير وادٍ من الرعب ، طوته منذ أن خلق الله الدنيا ظلمة مخيفة مرعبة . حصل هذا بالفعل فى نظر هذا العجوز المسمَّى « طارق آطا » ، وهو الذى أمضى حياته كلها فى أحضان هذه المنطقة . لقد فعلت الظلمة فعلها ، فى ذهن هذا العجوز ، فجعلت من الصخور الحادة الأسنان ، السامقة حتى ناطحت السحاب ، شيئاً مضغوطاً شديد الاستواء ، أسود اللون ، كأنه قُدَّ من فحم ، لا ترى العين له حدًّا ولا نهاية ، حتى ليظن الإنسان بأن علامات الحياة ومظاهرها فى هذه المنطقة قد رفعها الله من الأرض ، لولا وجود نهر جبلى صغير يجرى فى المنطقة الوسطى من هذه الجبال ، وبالضبط فى الناحية اليمنى منها ، يلقى بنفسه من المنحدرات فيحدث صوتاً صاخباً .

آه لو كان الوقت غير الوقت ، لكان اهتياج العجوز قد اشتد حتى بلغ مدى أكبر . لقد مسحت همومه فى الأيام الأخيرة ، من عينيه ، فروق الليل والنهار . إن الوجود والعدم يأتيان من قطبين مختلفين ليتركزان فى نقطة واحدة . تُرى ما السبب فى هذا القول ؟ السبب أن الوطن منذ عدة سنوات قد أخذ يتضاءل شيئاً فشيئاً .

التلال تبدو غريبة ، والجبال تبدو متغيرة . هذه الغرابة وهذا التغيير مستمرَّان . حدود الوطن فى تناقض ، تتقلص ، تنكمش إلى الداخل . حدود الوطن تفقد ثباتها ، ليس هذا فقط بل إن هذه الحدود ترتعد بشدة . ولقد أصبح العدو - بالمقابل - فى وضع يمكِّنه من تناول هذا الخط المرتعد بشدة ، لينقله إلى مكان آخر . ذلك لأن الوطن قد أصبح كالجلد الطرى ، يجف يوماً بعد يوم حتى يصغر حجمه .

شيوخ الوطن وأطفاله يموتون بالرماح . وأهل الوطن يُساقون تحت تهديد السلاح الأبيض إلى سوق العبيد . لا فرق فى هذا بين سيدات الوطن المحترمات اليانعات كالزهور وبين الرجال من عِلْيَة القوم . لا ، بل لا فرق فى ذلك بعد العجائز وبين الشباب .

العجوز « طارق آطا » يكيل - الآن - السباب واللعنات على السبب الذى أدَّى إلى هذا الخط العاثر فى حضن الظلمات . موجات القحط تترى على الوطن ، وتتلاحق منذ سنوات طوال ، مما سبب سلب الخصب وذهاب النماء من الأرض الطيبة . فانتهز العدو الفرصة ليشهر سيفه : « أرض الوطن هى التى تحمى الوطن » العجوز يحدِّث نفسه فيقول : هذه الأرض تمنحنا الطعام والشراب ، وعليها نقيم حياتنا . هذه الأرض تقول لنا : خذوا النوبة فى الحراسة لتحمونى . لماذا لا تهتمون بى بعد ذلك ؟ لماذا هذا وأنا الأرض ؟ لماذا يكون وجودى مدعاة للسرور ، وفقدى لا يكون مدعاة للألم ؟!! لو مِتُّمْ فى سبيلى فأنا لكم . غطوا ثغرات حدودى بعظامكم ! اطلوا طينى بدمائكم . قفوا بثبات لحمايتى !

خُيِّل للعجوز « طارق آطا » أن الزلزال قد هزَّ الأرض هزًّا تحت أقدامه . تماما مثلما اهتزت من قبل تحت ضغط الحالة الروحية التى جثمت على صدور المقاتلين فى سبيل الأرض ، هذه الحالة التى تسبب فيها كل من اليأس والعجز . وإن هذا هو الذى جعل العجوز « طارق آطا » يضيق بأبناء الوطن ويدينهم . تُرى ماذا يحدث لو آلت أرض بلادى العزيزة إلى الأعداء !

ألَا لهذا الليل أن ينجلى ؟! معصرة من اليأس تضغط على العجوز . إنه يفكر ويطيل - الآن - التفكير . تُرى ماذا لو وصل العدو تحت جنح الظلام الحالك هذا

ليسرق أرض الوطن ، ليحملها ويذهب بها مثلما يسرق اللص لحافاً مزداناً جميلاً ؟ ماذا لو جاء العدو فى هذا الوقت الغريب ليضع كلَّ الذى فى الوطن فى هذا اللحاف المقدس ، ويذهب كل الذى فى الوطن من قبائل ومراعى مزهرة جميلة ، من نساء وأطفال وشيوخ .

نعم كان لا بد أن يضيق « طارق آطا » بأبناء الوطن ويوجه الإدانة إليهم .

أدار يده ليتحسس جوانبه ، فلمست أصابعه ضفائر ابنته :

– أأنت هنا يا ابنتى ؟!

ابتسمت الفتاة ، وهى تختنق قهرها :

– إنى بجوارك يا أبى .

– حسنا . أين جوادك ؟

– إنى أمسك بمقوده . ألا تسمع صوتنا يا أبى ؟

– لا ، ولا أستطيع أن أسمع !

– لماذا توقفنا يا أبى ، ولماذا لا نواصل المسير ؟!

– أمامنا صخور قاسية ، ولا أستطيع السير كما يفعل الناس . لذا فعلينا الانتظار حتى يبزغ الفجر . لقد فكَّرت كثيراً يا ابنتى ثم اتخذت قرارى : يمكننا الوصول إلى مقر قيادة الجيش قبل أن يتحرك .

كان اسم الفتاة : « آريق قاغان » . أحبت « آريق قاغان » أن تسأل والدها عن السر فى هذا التحول المفاجىء الذى يتسم بالغموض ، وهما فى منتصف الطريق . أدانت نفسها كثيراً لأن الخوف قد تولَّاها . إنها لا تدرى من أمر نفسها شيئاً منذ أن ارتدت ملابسها وخرجت مع أبيها إلى الطريق . كل الذى تدريه أنها أخذت مكانها بجوار أبيها دون أن تتفوَّه بكلمة واحدة . حديثهما لم يكن متصلاً ، بل أصابته توقفات كثيرة . إنهما الآن فى طريقهما إلى مقر قيادة الجيش المحارب . هل كان لا بد للفتاة « آريق قاغان » أن تسأل أباها : لماذ التحول فى وجهتهما هذه ؟! ثم طرحت فكرة السؤال جانباً ، ذلك لأن الأمر كان يبدو واجباً نحو الوطن .

وكان اسم الجواد « يل قاناد » . عيناه أخّاذتان ، لكن لماذا لا تتوهَّجان ؟ ولماذا لا يبرق عُرفه الحريرى فى رقبته وعنقه عندما ينفُث أنفاسَه من منخاره ؟ أين الفتاة « آريق قاغان » يا تُرى ؟ .. إن كل وجودها قد تخمر بانعكاسات قوس قزح . تُرى هل تندفع قوة الظلام لكى تبتلع ألوان طرتها الزاهية البديعة ؟ إنه النور — نور العصمة — يضىء هذه الفتاة التركية الجميلة . ألّا لهذا الليل من قلب يشعر ويحس ؟! لماذا لا يخرُّ هذا الليل مغشيًّا عليه وقد فقد عندما يشعر بهذه الزهرة الإلهية وهى تبعث إلى الوجود أنفاسَها الرائعة .. هذه الأنفاس التى تصيب الكون بالثمالة ؟ لو فعل الليل هذا لأصبح الصبح .. أم هل لا بد لهذا الليل أن يكمل دورته التى قررها حكم الفلك عليه ؟!

أليست هذه الفتاة هى « آريق قاغان » التى أذاب جمالها قسوة قلوب شباب الجبل الشجعان فحوَّلت قلوبهم إلى رقَّة التبن ؟ إن شجعان الجبل يدركون جيداً أن محور هذه الدنيا يقوم على جاذبية عينىْ « آريق قاغان » وبهذا الجمال يحافظ العالم على توازنه . يعرف الجميع أنه عندما تغلق « آريق قاغان » عينيها لتتلاقى أهدابُها فإن المساء لا بد أن يحلَّ بالدنيا . ويعرف الجميع أيضاً أن الفجر لا يبزغ إلَّا إذا ابتعدت أهداب « آريق قاغان » عن بعضها البعض .

تُرى أآريق قاغان نائمة الآن ؟!

ظهرت فجأة نيران قوية فى طبقة من طبقات الجو ، على بُعد كبير . ولم تمض على ذلك لحظة إلَّا وكان أعلى الجبل المُواجِه قد توهَّج . ثم إذا بأعلى الجبل الذى فى الناحية الأخرى قد توهَّج أيضاً ، ثم ما لبثت هذه النيران وهذا التوهُّج أنْ أخذ فى الانتشار فى المنطقة . توالت الأضواء وتوالى التوهج ، وامتدت النيران إلى بعيد ، مثل النجوم المتراصة المتوالية .

لم يكن كل هذا إلَّا الإعلام عن مقرِّ قيادة الجيش . لكن .. تُرى لماذا كل هذا التخابر ؟ ماذا يقولون ؟ لا يعرف هذا إلَّا هم فقط .

ابتهج العجوز « طارق آطا » لصحَّة نبض الوطن ، فى ذلك الظلام ، فبدا كأنه ارتاح . وأخيراً أخذت الظلمة التى كان العجوز يخفيها فى حضنه تنحلُّ من نقطة

بعيدة فى القبة . تبدو أولاً زرقاء داكنة الزرقة ، ثم تصبح زرقاء فقط ، ثم مائلة للزرقة . كان هناك قوة لا يمكن مواجهتها ، تأخذ الظلام لترميه طبقة بعد طبقة من فوق ذُرى الجبال . ثم أخذت هذه الذُّرى تتفتح وكأنها السيف الأصيل وقد استلّه الفارس من غمد الليل .

على ذلك اختار « طارق أطا » الوجهة المطلوبة ، حزم الطريق وأخذه فى يده . .

تحولت قيادة الجيش فجأة إلى قلب ينبض حماساً وانفعالاً .

يقف « طارق آطا » الآن ثابتاً ، كأنه قطعة من صخرة عششت الطحالب عليها . يده اليمنى على كتف ابنته « آريق قاغان » ويده اليسرى على ظهر جواده « يل قاناد » .. والجنود صامتون ، وكذلك كان قائدهم ، ولا يريد أحد أن يتكلم .

كانت كل البلاد تعرف « طارق آطا » إنه القائد الذى أجبر أعتى الأعداء على الركوع أمامه . لكن كبر السن – هذا العدو الغادر – قرع بابه يوماً ، واضطره إلى التسليم له ، ثم الانسحاب – بالتالى – إلى قريته وهى مسقط رأسه .

لقد كان « طارق آطا » فى شبابه قائداً . أما فى شيخوخته فقد أصبح شيخاً للبلد . إنه والد الفتاة « آريق آطا » . وليس فى غصن كل عمر – مثل عمره – زهرة نديَّة متفتحة مثل ابنته .

أُصيب الجميع فى المعسكر بالدهشة . تُرى هل وصل هذا القائد المحارب القديم الشهير – وهو فى هذه السن الكبيرة – إلى معسكرهم للاشتراك فى الحرب ؟ ربما جاء لكى يقدم جواده « يل قاناد » هدية للمحاربين الشجعان . إذن لماذا حضرت معه – فى هذه الحالة – ابنته « آريق قاغان » ؟ ربما تكون هى الأخرى قد اتخذت قراراً باشتراكها فى الحرب من أجل نجاة الوطن . لكن تُرى هل فى مقدور هذا البرعم الذى لا تقوى رقَّته على مواجهة ريح شديدة أن تمسك بالسلاح ؟ أى سلاح ؟ .. والحق أن أحداً من المحاربين لم يكن يضع هذا فى تصوُّره .

وأخيراً جاء القائد بنفسه لمقابلة الشيخ العجوز . حيَّاه القائد أولاً تحية عسكرية مليئة بالاحترام . ولِمَ لا والشيخ قائد قديم . ثم صاح الجنود ، كل الجنود ، فى صوت واحد وحنجرة واحدة :

– حيَّا الله « طارق آطا » . ادع لنا أيها الشيخ الشجاع حتى يشعل الله قلوبنا بالحماس .

– حيَّاكم الله يا أولادى .

– حياك الله ! حياك !

هزَّت هذه الصيحة الجماعية التى أطلقها الجنود ، المكان واصطدمت بالصخور ، ودوَّت دويًّا هائلاً. التف الجنود – بإشارة من قائدهم – فى دائرة حول العجوز .

وعلى حين فجأة دبَّ الشباب فى نفس العجوز ، الشباب النابض بالحركة والرغبة فى النزال . ترك ابنته مع الجواد « يل قاناد » واتجه هو إلى القائد :

– جئتُ أطلب منك طلباً رغم حرج موقفك .

– لك ما تطلب .

كرر كلٌّ بحر البشر المحيط بالعجوز هذه الكلمة :

– لك ما تطلب .

قال العجوز بآخر درجات الثقة :

– مكنِّى من تنفيذ أفكارى ، ففيها نجاة الوطن .

رد القائد باطمئنان وسكينة :

– لك هذا .

– أعطنى كل صلاحية القيادة حتى أنتهى من عرض فكرتى .

قال له القائد وهو ينسحب لكى يقف بين جنوده وكأنه جندى عادى :

– لك هذا .

أصدر « طارق آطا » أوامره بصوت مرتعش غريب ، وكأن هذا الصوت يخرج من الجبل ، كأنه يهبُّ من الصخر ، فجعل الجيش كله على أهبَّة الاستعداد .

– يا حامل العلَم ! تعال وأعطنى هذا العلم .

– تفضَّل .

أخذ العجوز العلَم وقبّله باستغراق ووجْد . غرسه أولاً على الأرض بجانبه ، ثم أخرجه وأسنده على صخرة .

قال :

– لقد جئتُ لتغيير علَمِكم !

قال هذا وصمت . هاج الجيش وماج . كان الجنود فى عجَلة لمعرفة العلم الجديد : لونه وحجمه وعلاماته .

كان الأمر الذى أصدره هذا القائد القديم – رغم فقده لشدته بدرجة ملحوظة – فى صيحة قوة التنفيذ :

– « آريق قاغان » : ابنتى ذات القلب الجبلى وصوت البلبل ! هيا امتطى جوادك .

– تمام يا والدى ! ها أنذا أفعل .

قوديه إلى مكان حامل العلَم !

– تمام والدى ! ها أنذا أفعل .

– يا أبناء الوطن الشجعان أنصتوا .. إن هذه الفتاة – من الآن فصاعداً – هى عَلَم هذا الجيش . إنها شرف الوطن وعفته . لم يكن – أيها الجنود – لدى أجدادنا شيئاً أكثر قيمة من الشرف . وإنى لأهيب بكم بالحرب الفاصلة حماية لهذا العلَم .

التفت العجوز حواليه وقال :

– يا ابنتى ! لقد تحمَّس الشجعان . لقد بكى الأبطال ! فليهدأ بالك وتقرُّ عيناك . عليك قيادة جوادك « يل قاناد » بمشيته الخاصة المعروفة ، وفى أول صف فى الجيش المقاتل . طالما أن دماء الغيرة يسرى فى عروق أبناء الوطن فإنهم سيحمونك أيتها العَلَم من الأعداء . إذا ذهب الوطن فلن يبقى فى البلد شرف .

– يا والدى ! لى رجاء وحيد .

– تفضَّلى يا عَلَم شرف وطننا !

– أعطنى سلاحاً فلقد يلزم فى موقف حرج .

– مستحيل ! إن العلَم لا يحمى نفسه بنفسه ، إنما يحميه مَنْ يجرى فى عروقهم دم الغيرة .

يخرج من بين الصفوف شاب – من جهة اليمين – ليتقدم إلى الأمام .. إلى حيث الأب العجوز .. يجثو الشاب على ركبتيه . يحنى رأسه احتراماً وتوقيراً . ركَّز نظراته الجادة على « طارق آطا » . كان هذا الشاب يبدو كقطعة صخر أكثر منه إنساناً . يبدو أن هذه الشدَّة قد أعجبت العجوز ، فوضع يده على كتف الشاب المحارب . أمره – بنظراته – أن ينهض .

– اسمك ؟

– الفارس قاغان .

– ماذا تريد أن تقول ؟

– أولاً : أن تسامحنى على على جرأتى . ثم ...

– لا تشغل بالك بهذا . هيا قل لى ما عندك . ماذا تريد منى ؟

– أن تدعو لى بالخير . ولأكن حامل العلم . لا بد للعلم من رجل يحمله .

حدج العجوز الكبير الفارس قاغان بنظرة من عينيه مرة أخرى وقال له فى حُبٍ ظاهر .

– لا . إنى لا أعطى هذا الحق إلَّا لأريق قاغان نفسها . لو آلت أرض الوطن لنا بعد الحرب ، فإن للفتاة العلم أن تختار ابن الوطن الذى تؤهله رجولته لأن يصبح حامل العلم ، ففى الحروب التى دارت بيننا وبين العدو ، حتى الآن ، لم يظهر بعد – من أبناء الوطن – من أعترف أنا به مواطناً يليق بابنتى « آريق قاغان » .

أحاطت بالجيش موجة عالية من الهمَّة والغَيْرَة ، تفوق كل الحدود :

– أقول إن الله معكم . يُؤازركم . أما أنا فسأحتمى بعَلَمِكم القديم . سأراقب طريقكم من فوق ذاك الجبل . سأسترد روحى عندما تعودون . فإذا حاربتم بهمة ، ودحرتم العدو عن أرض الوطن وقتلتموه ، وإذا كان الوقت ليلاً ، فأوقدوا فى قمة الجبل ناراً فى منتصف الليل . فيقوم الجبل المقابل بتكرار إشارتكم ، ليشعرنى بالسعادة .

والآن ، إليكم آخر أمر أصدره إليكم :

– سيروا إلى الأمام .

[٥]

من ألبانيا

الخنـــــدق

بقلم : إسماعيل قدارة

قال لنا راء باء :

كنا على الحدود .. وكنا فى شهر أغسطس فى أحد أيام ترقب الحرب .

وكان زين العابدين جندى الاستحكام متمدداً على المتراس الساتر وهو يراقب خطوط اليونانيين الأعداء ، وكانت خطوطهم هذه تقع خلف مياه السيل . نعم ، لقد خفَّت حدة المناوشات الحربية بيننا وبينهم منذ يومين ، ولم يكن هناك قتال إلا فى الأماكن البعيدة جدًّا . أما الآن ، وهنا ، فالمكان هادىء إلا أن القتال يمكن أن ينشب من جديد بين لحظة وأخرى .

كنا فى الساعات المبكرة جدًّا من الصباح عندما ركز زين العابدين عينيه إلى ما وراء الحفر التى خلفها السد . وكان هناك خندق مفصول عن متاريس اليونان الطويلة لكنه كان موازياً لمتاريسنا وموانعنا ، وكان هذا الخندق يقطع المنطقة المحايدة وينتهى فى أرضنا . لقد حفره اليونانيون بالليل . ترى ماذا كانوا يقصدون من هذا ؟

كان الكل ينظر إلى هذا الخندق بعيون الريبة والشك . زين العابدين وزملاؤه الجنود الآخرون . وعندما اقترب قائد الفصيل منا نظر إلى هذا الخندق الطويل ، وهز رأسه وقال :

– راقبوه جيداً .

امتثل زين العابدين للأمر . والحق أن الخندق يكاد يكون مهجوراً فليس به مدفع رشاش ولا حتى بندقية .. فلماذا إذن يا ترى حفروه ؟

كرر زين العابدين هذا السؤال على نفسه عدة مرات وأخيراً قال لنفسه :

– يبدو أن أمره مغلق .

حاول زين العابدين أن يشغل نفسه بالتفكير فى أشياء لطيفة ، من هناك من الشمال ، حيث المناظر جد مختلفة ، كما أن اللغة المتداولة هناك مختلفة بدرجة محسوسة . لقد اشتاق زين العابدين إلى بلدته . والسبب فى انبعاث كل ما يعتمل فى نفسه هو أن هذا الصباح صيفى جميل ، ولم يفارق مخيَّلته الجو ومحل ميلاده ورُبى بلدته الحبيبة .

شغل تفكير زين العابدين كل من أهله وأسرته ، أبوه وأمه والمضخة القديمة فى حديقة منزلهم التى تآكلت يدها من كثرة الاستعمال وأصبحت تصدر صريراً مزعجاً . نعم فى مثل هذه الساعات من أيام مثل هذا اليوم كان والده يجلس مع أمه ليحتسيا القهوة فى هدوء . حاول زين العابدين استحضار صورة عينى أخته فى خياله . كانت كل هذه الصور تتراقص فى مخيَّلته ، ضغط على ذاكرته لكى يتمكن من استحضار كل هذا بشكل أكثر وضوحاً وأكثر وضاءة لكنه لم يُوفَّق . التجعدات تتزايد فى جبهة والدته . ويتغير كل لحظة لون عينى أخته . وبعد كل هذا تذكر أحد الذين أحبهم كثيراً ، وكان من السهل ملاحظة مدى حبه هذا ، من الفرحة فى عينيه بل حتى من بريق عينيه .

لم يكن قلب زين العابدين ساذجاً .. لم تكن فيه عادة نسيان نفسه فى خطب طويلة لكى يشرح مثلاً قوة الفراق الذى يعانيه .. لم يكن يتحدث كثيراً عن كاترين ، لكنه كان يفكر فيها دائماً .

وفى هذا الصباح أيضاً كان عقله فيها إلا أن أمامه وعلى بعد خمسين خطوة هذا الخندق الذى حفره الأعداء ليلاً ليصل آخره إلى أرضنا فكان كالوحش الذى يشير بأصبعه إلى أرضنا .

ترك زين العابدين التفكير فى الهضاب المحيطة ببلدته ، وركز اهتمامه على الخندق ارتسمت الجدية على وجهه واحتدت نظراته . وسأل نفسه للمرة الثانية : ترى لماذا حفر أعداؤنا اليونانيون هذا الخندق ؟!

أكوام من التراب تكومت على طرف الخندق . التراب جديد . حدَّث نفسه قائلاً : ما أجمل هذا التراب . إن جماله واضح من لونه . لكن هذا الخندق يفسد جمال الأرض يذكر منظره بثعبان يزحف بين الأعشاب كان يشبه ثعباناً ضخماً مخيفاً يتعذر معرفة طوله .

زين العابدين كان مسروراً بإعادة بعض الأشياء إلى ذاكرته . لقد كان هذا الذى يفعله اعتياداً درج عليه من صغره .

كان يرى الخندق فى أحيان ثعباناً ضخماً ، وفى أحيان أخرى رمحاً عملاقاً موجَّه الطرف نحوه .

قال لنفسه : « إذا كان هذا الرمح قد أحضروه ليمتد إلى عمق أراضينا ، فهذا يعنى بالضرورة بدء عملية استيلاء » .

أمسك بندقيته بدافع من فطرته وإحساسه الداخلى ..

« إذا لم نمنع تقدُّمه فإنه سيقسمنى إلى قسمين ، ليواصل طريقه . وإذا تقدَّم سيعبر القرى والمدن والجبال . يمكن أن يصل إلى « تيرانا » وقد يصل إلى أبعد من هذا ، قد يصل إلى الهضاب المحيطة ببلدتى ، قد يصل إلى منزلى ، ومن يدرى فقد يتسبب فى أن أفقد أمى وأبى وأختى وحبيبتى كاترين » .

إن هذا لهو الاستعمار الكامل . لكننا جئنا لكى نقتل الثعبان قبل أن يتحرك فى اتجاهنا . ها هو ذا يقف على بعد خمسين خطوة منا ، يركز عينيه على سواترنا وموانعنا ، لا بد من سحق رأسه فوراً ودونما تأخير .

ركز زين العابدين عينيه عليه .

كان يفكر مشمئزًّا نافراً ، قائلاً لنفسه : سيظهر هذا العدو فجأة كالديدان التى تظهر عقب المطر . وفجأة تحرك شىء داخل الخندق . رجل أحنى ظهره جدًّا ، وهو يجرى بسرعة إلينا ، ثم أخذ يهدِّىء من سرعته . يقترب منا رويداً رويداً ويأخذ مكانه فى طرف الخندق . صاح زين العابدين منبهاً زملاءه قائلاً :

– « هناك أحدهم فى الخندق » .

ظل الجندى اليونانى فترة فى الخندق لا يتحرك ، ثم أظهر ميكرفوناً من خلف التراب وأخذ يصيح ويزعق ويقول وهو يقتل لغتنا قتلاً : « أيها الألبان » أيها الألبان .. تعالوا هنا ، اليونان جميلة ، فيها خمور ، ونساء جميلات ، ولهو ومرح كثير .

أخذ جنودنا فى الابتسام وزين العابدين يضحك .. واضح أنهم يسمعون للمرة الأولى ترهات بهذا الشكل ، ويسمعون أيضاً للمرة الأولى من ينطق لغتهم الألبانية بهذا القدر المضحك وبلغة كاذبة سقيمة كهذه .

أخذ اليونانى يزعق ويصيح ويتكلم بكلام كبير وهو يصيح بملء فيه ، فى الوقت الذى لا تصدر من الفصائل المتقدمة منا أى صوت . لم يعد يستطيع السيطرة على نفسه ، وبالتالى أخذ بعد ذلك يسب آباءنا .

وبمجرد أن نطق بهذا تغيَّر – وعلى حين فجأة – وجه زين العابدين ، فضغط بكل ما أُوتى من قوة على أسنانه من فرط حدة أعصابه . أمسك ببندقيته وهو يصيح قائلاً : « خذ إذن أيها الأحمق السافل » ثم .. وأطلق رصاصتين .

– دعك منه يا زين العابدين . لا تخسر رصاصتك عبثاً .

وفجأة لف المكان هدوء مميت .

قال أحد الزملاء من بعيد : « لا تضع رصاصتك فى غير مكانها ألَا ترى ؟! إنه لا يدرى حتى أين يختبىء .

سمع اليونانى هذا الكلام ، فأخرج الميكرفون من المكان الذى يرقد فيه . وصف أقذر أنواع السباب ، موجِّهاً كل هذا إلى أم زين العابدين .

امتقع وجه زين العابدين من الغضب . فلم يحدث من قبل أن سبَّ أحد أمه حتى وهو صغير . لذلك كان صدغاه ينبضان كما لو كان على انفجار .

صاح اليونانى قائلاً : هيه يا زين العابدين ! هل لك أخت يا زين العابدين ؟ أختك حلوة ، أليس كذلك ؟ ها ، ها ، ها ، هل أنت خاطب ؟ خطيبتك حلوة ، أليس كذلك ؟ ها ، ها ، ها ، أنا (......) كلهن » .

أطرق زين العابدين برأسه واختلت الرؤية لديه ، لفَّ النور كل كيانه . ومع هذا كان الجندى اليونانى مستمرًّا فى سبابه ، وهو سباب لا يمكن تحمله .

لقد بذل هذا اليونانى الكثير من الكلام القبيح الجارح . سبَّ أم زين العابدين وأخته وخطيبته ، سبَّ الطرق التى يسير فيها زين العابدين ، سبَّ بيته وسبَّ النار فى موقده .

خطر فى بال زين العابدين – لفترة – أن ما يصيح به هذا الجندى اليونانى ويتحدث به يمكن أن يكون له صداه فى الهضاب المجاروة لبيته وبلدته . وأن والده سيحزن وستشد أمه شعرها . ولن تدرى أخته – لفرط فزعها ودهشتها – أين تختبىء ، وفى أى ركن من أركان البيت ستوارى نفسها . وأقواس البيت ستنفلق غضباً وتتحطم ، وستخبىء حبيبته كاترين وجهها البرىء الحبيب .

ولم يعد زين العابدين يتحمل السكوت . وجد فى نفسه الرغبة فى الانطلاق نحو هذا اليونانى فيحطمه ويجره – كالكلب – ويحضره إلى خطوطنا . ثم يصيح بكل ما أُوتى من قوة قائلاً : ها هو ذا الكلب السافل الذى يشتمنا .

أخذ يستعد للخروج من المخبأ ليهاجم الخندق مباشرة . لكنه ظلَّ كما هو فى مكانه بعد أن سمع صوت قائده : « يا زين العابدين » .

أدار نظراته نحو الأرض وتحدث بصوت خفيض قائلاً :

– « لقد شتمنا ، سبَّنا كثيراً يا سيدى القائد » .

– « يجب ألَّا نفقد أعصابنا أمام شتائم العدو » .

أخرج زين العابدين منديلاً من جيبه مسح به العرق البارد الذى غطى وجهه .

الجندى اليونانى يواصل السبَّ ، بل أخذ فى رصِّ شتائم أكثر قبحاً . أحسَّ زين العابدين أنه لم يعد يستطيع التحمل . وازدادت لديه الرغبة التى لا يمكن مقاومتها . وملكت عليه حواسه فى الهجوم على هذا اليونانى . لقد انتهت أعصابه ولم يعد بالفعل يستطيع التحمُّل .

صاح القائد به قائلاً :

يا زين العابدين .. إننا هنا فى الخطوط الأولى لتحقيق هدف واحد وهو الدفاع عن الوطن ، لذلك لم تعد حياتنا الآن ملكاً لنا ، وقد أوقفنا أنفسنا على خدمة الوطن ، ولا تنسى هذا فى أى وقت من الأوقات . وعاد القائد أدراجه .

ألقى زين العابدين نظرة إلى بندقيته ، كان يعرف أن هناك أشياء يربط بعضها بعضاً : النظام والبطولة ، لذلك حاول أن يهزم فى نفسه الرغبة فى الهجوم على الجندى اليونانى . لكن اليونانى ما زال مستمرًا فى شتائمه .

قال زين العابدين لنفسه فى اشمئزاز ونفور :

« هذا هو الوجه الحقيقى للعدو . وإنه لواضح جيداً ماذا يمكن أن يفعله هذا العدو المتوحش فى حالة ما إذا وطأت أقدامه أرضنا .. إن هذا لشىء خطير » .

تناول زين العابدين مرة أخرى بندقيته . ظهر – مرة أخرى – الثعبان الذى كان يلوح من قبل لكنه كان فى هذه المرة ينفث سمه وهو ينظر إلينا .

ما زال اليونانى هناك . لكنه اختفى عدة ساعات ، وكان ذلك وقت الطعام ، ثم عاد مرة أخرى .

كان يتحدث بسرعة وبشكل غير مفهوم . كان واضحاً أنه شرب حتى الثمالة .

أصوات انطلاق المدافع الهاون تصدر فى بعض أماكن على الناحية اليمنى من المنطقة ، وطائرة تطير متجوِّلة فى الجو . وكان اليونانى ينتظر اقتراب الطائرة حتى يبدأ من جديد .

وحدث أن تكرَّر نفس الشىء طوال اليوم فى وقت ما بعد الظهيرة .

وعند مغيب الشمس أخذ اليونانى يرصُّ آخر شتائمه ، ثم ترك الخندق واختفى خلف الحواجز .

لم يعد زين العابدين يرغب فى أن يفكر . لكنه فشل فى هذا . كان يريد التفكير فى هضابه الشمالية ، وفى قريته الصغيرة ، وفى كاترين .. لكن هذا كان مستحيلاً ..

لكن هذا الخندق اللعين لم يكن يفارق تفكيره . إن العدو يهدد بلده . وأحسَّ أنه من الضرورى عمل شيء .

حدَّث نفسه قائلاً :

– لا بد من التصدى لهذه الإهانات .

وقبيل منتصف الليل ترك زين العابدين مخبأه دون ضجيج . حمل بلطته وأخذ معه بعض القنابل اليدوية ، واطمأن على بندقيته للمرة الأخيرة . ثم تقدم بهدوء ودون أن يحدث أى صوت . اتجه زاحفاً إلى الخندق ثم توقف بعد عدة أمتار ليصيخ السمع ، لم يكن فى الجو أدنى صوت يثير الشك . لقد كانت الليلة حالكة السواد يسودها صمت مميت . واستمر زين العابدين فى زحفه .

شمَّ بعمق رائحة التراب الطازج . حدَّث نفسه مرة أخرى قائلاً :

– « إنها لتربة غاية فى الجمال ، خاصة بالنسبة إلى زراعة الجادوار » .

زحف عدة أمتار أخرى ودلف داخل الخندق . ظل فترة لا يتحرك من مكانه ثم أفرغ كل ما فى حقيبته ، وأخرج شيئاً . وبينما يتحسس التراب مست يداه قنينة زجاج فارغة وعلبة سجائر .

أخذ زين العابدين مجرفة . ظهر وكأنَّه يقوم بعمل من أعمال السحر فى هذا الظلام الدامس . حفر الأرض ودفن شيئاً .

وبعد نصف ساعة زحف على بطنه وعاد أدراجه إلى موقعه . لقد أُرهق . توقف فى منتصف الطريق . ودون أن يعدل وضعه نظر إلى صفحة السماء . كانت مليئة بالنجوم المتلألئة فى هذا المساء الصيفى . النجوم كان فيها الصغير والكبير . كانت النجوم تذكر بالقطعان الكبيرة وقد تفرقت شتاتاً فى بروج السماء السوداء .

همس لنفسه قائلاً : « كم أن الحياة جميلة » .

لم يكن الوقت وقت تفرج على النجوم ، فلقد كان هناك من الأعداء اثنان ، لا بد أولاً من إيجاد وسيلة لتدمير العدو .

ومضى فى زحفه .

ودخل المخبأ فى هدوء مثلما خرج منه . حدَّث نفسه قائلاً فى إرهاق وتعب :

– « ستشرق الشمس عن قريب » .

تمدد بجوار زملائه وراح سريعاً فى سبات عميق .

وفى الصباح أخذ الفصيل الذى ينتمى إليه زين العابدين مكانه العادى القديم . أذاعوا عليهم أن العدو يكثف من قواته فى هذه المنطقة ، لذا أخذ الجنود حالة الاستعداد .

أما فى الخندق فقد تحرك شخص لا بد أن يكون هو اليونانى السبَّاب الذى كان بالأمس ، إلا أنه لم يكن يظهر منه غير طرف الميكرفون الذى معه . تقدَّم اليونانى إلى أقرب نقطة منهم .

لاحظ زملاء زين العابدين عمق تفكيره . وسيبدأ هذا الثعبان اليونانى مرة أخرى – كالعادة – صياحه وشتائمه . وستضرب الدماء مخ زين العابدين مرة أخرى من شدة الغضب .

بدأ اليونانى بالفعل فى الصياح ، لكن كان يبدو أنه فى هذه المرة متعجلاً فى أمره ، ذلك لأنه ما برح بعد وصوله إلى منتصف الخندق إلا وكان قد بدأ فى سيل سبابه وشتائمه : « هيه يا زين العابدين يا ابن ..... » .

قال زميل لزين العابدين من الجنود :

– « كن رابط الجأش يا زين العابدين . لا تجعل هذا الرجل يستفزَّك . أما زين العابدين فقد كان ينظر بسكون وطمأنينة . كان منسجماً . كان مسروراً .

لذلك سيطرت الدهشة على زملائه الجنود عندما وجدوه على هذا النحو .

كان اليونانى يتقدم وهو يصيح شاتماً زين العابدين :

– « هيه يا زين العابدين ، أنا (......) .

لكن اليونانى اختفى عند نطقه لنهاية هذه الجملة . اختفى فى ضجيج انفجار مرعب . وأعقب هذا الانفجار انفجار آخر مروع . وساد الجوَّ سحابةٌ من تراب ودخان خرجت من طرف الخندق . وطار الميكرفون فى الهواء ليسقط على مسافة عشرة أمتار .

ابتسم زين العابدين .

- أأنت الذى وضعت اللغم ؟

- نعم هذه الليلة .

قال زين العابدين هذه الجملة الأخيرة وهو فى غاية الزَّهْو . وانقشع التراب والدخان . وأراد زين العابدين أن يشتم ويسب باللغة اليونانية موجِّهاً شتائمه نحو الساتر المقابل لكنه تماسك ، وقد علم بالضرورة اجتثاث جذورهم بدلاً من سبِّ أمهاتهم .

هذا الخندق المحفور قبل يوم كان يشبه رمحاً أو ثعباناً أسود . لكن الرمح انكسر ، وسُحق رأس الثعبان . والخندق الآن يُذكِّر بثعبان ميت .

[٦]

من البوسنة والهرسك

الرحيـــــــل

بقلم : محمد سليموفيتش

فتح الظرف وأخرج الورقة من داخله . كتب بخط يده ما يلى :

لا أريد مراسم الجنازة . لا أريد أن يُلقى أحد خطباً كالمعتاد . لا يأتى أحد بزهور . تُؤدَّى المراسم بثلاثة قساوسة فقط وحسب قواعد الكنيسة . والمصاريف تُسدَّد من حفيظة ادخارى فى البنك ، وبقية النقود فيها تُوزَّع على الفقراء .

وأضاف للكلام العبارة التالية :

يا ولدى « فلاديمير » آمل ألَّا تدهش من وصيتى هذه ، ليس هناك سبب واحد لعدم إيمانى ، بالعكس فإنى مؤمن ، أرجو لك السعادة والهناء « خالك » .

تُرى متى كتب هذا الكلام ؟ يبدو أنه كتبه هنا عندما اقترب الموت منه ، وفهم الحقيقة .. كتبه فى لحظة أحسَّ بأنه مفارق الحياة . لم يكتب تاريخاً تحت هذا الكلام ، يبدو وبكل أسف أنه فى تلك اللحظة كان يحمل فى يده فرشاة الرسم ، وواضح من خط يده أنه كان محتدًّا . والحق أن الخط كان نظيفاً ، مقروءاً .

كل يوم عاشه بعد ذلك اليوم كان مكسباً . ربما كان كل ما كتبه هذا سخرية بالبدع وكأنه يقول : ها أنذا قد كتبت وصيتى ، والآن أجد نفسى مستعدًّا للموت .. لتحيا الحياة !

والحق أن تصرُّفه المتديِّن هذا كان مفاجأة كبرى . كان خال « فلاديمير » يؤمن بأنه مشرك فى ديانته ، ولو كان هناك ربًّا يؤمن به فلن يكون أكثر من « ديونيس » أو قوة تطرد الأرواح الشريرة التى تلفُّ وتدور حول البيت .

عندما قرأ فلاديمير هذا الكلام أخذته الدهشة .

ما هذا يا تُرى ؟ ما هذا الخوف أمام الموت الذى لن يستطع البشر أن يحلُّوه ؟ أهو انقراض أمام هذه الأبدية اللانهائية ؟ أهو خوف ؟ أو أن هذا إطار مغلق فى حياة الإنسان ؟ أو أنه معيشة ذكريات الطفولة من جديد فى أثناء الهرم وكبر السنّ ؟

كان يشعل وقود المدفأة ويمسك إبريق الشاى بإحدى يديه ويبحث عن السكر والشاى فى الدولاب ، وفى اليد الأخرى ما زال يقلب الوصية التى لا يصدق أنه يقرؤها .

الجزء الأول من الوصية مضحك ، وفى الثانى أهمية بالغة . تأثر كثيراً بالجزء المضاف إلى الوصية فى آخرها . وهذا طبيعى . لماذا لم يقل له عندما كان مصاحباً له قريباً منه ؟ كيف كان يمكن أن يشرح له إيمانه الجديد ؟ وكما قال : لم يكن هناك أى سبب ظاهر للإلحاد . لم يكن هذا غير شىء يتمثل فى تحدى نفسه أو الضحك على نفسه أو السخرية بمن يمكن أن يلقى عليه سؤالاً فى الموضوع ، وإلَّا فإن كل ذلك لم يكن فى مبالاة بالموت .

أى فكرة ، بل أى مفهوم أكثر ثقلاً أو ضغطاً : الإيمان ؟ أو الإلحاد ؟ الإيمان بقوة الله فى الآخرة يأخذ مفهوم تسليم الإنسان ، ذلك معناه عدم الإيمان بأى شىء إنسانى .

على كلٍّ ، نهاية الإنسان فى هذه الدنيا لغز كبير . وكل المحاكمات تحمل نفس القيمة أمام هذا . هل يمكن للموت أن يوقف كل ثروة الإنسان التى حصَّلها ويوقف أيضاً نجاحاته ؟ وماذا يحدث معى ؟ لو كنت روحاً فماذا أفيد ؟ وماذا سيحدث إذا عشت كحشرة أو أى شىء آخر ؟ وما أهمية أن أجزاء جسمى تُبعث مرة أخرى ؟

لقد فكَّر جيداً بعد تناوله طعام الإفطار . يبدو أن خالى كان مرهقاً بالدرجة التى أسلم فيها هكذا .

ومرة أخرى لم يستطع أن يمسك نفسه من الحيرة : ترى هل لا يفتح حديثاً قط عن الوصية مع ابن أخيه أو يُبدى ما يشير إلى أنه قرأها ؟ لن يفتح فمه ، لن يعير الآخر انتباهاً ، سيتحرى أحاسيسه ، وسيترك الظرف على المنضدة ، وسينتبه لتصرفاته ، وسينتبه إلى كل حركة وهمسة .

دقَّ جرس الهاتف . ابن أخته يسأل عن موقف خاله .

صوت امرأة فى الهاتف :

– انتظر دقيقة .

سمع صوتاً أنًّا .

– سلمتم . مات صباح اليوم الساعة الخامسة . سلمتم .

اندهش وهو يقول :

– مستحيل . قالوا إنه تحسَّن . لا بد أن يكون فى الأمر خطأ ما .

لا ، السلامة لكم ، لقد مات . تفضَّلوا بالمجىء سريعاً ، أظن أنهم نقلوه إلى غرفة الموتى الآن فقط .

ظهر التأثُّر على ابن الأخت بشكل واضح . وبدأت يداه فى الارتعاش . وكرَّر مرات عديدة كلمة « مستحيل » والتى ما زالت ترنُّ فى أذنيه . قالوا مساء إنه أحسَّ بالتحسن والراحة ، حتى أنه فكر فى أن يقدم الشكر للممرضة الشابة اليوم .

لم يستطع تمالك نفسه ، وكأن لكمةً شديدة أصابته فى رأسه . أخذ يغسل الفنجان والملعقة ، غرق فى التفكير قائلاً :

مات دون أن يحس بألم .

ظلَّت الوصية على منضدة المطبخ .

هل كان يعرف أنه لن يعود إلى هنا مرة أخرى ؟

جرس الهاتف يدقُّ ، « ترويج » يسأل عن صحة خاله . كان سعيداً جدًّا . كان واضحاً أنه يريد أن يعطيه أملاً وثقة وروحاً معنوية . أجابه قائلاً :

– لقد مات .

فهم « فلاديمير » أن الذى يحدِّثه قد أُصيب بهزة شديدة . ترك الهاتف وترك نفسه على الكرسى سريعاً وما زالت قدماه تحجلان .

لا يستطيع أن يبكى . كان هناك شىء يربط فمه . أكثر من إحساس ينتابه .

كان هذا إحساساً بعيداً أو قريباً ، ماضياً وحاليًا ، أبديًا ، ومؤقتاً : مهما ارتبط بشخص فلا بد أن يأتى يوم ليفارقه . ولا يُعتبر هذا مؤلماً . ذلك لأنه شيء لا يمكن الهروب منه . شيء أقوى من كل رغبات الإنسان ومتطلباته . والأصل أن الفقد والوجود واحد . العدم هو نهاية الحياة والفراق مثل نهاية الحب .

كان ينبغي الذهاب إلى المستشفى ، ربما لم يكونوا قد نقلوا جثة خاله إلى غرفة الموتى حتى الآن . وإذا كانوا نقلوه فليس من السهل على الإطلاق الذهاب إلى هناك . ولم يحدث أنه دخل غرفة للموتى قبل هذا . ما هذا الذى يحسه ! يحس كأنه ينسحق تحت أحاسيس عجيبة . ومهما يكن الأمر فلن تتعدى هذه الغرفة أكثر من دكان جثث ، قائمة انتظار للأبدية ، غرفة إعداد أجزاء لا أهمية لها ، مكان كهذا هو غرفة موتى .

إن الذهاب إليها لَأمرٌ يفجر كبد الإنسان غيظاً .

بمجرد أن دق « ترويج » الباب دلف إلى الداخل لأن الباب كان مفتوحاً . قال شيئاً كأنه :

– أقدم خالاتى .

لفت الدهشة من فى البيت لأن هذه أول مرة تقدم فيها التعازى . إن هذا قد هزَّ أعصابه . كان الحديث أمراً مختلفاً تماماً عن الموت والآلام .

عند الذهاب إلى المستشفى بدأوا يتحدثون عن العجوز ، تحدثوا عن الموت الذى يهبط فجأة . وصفوا الموت بأنه لم يكن عنده حق فى المجيء . وصفوه بأنه كان ظلماً أن يموت الميت !!

على كل حال فقد حدث للعجوز ما كان « فلاديمير » يخشاه بل أكبر مما كان يخشاه .. كانوا قد نقلوا الميت إلى غرفة الموتى .

همس على غير رغبة قائلاً :

لا أستطيع الدخول إلى غرفة الموتى .

إذا لم تدخل فهذا هو العيب . عليك بالدخول . أنت مجبر على الدخول من أجل نفسك ومن أجل الآخرين .

باب غرفة حجرة الموتى أكبر مرتين من الأبواب الأخرى .. لماذا ؟

أحسَّ بثقل فى جسده . كانت الغرفة باردة جدًّا ، والحيطان أسمنتية ، وفى وسط الغرفة تماماً لمبة معلَّقة . كانت الغرفة نصف مظلمة . يداه كانتا باردتين فى برودة الرخام . وعلى عربتين بعجل جسدان .. الجسدان مغطيان بملاءتين . واحدة منهما على أية حال خاله الذى قيل إنه تحسنت صحته بالأمس ، والآخر مجهول .

لم يكن سهلاً معرفة جثة خاله تحت هذه الأضواء الميتة ، كان مفهوماً أن جثة خاله هى التى كانت على العربة التى فى اليسار . كان على وجه الممرض كآمة ، سار الممرض نحوه . كان وجه الممرض أصفر شديد الصفرة . وقد خرجت إلى الأمام بمقدار شبر بطنه عن البالطو الأبيض الذى يرتديه .

أغلق فلاديمير عينيه ، وبدأت رأسه فى الدوران ، وأحس بمرارة فى فمه ، أيقظ ما رآه فى هذه الغرفة فى نفسه شعوراً عجيباً ، من يدرى كم من الموتى حملوهم إلى هنا ؟ من كان يدرى أىَّ أمراض ابتُلوا بها ؟ مهما كانت الأمراض فى الدنيا فلا بد — عاجلاً أو آجلاً — أن تنتهى . فى هذا المكان كل شىء هنا متسخ : الجدران ، الفرش ، والهواء . ينبغى للإنسان ألَّا يتنفس هنا وعليه ألا يقرب الأكل بعد ذلك ، ويجب ألا يحب ، بل ويجب أن يودع الحياة .

حدث فلاديمير نفسه سائلاً :

أهذا خالى ؟ وجهه أخضر شديد الخضرة « يا إلهى أبهذه السرعة » ساقط الفك ، خطوطه العامة هى بعينها ولكنه مع ذلك ليس هناك شىء بنفسه . كل شىء فيه قد ذبل . وترك الموت وراءه ندماً ، وإلا فخاله الميت كان طيب القلب ، شهماً ، دافئاً ، حيويًّا . كان هو كل شىء والآن أصبح كل هذا ذكريات طيبة مجردة . عجباً ، أهو هذا أم غيره ؟

إنه — بالنسبة لفلاديمير — هو .. هو ، والذكريات عنه لم تذبل بعد .

ما زالت طازجة . سيعيش . سيعيش مدة طويلة . الإنسان ليس عبارة عن بدن فقط .. فى الإنسان أشياء ستعيش بعده ، ذكريات الإنسان ، أحاسيسه ، جميل أفعاله ، أعماله . كانت لوحات خاله الميت من أجل غيره ، لذلك سيعيش .

يجب جمع كل لوحاته . سيعمل كل ما فى وسعه ليجمعها فى مكان واحد . ستكون لوحاته ذكرى خاله .

وبينما يقسم على كل هذا بينه وبين نفسه تذكر أن عليه أن يقبل هذا الوجه الساقط الفك ، فزع ، لم يستطع استيعاب ضرورة القيام بهذا ، لكن الناس ينتظرون هذا وكان واثقاً أنه لن يستطيع عمل هذا . لقد كان سيحيى خاله فى ذكرياته التى استمرت طوال عمره ، وسيذكر هذا فى أجمل الأوقات التى ستمر به . كان خاله إنساناً طيب القلب بدرجة كبيرة . ومع كل هذا لم يستطع أن يجد فى نفسه الجرأة على تقبيله وهو فى وضع كهذا الوضع الذى هو فيه الآن ذلك لأن هذا الذى أمامه لم يكن بالقطع هو الإنسان الذى عرفه .

كان الممرض يهز الملاءة دون توقف مرة إلى هذا الجانب ومرة أخرى إلى ذلك ، راغباً أن يغطى جسد الميت . كان الذين يروه هكذا يظنون أنه يرطب للميت الهواء . وأمسك « ترويج » فلاديمير من يده ، عليهم بالعودة ، واضح أنهم مكثوا هنا كثيراً . يجب أن يتركوا هذا المكان . لن يروا هذا الوجه مرة أخرى ، سيأخذونه إلى صدر الأرض إلى التراب ، ويحفظونه فيه ، يدفنونه .

لم يستطع فلاديمير التحمل ، وأخذ يجهش بالبكاء .

أدار ترويج رأسه بعيداً حتى لا يراه وهو يبكى .

فكر فلاديمير قائلاً : فليكن الأمر هكذا ، ليرانى وأنا أبكى عليه .

وضع يده فى جيبه وهو لا يدرى أهذا مخالفة للأصول أم لا وأعطى بقشيشاً للممرض . أخذ الممرض النقود ولم يقل شيئاً .

سار نحو الباب ، سمع من خلفه أصوات أقدام « ترويج » تخرج .

هيا الآن لنذهب إلى المستشفى لنكمل بعض الأمور الخاصة بالدفن . أخرج فلاديمير وصية خاله الميت . قرأها . لم يدهش كثيراً .

ابتسم « ترويج » وهو يقول فى نفسه : لقد كتب شيئاً طيباً ، « ليس هناك سبب لإلحادى بالعكس فأنا مؤمن » هيا لنقابل القساوسة . إذا كنت أنت مرهقاً أذهب أنا

بمفردى والقساوسة لا يسألون عن إيصال ولا عن طلب مكتوب . أفكر أحياناً أن أعمالهم غاية فى السهولة . إنهم ينتظرون فى ملتقى الطرق والمنحنيات وفى التلال وفى الوديان ، إنهم يعانون من عذاب الضمير . يودون دائماً تجديد الدين القديم ، لن يكون لدينا مع القساوسة آية صعوبة .

كان « ترويج » يستقبل الجوانب الفلسفية والتكنيكية للموت بسكون شديد . هكذا الأمر أفضل ، وبعد ذلك لا يترك هذا فى نفسه ألماً ولا كدراً .

كل شئ بالنسبة لفلاديمير محير ، سواء أكان كدراً أم موتاً . الأكثر هو ما كان من اختيار خاله للمراسيم الدينية .

ترى هل خاف من الموت ؟ هل كان غضبانَ على شئ آمن به ؟ أم أنه ضل طريقة فى يوم موته ؟ شئ عجيب ! لم يفطن إلى الدراما الكبيرة التى عاشها فى آخر أيامه عندما كان يصارع الموت . هل هذا هو الأصل فيه وقد أخفاه عن الناس ؟ إدراك هذا الآن أمراً غاية فى الصعوبة ، لقد أوقف الموت أشياء فيه وأوقف فهم أسراره .

[٧]

من بلغاريا

عشق المفاتيح التسعة والعشرين

بقلم : نادية أحمد وفا

– أحك يا جدى ، بشرط أن تحكى كثيراً !! أتعرف ماذا تعنى كلمة كثيراً ؟
فتحت ذراعىَّ بأقصى ما أستطيع وقلت لها :

– يعنى بكل هذا القدر من الكثرة .

وأردف قائلاً :

– جدك لا يكذب . سأحكى لك كثيراً جدًّا . جدك إذا قال يفعل .

كان هذا فى إحدى الأمسيات . كنا نسير نحو « النهر » أنا وجدى وأيادينا متشابكة . يبدو النهر بصوت انسياب المياه فيه وكأنه أم تهدهد بأغنياتها طفلها فى المهد . كانت بعض الضفادع تنقنق على الشاطىء فلما أحست بنا ألقت بنفسها انطلاقاً إلى الحياة . كانت هناك بجانب النهر شجرة صفصاف عتيقة . كانت تنظر إلى شعورها الطويلة المتدلية ، تنظر إليها فى مرآة الحياة . جلسنا فى ظلها الخفيف .

قلت لجدى : أريد صفارة العب بها . وإذا به فوراً وبدون تراخ حمل بيديه على ركبتيه ونهض . وعندما عاد وجلس بدأ يحكى لى . ركزت عينىَّ على عينى جدى . كنت أريد أن آخذ كل كلمة يقولها وأقسمها إلى نصفين كأنها « أبو فروة » وانظر بداخلها .

جدى يحكى وأنا أستمع ، ثم أصاب الملل جدى لكننى لم أملَّ أنا من الاستماع . وكانت الصفارة مستعدة أيضاً . نفخت فيها فأحدثتُ ضجَّة جعلت الطيور التى كانت أعلى منى تطير هاربة . لكننى لم أكن قد ارتويت بعد من حكايات جدى . توسلت إليه مرة أخرى قائلة :

– جدى ، هيا احك لى هذه المرة حكاية طويلة جدًّا !

قلت لها : اذهبى إلى المدرسة وسيعطيك الشيخ هناك مفاتيح كثيرة يبلغ عددها

تسعة وعشرين مفتاحاً . تسعة وعشرون مفتاحاً ذهبيًا بالتمام والكمال . فى ذلك الوقت لن تعودى تطلبين منى أن أحكى لك حكايات وحواديت ولن تتوسلى إلىَّ بهذا الشكل مرة أخرى .

وفى الحقيقة أننى كنت أحب اللعب بالمفاتيح ، وجدى يعرف هذا جيداً . وكانت أمى إذا أرادت أن تطبخ وتلهينى بشىء تعطينى مجموعة مفاتيح لألعب بها . فكنت ألهو بالمفاتيح وأسعد بها جدًا لدرجة أن والدتى تنتهى من إعداد الأكل فى المطبخ وأنا ما زلت ألعب بالمفاتيح . وعندما قال لى جدى هذا ، وثَبْتُ واقفة وقلت له :

– جدى ، ما شكل هذه المفاتيح ؟ هيا الآن نطلبها من الشيخ المعلم .

– إنها مفاتيح لا يستطيع أحد إمساكها باليد .

– أهناك مفاتيح بهذا الوصف يا جدى ؟ أنت تضحك علىَّ .

– ألم أقل لك منذ قليل أن الأجداد لا يكذبون ؟

ما زالت هناك عدة أشهر على بدء الدراسة . آه لو تعلمون كم كانت هذه الأيام تمر ثقيلة ! وكنت فى حالة تفكير دائم فى المفاتيح التى حدثنى جدى عنها . عند خروجى إلى الشارع أجمع الأغصان وأصنع منها مفاتيح وأصنع بيوتاً من التراب ، أوضع لكل واحد منها مفتاحاً على بابه . وكنت أفكر باستغراق قائلة :

– تُرى هل سيعطينا الشيخ فى الكُتَّاب مفتاحاً هكذا ؟

وعندما أعود إلى البيت كنت أحتضن رقبة جدى الرقيقة وأفاتحه فى الكلام قائلة :

– جدِّى الطيب ، جدى الحبيب ، لا بد أن تتكلم ولا أستطيع تحمُّل سكوتك .

– ماذا ستفعلين ؟

أفكر وأستعرض فى عقلى كل شىء يمكن صنعه ، وعندما أفهم أننى لن أستطيع عمل شىء مع جدى أقول له أحب كلمة إلىَّ :

– أطير !

فكان جدى يضحك بشدة . ثم يفكر قليلاً ويقول :

– عندما تتسلمين المفاتيح من الشيخ فى الكُتَّاب سيمكنك أن تطيرى بالفعل .

وذات يوم قابلنا معلِّم الكُتَّاب الذى سيدرِّس لنا . فكنت على شفا أن أطلب منه

المفاتيح . الكلام على لسانى ، لكننى كنت أخجل جدًّا . ومن شدة خجلى لم أكن أستطيع أن أتحدث بسهولة بل إنى لا أكاد أنطق اسمى صحيحاً أمامه .

مرت الأيام .. وفى ليلة ذهابى إلى الكُتَّاب كنت فى شدة الفرح . كنت أتسلَّق كتفيَّ جدى .. وفى الليل نمت فى صحبة الحقيبة التى كنت سآخذها معى فى اليوم التالى . وعندما كانت الحقيبة تبعد عن يدى فى أثناء نومى كنت أجدها بطرف يدى ، وأعود إلى المخدة مرة أخرى . على كل حال كنت قد تعبت من التفكير فنمت . وعندما استيقظت كنت كأنى مستيقظة . وجدت جدى وقد مال علىَّ وأخذ يحدثنى بصوت رقيق كالقطيفة :

– نامى .. نامى جيداً وكونى عاقلة .

أعجبتنى كلمات جدى هذه . ابتسمت وانقلبت على جانبى الآخر .

قال جدى :

– إنها مسرورة ، يبدو أنها حصلت على مفاتيح النور .

ثم قبَّلنى على خدى وقال :

– هيا يا حفيدتى .. لقد تأخَّرتِ .

وثَبْتُ واقفة ، ودعكت عينيَّ المغمضتين قليلاً بقبضتى اليمنى . أخذت حقيبتى وقلت :

– جدى .. أنا مستعدة !

قال :

– أمعقول أن تذهبى إلى الكُتَّاب هكذا . حفيدتى الآن ستغسل وجهها ، ثم ترتدى ملابس المدرسة ، وتتناول إفطارها ، ثم تقول لجدها « مع السلامة يا جدى » ثم تأخذ طريقها إلى الكُتَّاب . لكن اليوم هو اليوم الأول لذلك سأذهب بك اليوم فقط إلى الكُتَّاب .

– جدى ! هل ستذهب معى لتتعلم القراءة مثلى ؟

– لا ، أنا سأوصلك فقط .

ما ألذَّ الذهاب إلى المدارس .. شرح لنا الشيخ دروساً جميلة . وانحنيت أنا على سنادة الكتب الخضراء وحاولت حفظ كل ما قاله الشيخ المعلِّم .

وبعد عودتى إلى المنزل كان علىَّ أن أقصَّ على جدى كل شىء . أعجبتنى جدًّا الهدايا التى أحضرها الرواد . فتح الشيخ المعلِّم أحد الأكياس وقال :

– ستستفيدين من هذا طوال السنة .

مرَّ يوم .. أسبوع .. شهر ، وإذا بآخر السنة يأتى سريعاً . كنت فى أثناء ذلك قد تعلمت كتابة الحروف وكنت كمن يرسمها . وأجمع الحرف بجانب الحرف فأنطق الكلمة على استهجاء .

أعددنا السفرة . أخرج جدى كتاباً ضخماً فيه صور ، أخرجه من تحت المخدة ، فكرت قائلة : يبدو أن جدى سَيذاكر ويقرأ الكتاب بدلاً من أن نأكل .

وعندما مرت كلمة كتاب فى ذاكرتى تذكرت فجأة كلمة قالها جدى فقلت له :

– جدى ، أين هى تلك المفاتيح الذهبية التى قلت لى إن الشيخ المعلم صديقك سيعطيها لى ؟ يبدو أنه نسى !

– لا ، فالمعلِّمون لا ينسون ! إن المفاتيح فى يدك .

– جدى ، لا تمزح . لن أكلمك بعد الآن . أنا زعلانة منك . وأدرت ظهرى لجدى . حملنى جدى على ركبتيه . ومسح بحنان على رأسى ووضع ذلك الكتاب الكبير الذى كان أخرجه منذ قليل ، ووضعه على صدرى ثم قرأت فيه بالتهجى كلمة كلمة . كان كتاب حكايات .

قال جدى لى سائلاً :

– ألم يعلمك الشيخ المعلم كل الحروف ؟ هيا قولى لى . كم حرفاً فى الأبجدية ؟

أفقت وكأنى كنت أغط فى نوم . استحضرت أمام عينى حكاية حكاها لى جدى . أصبحت وكأنى ألمس بيدى قصراً له تسعة وعشرون باباً . وكنت أمسك فى يدى تسعة وعشرين مفتاحاً ذهبيًّا . كل واحد من هذه المفاتيح كان كأنه حرف فاحتضنت جدى وقلت له :

– جدى ، جدى الطيب الحبيب . معنى هذا أن هذه التسعة والعشرين حرفاً هى تسعة وعشرون مفتاحاً .

الفصل الثانى

الشـــعر

أولاً : البوسنة والهرسك

١ – فك حصار إيزفورنوك	للشاعر البوسنوى بَىْ زاده
٢ – فك حصار بانالوقا	للشاعر البوسنوى غريبى
٣ – أحلم بعالم جديد	للشاعر حسران بايراميج
٤ – مرثيَّة	للشاعرة دارا سكوليتش
٥ – الدخـان	للشاعرة ياسنا شاميتش
٦ – لم يعد للشعر مكان	للشاعر عزت سراى ليتش
٧ – زكـريا	للشاعر جمال الدين لايتش
٨ – فى ليلة انعدمت فيها النجوم	للشاعر جعفر طورايتش

ثانياً : بلغاريا :

١ – هذه الأرض	للشاعر حسين قراحسين
٢ – أرضنا خصبة	للشاعر نيازى حسن
٣ – كل صباح	للشاعر نيازى حسن
٤ – الحمامة	للشاعر شاهين مصطفى
٥ – لا تتركنى أيها الربيع	للشاعر لطيف على
٦ – الإيمان والأمل والحرية	للشاعر الشهيد رجب كوبجى

[أولاً]

البوسنة والهرسك

١ - فك حصار إيزفورنوك .

٢ - فك حصار بانالوقا .

٣ - أحلم بعالم جديد .

٤ - مرثيَّة .

٥ - الدخان .

٦ - لم يعد للشعر مكان .

٧ - زكريا .

٨ - فى ليلة انعدمت فيها النجوم .

[١]

فك حصار إيزفورنوك

(من يد الكفار)

للشاعر البوسنوى : بَىّ زاده

ضجت قلعة « إيزفورنك » وبرجها الكبير ومقبرة القائمى .
يعلو الصراخ ، والكل يقول :
أسْرِعْ يا نعمان باشا فنحن فى انتظار النجدة .
تمكَّن جيش التمسا الكافر منَّا فحاصرنا ..
حاصرنا من جهات البلد الأربع .
يا ربنا البارى أعنَّا .
بعد أن جاء « بتراش » الكافر بصحبة الجنرال « أوسيك » لتدميرنا .
أسْرِعْ يا نعمان باشا فنحن فى انتظار النجدة .
« فيض الله باشا » فى القلعة ..
يتسلح بالإيمان والصبر والاستعداد .
أطال الله عمر الباشا فهو الرائد فى ميدان الوغى .
أصدر نعمان باشا فرماناً للجنود فى البوسنة والهرسك .
فليسرعوا فى يومين فقط إلى « بابرايتينا » .. إذن هيَّا .
وأسْرِعْ يا نعمان باشا فنحن فى انتظار النجدة .
جاهد الانكشارية لنصرة هذ الدين .
تعهد رستم أغا بالأطفال ..
لكن النسوة يبكين ليل نهار مع الصبية الصغار ، لذا ..
فأسْرِعْ يا نعمان باشا فنحن فى انتظار النجدة .
وصلتنا الأخبار بخروج الكفار إلى « أوصماغ » .

يهجم الكفار عليها ليلاً بعسكر كثيف .
لكن الفرمان قد صدر بهجوم قواتنا على « قَرَابَكْ » .
فالحمد لله والشكر لك يا ربنا ..
لأنك أعدت الابتسامة إلى وجوهِنا .
نهض الوزير « كوبريلى » وأخذ يدعو الله .
ردد جنود البوسنة خلفه : الله .. الله .
كان هذا الدعاء شكراً لله على النصر .
انتصر الوزير وانتصر الشعب وانهزم الكفار .
فالحمد لله والشكر لك يا ربنا ..
لأنك أعدت الابتسامة إلى وجوهنا .
ثم وصل الخبر من « إيزفورنوك » .
الخبر بشرى وفرحة وابتهاج .
هرب الكفار .
إذن فقد حرَّرنا الله .
ركض أهل البوسنة بخيولهم سبع ساعات ..
فهزموا خمسة آلاف ملعون ، بل ستة آلاف ..
وأخذوا منهم الغنائم .
الله حرَّرنا .. فشكراً لله .
لا أحَدَ يستطيع صُنْعَ النصر إلا الله ..
كتب لنا النصر .
لقد أسعدنا مولاى الغنى ..
أسعدنا بمنحنا الفرصة لتقديم الشكر إليه .
بعد أن نصرنا على عدونا الذى حاصرنا وأراد محونا لأنا مسلمون .

[٢]

فك حصار « بانالوقا »

للشاعر البوسنوى : غريبى

أرأيتم ماذا حلَّ بملك التمسا ؟
خان العهد ، رَغِبَ الحرب .
أرسل قواته إلى مدينتنا « بانالوقا » .
أقام الكفار الجسور وعبروا مياه نهر صاوا .
وحاصرونا من الجهات الأربع .
وصل الكفار إلى بانالوقا .
حفروا الأرض وأقاموا السد .
وأطلقوا علينا ألف طلقة مدفع كل يوم .
دنَّسوا جامع فرحاتيه .
هدموا محرابه ، هدموا المنبر .
وصل الكافر إلى بانالوقا .
ضجت القلعة بالصراخ والعويل .
دمَّر الكفار جامع فرحاتيه .
دمروا المدينة .
هيا أيها الباشا انجدنا !
تمنطق الباشا بالسيف .
أخذ المقاتلين البوسنويين خلفه .
وسار نحو العدو .
رفع آيات الإسلام فى ذهابهم لنجدة بانالوقا .

أرسل الباشا فرمانا إلى سراييفو وكل الجهات :
فليستعد الانكشارية للحرب !
فليسرع الجمع إلى « بانالوقا » .
وفى اليوم الموعود كبَّر الجنود وهللوا .
بعد أن استلُّوا سيوفهم وشهروا أسلحتهم .
قام شعب القلعة كله يدعو الله .
اللهم ربنا لا تجعلنا عرضة لإذلال الكفار .
لا تجعلنا أسرى لهم :
لهؤلاء الذين داهموا علينا بلادنا .
واستجاب الله لتوسُّل المؤمنين .
فشتَّتتْ مدافع على باشا جيش الكفار .
وانهزم الكفار .
اضطروا لخوض النهر فراراً دون رائدهم .
واستعاد المسلمون « بانالوقا » .

[٣]

أحلم بعالم جديد

للشاعر البوسنوى : حسران بايراميج

أحلم بعالم جديد :
عالَم يكره الحرب الغشوم ..
عالم يكون الإنسان فيه سعيداً ..
والغد فى هذا العالم يَحْدُوه الأمل .
أحلم بعالم جديد :
أنظر فيه إلى المستقبل بثقة ..
أعبد الله فيه ، أطيع أوامره .
أحلم بعالم جديد :
كله ثقة بمستقبلٍ :
لا نجده فى بلاد الجور .
لا يأكل فيه الإنسانُ الإنسانَ . لا يطغى فيه قوىٌّ .
لا يزهق فيه الإنسانُ رُوحَ الإنسانِ .
أحلم بعالم جديد ..
لا الحرب تقوم فيه من أجل المال ..
ولا الأخ يسفح فيه دماء أخيه .
لا يُحتقر فيه الإنسان .
لا يحقد فيه المخلوقُ على المخلوق .
أحلم بعالم جديد أشتاق إليه .
حدِّثونى يا سادتى الكبار :
أكثيرة هى رغباتى ؟

يجب على أيادينا أن تعمل ..
وألسنتنا أن تقول ..
وأقلامنا أن تكتب ..
وعلومنا أن تساعد .
أجدادنا قالوا فى الأمثال :
كل شيء يتحقق بالكفاح .
إذن فآمالنا ستحقق .
لا بد لآمالنا أن تتحقق أخيراً .
فترقبوا الأمل .
« عائشة سليمان »
إذا بحثنا فيك ذات يوم عن حدائق الزهور ..
وعن المآذن ، والحمام الكثيف ..
والخضرة فى البراعم ..
إذا بحثنا فى عينيك عن الأوراق الذابلة ..
عن وديانك جبالك ، وسهولك .
عن قلوب أهلك الطافحة بالبشر والحب والإيمان :
نعم ، إذا بحثنا ، نعم إذا بحثنا .
تُرى هل نرى لك أثراً ؟

[٤]

مرثيـــــة

شعر : دارا سكوليتش (١٩٣١ - ...)

لم نكن نفهم معنى الميلاد .
أتذكَّرُ الآن أسماء إخوتى ..
أسماءهم فرداً فرداً ..
إخوتى الأصغر منى .

* *

لا فرق هناك بين الأرض وبينك .
تُرى أهذا هو السبب ؟
فى سخونة لحم الخرفان !

* *

طرفُ ردائكِ الريفى الأبيض ذاك :
اعتاد الزينة كل خريف ..
ومنذ الميلاد .

* *

ماذا كان لون شعرك ؟
صرَّةُ أمتعتك كانت دوماً ..
تذكِّرنى بالخبز .

* *

كل الينابيع حملتَها على ظهرك .
جمَّعتها فى مكان واحد .
آه لو أعرف أين دُفنتَ !
لأبكيتُ عليك الأرض دماءً .

[٥]

الدخـــان

شعر : يا سنا شاميتش (١٩٤٩ - ...)

لا تكفيه ..
كل هذى البلدة الضخمة ..
ولا كل ديار الدنيا تكفيه .
ذاك الطمَّاع الأشر .

* *

يطمع فى مشيتنا .
حتى هذى يريد !!
يطمع فى أن يدخل فينا .
ويوصد كل الأشياء وراءه .

* *

يطمع فى عينَىَّ .
بل إن يسدل فوقهما ستاراً أسود .

* *

يطمع فى بسماتى .
يطمع فى إغلاق المزلاج على لسانى .

* *

بل يطمع فى أشياء أخرى كثيرة ..
يطمع فى شمسى وضيائى .

[٦]

لم يعد للشعر مكان

شعر : عزت سراى ليتش (١٩٣٠ - ...)

لم يعد فى الشعر شئ يعنينى .
منذ مدّة طويلة .

* *

ذاك لأن الشئ الوحيد
الذى يعنينى هو : الحياة .

* *

وللحق أقول :
أسوأ ما فى الشعر .
هو نفس الشعر .

* *

لكن : عندما تتدفق الحياة .
لتأخذ طريقها إلى الشعر ،
فالشعر فى ذاك الحين :
يصبح شعراً ،
حتى دون أن :
يدس الشاعر أنفه .

[٧]

زكـــريا

شعر : جمال الدين لاتيتش

هنا ، وفى هذا المكان :
ينبعث من الموت الخلود .
والشلالات تتدفق
ليأخذ الماء مساره .
والشجرة عتيقة ، متآكلة :
لكنها تتذوق طعم الخلود .
* *
جمعتنا الشمس هناك
خارج خطوات الأقدام .
تلك الخطوات التى
خطوتُها فى دقة وحذر .
* *
ما ترامى إلى مسمعى :
همسات روح تذكر الله .
تقول : الله !! الله !!
والنيران تتوهج .
* *
الإنسان .. ذرَّة .
الإنسان .. بذرة .
الإنسان .. جذر شجرة .
الإنسان .. سنبلة قمح .

[٨]

فى ليلة انعدمت فيها النجوم

شعر : جعفر طورإيتش

الليل ، والليل فقط ، هو الذى
تبقًى فى صرًة متاعى .
انتهت كل الأشياء .
ولم يعد لدىً شىء أمتلكه ،
إلًا ليلة انعدمت فيها النجوم ،
ليلة : كذًبتُ فيها حُبًى .

* *

لكنى سأعيش الليل
بين شفتى مسكين منكسر القلب .
لكنى سأعيش ، كل ما هناك أنى
سأعيش كالدعاء المرتعش .

* *

لن أشعر باغتيال طيور النورس ،
فطيور النورس ستنام .
والليل أطول من الموت .

* *

ليس فى حضن الليل الأبيض إلًا :
إمضاءات .. بروتوكولات .. كرافتات
والحاصل ؛ أن حياة اليوم العصرية
لن تنحنى لى ليملؤها النفور .

لأن ضوء الشمس عندما يلمس جلدى
لن يصبح جلدى ،
ولن يبقى فى صرَّة متاعى إلا ليلة
ليلة انعدمت فيها النجوم
ولن يصبح لى بعد ذلك شىء .. أى شىء .

[ثانياً]

بلغاريـــا

١ – هذه الأرض .
٢ – أرضنا الخصبة .
٣ – كل صباح .
٤ – الحمامة .
٥ – لا تتركني أيها الربيع .
٦ – الإيمان والأمل والحرية .

[١]

هـذه الأرض

شعر : حسين قاراحسين

لم أرِثْه من العدم ، ذلك الحب الخاص .
الذى يلفنى نحو الأرض .
حبى للأرض ليس جديداً .
لأن هذا الحب مولود قبل مولدى .
صُرَّتى دُفِنتْ فى هذه الأرض .
لأنهم ربطوا صُرَّتى بالمحراث الخشبى ؛
الذى يمزق بضعف هذه الحقول .
جففتُ دموع عينىَّ فى هذه الأرض .
أحببت وتحابينا بهذه الأرض .
سرى سمُّ الآلام فى هذه الأرض .
وأجمل أغنيات غنتها لنا أمهاتنا ونحن فى المهد ..
كانت فى هذه الأرض .

* *

المرأة تستطيع – معاذ الله – أن تخون إذا رغبت .
وكذلك الأولاد يمكن – لا قدر الله – أن ينحرفوا عن الطريق الحق ؛
إذا لم يجدوا موجِّهاً .
مثل الثلوج التى تهطل على الجبال ؛
مع أنها تثق فيها كل الثقة .
وأصدق أصدقائك يمكن أن يدير لك وجهه فى يوم ما .. إلا الأرض .

* *

فالأرض لا تخون .. الأرض طاهرة .
إنها أم لك لا تتعداك .
لا تتركك حتى لو تحوَّلَت الدنيا كلها إلى رماد ..
فأمك لا تتركك ، كما الأرض تماماً .
خاصة لو كانت هذه الأرض هى الأرض التى ربَّتك .
وإذا كنت أنت منها ، من هذه الأرض ..

* *

هذه الأرض هى راحة يد أمى ، وقبر أبى .
هذه الأرض هى ظلى ، وشمسى .
هذه الأرض قدرة ركبتىَّ على الحركة ..
بل هى صرَّة بطنى .

[٢]

أرضنا الخصبة

شعر : نيازى حسن

يتملَّكنى حب منذ الأزل ..
حب هذه الأرض .
حتى أحلامى ورؤاى تتخذ منها مسرحاً .
حبى يتفرع بل ويصبح كالضفيرة ..
بل كالنسيج ليربط كل إحساساتى .
لا بد أنى محقٌّ فى حبى .
وأنى به لسعيد مثلما الأرض سعيدة .
أنا أضحك فتضحك الأرض .

[٣]

كل صباح

شعر : نيازى حسن

أنظر كل صباح إلى القرية من فوق التل .
بنات القرية يهرعن مسرعات للعمل فى الحقول .
وأنا أعشق الأرض قدر عشقهن لها .
تلفح وجهى الرياح المعبَّقة برائحة الزروع .
أسمع أُنشودة هنا كل صباح .
ينتشر حب فى روحى يضرب على كل أوتارى .

[٤]

الحمامـــة

شعر : شاهين مصطفى

يرسم ابنى صورة للحمامة ..
طلب منها السكوت ، من كل الحاضرين فى الغرفة .
كان ابنى يخاف أن تطير الحمامة التى رسمها .
لذا كان يقول لنا اسكتوا .

* *

لا تخف يا بنى ، ولا تقلق ولا تضطرب ،
فالحمامة لا تستطيع أن تطير !
فما رَسَمْتَه أنت بيديك ..
يظل ملكك طول العمر .

[٥]

لا تتركنى أيها الربيع

شعر : لطيف على

بالله عليك أيها الربيع الطلق لا تدعنى وتذهب ..
لا تتركنى فأكون مثل يتيم مطاطىء الرأس .
لا تجمع كل ثمار أشجار الأمل وتذهب .
أيمكن ذلك ؟

* *

منذ وقت بعيد وأنا أرقب طريقك ..
أنتظرك مثلما ينتظر مريض على فراش الموت شفاءه .
لم يبق طريق لم أنتظرك فيه فاتحاً ذراعى ..
ولا رياح مرت من هنا إلا وسألتها عنك ..
أعلم يا ربيعى أننى عندما لم أجد لك أثراً فجراً ..
انتظرتك فى المساء عند الغروب .

[٦]

الإيمان والأمل والحرية

مختارات من قصائد « رجب كوبجو »

من قصيدة « الإيمان الموجود فى قلبى » :

لم أطلب من أحد منهم قط :
جرعة ماء للشرب .
قلبى كريم بالعزة :
مملوء كرامة ..
قلبى لم يعرف إحناء الرأس .

من قصيدة « ما بعد هذا » :

ركضتُ راجلاً حافى القدمين على الطريق ..
احترقت قدماى واحترَّ صدرى ..
لا تحترق يا قدماى ..
ذلك لأن الشوط بعيد .
ولا أزال فى أول الطريق . فى أول الطريق .

من قصيدة « الخيــلاء » :

السفينة المحمَّلة بالحب وبالأمل ..
تبحر إلى ديار الغربة ..
ديار الغربة تحول الشوق إلى نيران ..
فتجرى على الألسنة أنشودة محترقة .

من قصيدة « التألم » :

لم أتمكن من أن أسمع الأناشيد الحلوة كلَّها ..
لم أجد وقتاً لبكائى ..
لم أتمكن من أن أضحك ..
لم أتمكن من أن أسمع الأناشيد ..
الحلوة كلَّها .
لم أتمكن حتى من أن أعزف أناشيدى أنا .

من قصيدة « مَنْ سيحاكمنى » :

أعلم أنى بذرة فى الأرض .
يهطل عليها المطر ..
فترى البذرة فوق الأرض ..
خضراء جميلة تبتسم .

من قصيدة « وسيأتى اليوم الموعود » :

تتفتح الأزهار ، فيحنو قلبك أن ..
تعطى الناس الفاكهة .
فتأتى الأيدى نفسها لتقطف كل الأزهار .
لكن ما دامت فاكهتك نقية ..
فسيأتى اليوم الموعود ..
لتقطع تلك الأيدى .

من قصيدة « لنَتَحَدَّث » :

لست أشكو من أحد .
لا ينتابنى الخوف من أعدائى .
لكنى أريد ولو مرة ..
مواجهة الأعداء مباشرة .
الأعداء فى أيامنا هذه طرقهم ماكرة .

من قصيدة « الحرية كما أفكر فيها » :

نعم ؟! أيخدش جمال مدينتى « بورغاز » شىء ؟
نعم ! صحيح .. إن فيها نقصاً ظاهراً ..
كان فيها جامع بالقرب من الميناء ..
لكنهم هدموه .

من قصيدة « حتى لو كانت الطرق حادة الارتفاع » :

رأيت المسافرين وقد استظلوا بالظلال ..
لم تكن لديهم النية للقيام .
لكن يا وردتى الجميلة ..
حتى لو كانت الطرق حادة الارتفاع ..
فإن هناك من يصعدون إلى ذروة الجبل .

الفصـل الثالث

الـروايـة والمسرحيـة

أولاً : قيرغيزستان

١ – جميلة — للروائى جنكيز آيتْماتوف
٢ – أيها الجواد كول صارى — للروائى جنكيز آيتْماتوف
٣ – يمتد اليوم فيصبح قرناً — للروائى جنكيز آيتْماتوف

ثانياً : البوسنة والهرسك

– الدرويش والموت — للروائى محمد سليموفتش .

ثالثاً : عن داغستان :

– صقور القوقاز — للروائى سلجوق قُللى .

رابعاً : عن بلغاريا :

– أيها الشهداء إنّا قادمون — للكاتب المسرحى رمزى أوزجليك

[أولاً]

قيرغيزستان

١ – جميلة .
٢ – أيها الجواد كول صارى .
٣ – يمتد اليوم فيصبح قرناً .

[١]

« جميلـــــة »

(رواية عن معانى التحرر المبكر من الظلم الماركسى)

للروائى : جنكيز آيتماتوف

حازت رواية « جميلة » للروائى القيرغيزى : جنكيز آيتماتوف شهرة عالمية واسعة خاصة بعد أن تُرجمت إلى مختلف اللغات العالمية الواسعة الانتشار وإلى اللغات المحدودة الانتشار أيضاً .

والشاعر الفرنسى المعروف « آراجون » اعتبر رواية جميلة « أعظم قصة حب ظهرت فى الآداب السوفييتية » .

وكثرت الكتابات حول جميلة . كل صاحب وجهة يريد تفسيرها حسب وجهته . رآها بعضهم رمزاً للقوى الروحية التى اكتشفها أبطالها فى أنفسهم .

وجميلة – بطلة الرواية – فتاة ريفية فطرية جميلة وقوية تنبض بالحياة وبالشباب والحيوية والأصالة الريفية . كانت ترعى الخيول فى جانب من جوانب قريتها .

وذات يوم ظهر شاب قوى من قرية كبيرة مجاورة يرعى الخيل ويفخر بقوته ولم تعجب به جميلة . وقد رغب هذا الشاب فى جميلة لكنها صدته بقوة فقام بخطفها وتزوجها قهراً .

بعد أن أخذها إلى قريته وهى القرية الأضخم المجاورة لقرية جميلة وضمها إلى بيت أسرته . وكان هذا البيت يضم أفراداً مختلفين مثل أخيه الصغير وزوجات إخوته . وكانت أم خاطف جميلة هى المهيمنة على هذا البيت ، تارةً بالقوة وتارة برفق يشوبه السيطرة .

وقامت الحرب العالمية الثانية ، وجُنِّد خاطف جميلة فى الجيش السوفييتى وذهب

إلى الجبهة . وفى هذه الأثناء كانت الأم تطلب فى حزم من كل أفراد الأسرة الكبيرة – بما فيهم جميلة قيرغيزيا – الطاعة العمياء لها ، والانقياد دون مناقشة . وكانت الأم تتمنى من جميلة أن تنسى أنها مخطوفة ومرغمة بالقهر على الزواج من ابنها ، وتطلب منها الإخلاص .

لكن جميلة لم تكن تعرف إحناء الرأس ، وكانت فى البيت دائمة الزمجرة ، وكانت تحب الغناء رغم الإهانات الموجهة إليها . وكانت تشتاق إلى الغناء ولا تستطيع .

وكان العمل فى بيت الحماة شاقًا ، فكان يوكل إليها من الأمور الشاقة فوق طاقة تحملها مما جعلها دائماً فى مشقة .

وعرفت جميلة مدى اهتمام زوجها خاطفها المجند فى الجبهة .، عرفت مدى اهتمامه بها من الرسائل التى كان يرسلها إلى أمه ، فلا يتأتى على ذكر جميلة إلا فى آخر سطر فى الرسالة وفى كلمتين فقط .

وعندما صدر قرار الدولة بقيام السيدات بعمل الجنود والعمال داخل المدن والقرى . كان على جميلة نقل القمح . فتعرفت فى أثناء ذلك بعامل أعرج مريض يستطيع الإنشاد . كان جنديًا فى الجيش وجُرح فخرج إلى الحياة المدنية . فأحبته وأحبها ، وخرجت به من القرية إلى الأفق الأرحب ليتزوجا .

يرمز جنكيز آيتماتوف فى رواية « جميلة » إلى بلاده قيرغيزيا الجميلة الفتية الفائقة الحيوية الضعيفة فى الوقت نفسه بقلة عدد سكانها . والرموز فى الرواية كالتالى :

– خاطف جميلة : الفتى القوى هو رمز الثورة الشيوعية الفتية فى ذلك الوقت والتى خطفت (قيرغيزيا) جميلة خطفاً وجرى بها إلى بيت أمه الذى فيه ناس كثيرون .

– وهذا البيت هو رمز الاتحاد السوفييتى نفسه .

– والحماة هى رمز الحزب الشيوعى المتحكم فى البلاد .

– وزمجرة جميلة فى بيت حماتها رمز إلى ثورات قيرغيزيا ضد الحكم الشيوعى .

– وحبها للإنشاد هو رمز حبها للحرية .

- ودانيار هو رمز الشعب القيرغيزى الجريح الذى كان جنديًا أى بطلاً .

- والقيرغيزيون شعب بدوى محارب . وحب جميلة لدانيار هو رمز حب البلاد القيرغزية لشعبها وأبطالها الذين يمثلهم دانيار . ولا بد للزواج الشيوعى أن يحدث ، أى لا بد لقيرغيزيا أن تتحرر من الخطف الماركسى وتعود لشعبها .

[٢]

« أيها الجواد كول صارى »

(بداية ظهور التمرد على السلطة الماركسية)

للروائى : جنكيز آيتماتوف

وفى رواية « أيها الجواد كول صارى » للروائى القيرغيزى جنكيز آيتماتوف تصوير لحصان يمتلكه أحد المسلمين القيرغيزيين يدعى « تاناباى » أحب الحصان وأحبه الحصان . ثم لما جاءت الثورة الشيوعية لتستولى السلطة على كل شىء ملك للإنسان أخذوا منه حصانه وعز عليه هذا كثيراً ..

وسأقدم هنا مقتطفات من رواية « أيها الجواد كول صارى » حتى يمكن تبين خط جنكيز آيتماتوف فى التمرد على السلطة الماركسية ، وذلك بعد أن تمكَّن من كسب الرأى العام العالمى ، وأنه أصبح من المعدودين ، بل بعد أن أصبح هو الأشهر فى عالم الأدب فى بلاده .

إنه يشهِّر بالمبدأ الماركسى الذى يقول : « إن الثورة طفرة » :

« هل تريد أن تعرف يا تاناباى ، لماذا لا يحالفك التوفيق . إنه بسبب قلة صبرك . أقسم على ذلك — فأنت دائماً تريد كل شىء بسرعة وتظل تستعجل الأمور أبداً . كأن لسان حالك يقول : أعطنى الثورة العالمية على الفور .. إن كل الناس كالناس . يرتحلون بهدوء إلَّاك . فأنت تقفز وتعدو عدواً إلى الجبل لكأن الدنيا تطاردك . حسناً ولكن ماذا تربح بهذا ؟ لا شىء (قصص مختارة : كول صارى ص ١٠٢) .

وفى هذه الرواية يتحدث جنكيز آيتماتوف عن الاتحاد السوفييتى قائلاً :

« لقد بدأ البطل يلاحظ أن الحصان بدأ يضعف . كان قلب الحصان المرهق منذ زمن طويل يؤلمه من الداخل باستمرار وصار التنفس فى الرقبة يصعب أيضاً » (ص ١٠٤) .

« لم يعد الحليب يكفيه . فتعين عليه أن يقضم العشب . وابتدأت هكذا تلك الحياة التى امتدت سنين عدداً ، والتى حانت نهايتها الآن » (ص ١٠٦) .

« أما هو فلم تكفه القوة لدحر عتمة العاصفة الثلجية الوامضة . فقد كانت هذه تلفحه بذيولها القاسية ، وترميه بالثلج فى عينيه ومنخريه ، فكان يرتجف من البرد وهو يسبح فى العرق الحار اللاهب ، ولن يلبث ذلك العالم أن يغرق دون ضوضاء » (ص ١٠٧) .

أليس هذا وصفاً رمزيًّا للاتحاد السوفييتى كقوة دحر غاشمة تلفح بقوتها الشعب المسلم ليرتجف ويسبح فى العرق الحار فى أثناء البرد ؟! وأليس هذا استشرافاً الآفاق المستقبل بأن العالم السوفييتى لا بد أن يغرق .

وها هو ذا تصوير رمزى ذكى للشعب القيرغيزى المكبَّل فى الأسر السوفييتى .

« أخذ الجواد يصهل مستميتاً من الرعب والخوف أن يمس قطيعة ضر ، ذلك لأن الغريزة الفطرية للدفاع عن أهله قد استيقظت . لقد دعته هذه الغريزة إلى التصرف . وقد جُنَّ ضد الألجمة (جمع لجام) وضد الأعنة (جمع عنان) وضد الحبل المبروم من الشعر . ضد كل شىء أمسك به وثيقاً وحبسه . وجعل يتقلب ويحرث الأرض بحوافره ، وشرع يصهل دون انقطاع بأمل أن يسمع صراخات القطيع جواباً . ولكن لم يكن هناك شىء سوى العاصفة تصفر وتعول .. آه ، لو أُتيح له آنذاك أن يتحرر مما يربطه » (ص ١٨٨) .

وها هو ذا الروائى المسلم يصف بلاده المسلمة بأنها « الأرض المعذبة المخربة ، وأنها قد أضاعت سعادتها » (ص ١٩٤) .

ويصف شعبه القيرغيزى الخاضع للروس بقوله : « إنهم هم أنفسهم الذين يزرعون الحبوب ، ومع ذلك يظلون دون رغيف من الخبز » .

وعن ذل شعبه يقول فى روايته :

« كان (تاناباى) هو الذى يربى الخيول ، لكنه كان مجبراً على أن يحولها فيما بعد إلى آخرين لكى يستغلوها فى العمل وفى الركوب » .

وعن حياة المزارع الجماعية التى أذلت المسلمين فى بلاده يقول آيتماتوف فى هذه الرواية « أيها الجواد كول صارى » :

« هل كول صارى حصانك الخاص ؟ أهو ملكك الشخصى ؟ لم يعد حصانكم ملكك الخاص . فكل ما هو ملكنا انتقل إلى ملكية المزرعة الجماعية . وبهذا الوضع علينا أن نعيش . أما رئيس المزرعة أى الكولخوز (المزرعة الجماعية) فهو سيد المكان ، إذا قال شيئاً فلا بد أن يكون بالقهر طبعاً » .

وعن الدموية الماركسية وكابوسها يعبر بالرمز الذكى عن ذلك بقوله فى هذه الرواية :

« وحلم بحلم غريب .. فتارة كأنه فى الحرب .. وتارة أخرى كأنه فى مذبحة .. يكتنفه الدم اكتنافاً .. ويداه كذلك غارقتان فى دم لزج . بل هو نفسه يفكر فى الحلم . ليس خيراً هذا الشىء الدموى . كان يريد أن يغسل يديه فى مكان ما ، لكنهم يدفعونه ويضحكون منه ، ويقهقهون فى وجهه ، وغير مفهوم من الذى يفعل كل ذلك .

يا تانابای .. اغسل يديك ونظفهما بالدم ، فلا ماء هنا .. يا تانابای الدم هنا فى كل مكان » (٢١٧) .

إن المسلم القيرغيزى يسير طوال الليل وحيداً ، تحت وطأة القيود ودويِّها ، مثل سجين فارٍّ محكوم عليه بالأشغال الشاقة .

والمسلم القيرغيزى عند آيتماتوف « كان يحاول أن يجد مفتاحاً مناسباً لفتح القفل ، ويبدو أن خبرة الحداد تساعده فى ذلك . فالآن لم تعد لازمة مثل هذه القيود » .

ومع الروائى المسلم نقول كما جاء فى الرواية :

« سحقاً للخيمة ! كفى عيشاً بالطريقة القديمة » .

والخيمة يبدو أنها الاتحاد السوفييتى نفسه ، والعيش بالطريقة القديمة « الشيوعية » مهزلة لا بد أن تنتهى .

وعن الخوف من معارضة النظام الشيوعى تقول الرواية :

« عبثاً قال ذلك : أواه .. عبثاً ! فلقد كلفته هذه الحدَّة وقول الحق .. وكلفته هذه الصراحة ثمناً غالياً فى حياته .. » (ص ٢٢٥) .

وفى نقد المجتمع الشيوعى البيروقراطى تأتى هذه الفقرة من الرواية :

« أتدرى أى إنسان سيصبح ابنى بعد إنهاء التعليم ؟ منذ الآن صار يعرف كيف يرضى رؤساءه ويداهنهم . يقول لى ابنى هذا الذى يتعلم فى مدارس الدولة ، يقول لى : اجلب كمية أكبر من شراب الكوميس لمدرِّسى المدرسة .

وارتقى المنبر وتهيب شيئاً ، وقال ما قيل له ، ولكنه لم يقل شيئاً مما تكدَّس فى أعماق روحه . تمتم بالواجبات وهبط » (ص ٢٥٨) .

وفى ندم المسلم الذى يعطى جهده – ولو قهراً – ثم لا يُعار اهتماماً يتحدث جنكيز آيتماتوف على لسان بطل الرواية قائلاً :

« لقد ذهبت كل أيامى وسنين عمرى فى سبيل هذه المزرعة الجماعية الكولخوز ، والآن لا يُؤخذ فى حسبان المسؤلين شىء من هذا . إنى لن آسف على شىء . إن الإنسان لا يموت إلا مرة واحدة » (ص ٣٣٣) .

وفى السخرية بالاشتراكية والشيوعية وموقف المسلمين المغلوبين على أمرهم منها يقول كاتبنا :

« قال المدير : كيف أنت راع شيوعى وحملانك تنفق ؟ .

فيرد عليه تاناباى ساخراً :

– أما هى – أى الحملان – فعلى الأرجح لا تعرف أنى شيوعى .

يقول مدير المزرعة الكولخوز :

– هل تقبَّلت الالتزامات الشيوعى ؟

– تقبَّلت .

– ما الذى قيل هناك فى هذا ؟

– لا أتذكر » (ص ٣١٧) .

ملامح جينكيز آيتماتوف فى هذه الرواية ملامح المهاجم المتخفى ، مهاجم النظام الشيوعى وموقف الإنسان المسلم منه . جعل الحديث على ألسنة أبطال الرواية فى بناء فنى رمزى ذكى محكم البنية .

وهذه الرواية نقطة تحول من الرمز الكامل - كما فى « جميلة » - إلى الرمز المتخفى نصف اختفاء ، كما جاء على لسان أبطال الرواية .

[٣]

يمتد اليوم فيصبح قرناً

(معانى الإسلام فى الرواية السوفييتية المعاصرة)

للروائى : جنكيز آيتماتوف

تصوَّر رواية « يمتد اليوم فيصبح قرناً » أحد العمال فى قيرغيزيا ، وقد مات ، وإجراءات دفنه فى بلد مسلم . نسى الناس فيه كيفية الصلاة وكيفية الدفن ومستوجباته ، وتتحدث هذه الرواية عن برنامج غزو الفضاء الروسى - الأمريكى المشترك ، على أرض المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، وأن منطقة إطلاق الصاروخ كانت قريبة من « آنا - بيت » مقبرة المسلمين هناك . والموانع التى حدثت للدفن من جرَّاء هذا .

واستخدم الروائى فيها أسطورة قيرغيزية تتحدث عن الأعداء إذا استولوا على إنسان فإنهم يبدأون بتدمير روحه وتحويله إلى آلة لأفكارهم هم ، حتى أنه ينسى والديه وتكلمه أمه فلا يعرفها بل يريد أن يقتلها لأن الأعداء الذين غسلوا مخه قالوا له بضرورة قتلها . ولا شك أنه يقصد بهذا الاتحاد السوفييتى وما يفعله فى غسل مخ الشباب المسلم فى بلاد المسلمين الأسيرة التى تحتلها روسيا .

على كل حال نعود إلى تمكن جنكيز آيتماتوف فى خطوة كبيرة وجريئة أن يعبر عن نفسه كمسلم وعن جيله و الأجيال التى رزحت تحت نير الاستعمار الروسى . أقول : إنه يعبر عن رغبته فى الإسلام وأنه - ككل جيله - أصبح يجهل - لا أقول التقاليد الإسلامية - بل يجهل كل ما هو متعلق بالعبادات . مسلمو هذه البلاد الأسيرة حافظوا على عقيدتهم الإسلامية ، إنهم حاربوا ضد الصخر والصخر أهون ، حاربوا جحافل الفكر الماركسى وسلطانه العسكرى والبوليسى . الإسلام إيمان قلب ، وإيمان روح ، إيمان إحساس بالخالق وإيمان أن الدنيا بلا إسلام لا معنى لها .

هذا – فى قراءتى – ما يريد روائينا المسلم القيرغيزى جنكيز آيتماتوف قوله .

إن الخطورة فى الرواية أنه قالها صريحة بلا خوف ولا مواربة مما سيتضح فى الفقرات التى اقتبسناها من الرواية لتحديد هذا المفهوم . وهذا أمر جلل فى الرواية السوفييتية الملحدة أصلاً وفصلاً . وكتابات جنكيز آيتماتوف – كما أشرت سابقاً – لم تُكتب فى عهد البروسترويكا وبدء تحرر الإنسانية من الظلم الماركسى .. لا ، بل قبل أن يعتلى جورباتشوف سدة الحكم فى الاتحاد السوفييتى وقبل أن تظهر التحولات الإنسانية ولو إلى حد ما فى تلك البلاد .

أقتبس هنا ، من كلام جنكيز فى مقدمته هو لهذه الرواية جملتين فى نظرته الأخيرة إلى تراث أمّته وشعبه القيرغيزى واستحالة أن يزيّف أحد تاريخ بلاده وشعبه المسلم .

« الإنسان دون ذكرى الماضى . الإنسان المحروم من الخبرة التاريخية لشعبه يجد نفسه خارج الأفق التاريخى ولديه القدرة على العيش يومه الحاضر وحده فحسب » .

« إن إنكار الماضى وتزييفه ، والديكتاتورية المتغطرسة المتعجرفة لا بد أن تنحصر فى نفسها وتبنى حولها سوراً قويًّا مثل سور الصين ، لأنه لا يمكن إلا خلف هذا السور ، التمسك بالخرافة التى تقول إن شعباً واحداً يستطيع التفوق والسيطرة على شعوب أخرى » .

أراه صراحة يصرخ ليقول إنه لا يمكن للشعب الروسى أن يظل قاهراً للشعوب المسلمة – بل وغير المسلمة – التى يخضعها لجبروته . أما المعانى الإسلامية ففى التالى :

– أيقظى عثمان ، لا يهم وإن كان مديراً . فكلنا أمام الموت سواسيه .

– مع أن الله لم يبخل عليه بالصحة « لا بد أن يقدّر القارىء هنا أن كاتباً فى دولة تحمى الإلحاد ، يذكر الله صراحة » .

– لقد كنتما عرضة للاستغلال ، وكتب عليكما الموت (ص ١٩) .

– انقضى أجله الموعود .

– مات . سأصلى عليه وأجهّزه وأدعو له بالدعاء الحسن .

تصلى ؟ أنت تصلى يا يديغى البورانى ؟

نعم ، أنا ، وأعرف الصلاة جيداً .

– وا عجباً ! تصلى وعمر السلطة السوفييتية قد بلغ ستين سنة ؟ (ص ٢١) .

– دعك من هذا . يصلى الناس على موتاهم من قبل هذه السلطة .

– الأطفال غير سعداء ومع ذلك يغنون أغنية تقول إنهم أسعد الأطفال فى العالم لأن رواد الفضاء ينطلقون إلى الفضاء من أراضيهم (ص ٢٧) .

– لقد مات ولا بد من دفنه . والآن يضربون أخماساً فى أسداس ولا يعرفون كيف يتصرفون . إلا أن يديغى فى محاولة منه لإقناع الشباب قال :

– ليس هذا بكلام الرجال . كفوا عنه . لن ندفنه إلا فى مقبرة « آنا – بيت » . حيث يثوى رفات أهل الإسلام (ص ٣٠) .

– خير إكرام للميت دفنه فى الحال (ص ٣٢) .

– عجب أمر هؤلاء الناس ! الوقائع كلها يعدونها مهمة إلا الموت !

– احمد ربك يا ثابت .

– ينبغى الاستسلام لحكم القدر والتسليم به .

– نعم ! كل شيء يعمله الإنسان يكون من أعلى ، ووفق نظام صارم .

– استيقظ يديغى البورانى فى ذلك اليوم مبكراً ، بل لم تكد تكتحل عيناه بالنوم ، وما ذاقه إلا لماماً عند مطلع الفجر ، وقبل ذلك كان مشغولاً بتجهيز الميت وتكفينه . ويجهز الميت عادة يوم الدفن قبيل إخراج جثمانه من البيت أى قبل صلاة الجنازة .

– فما دام الناس يُولدون فهذا يعنى أيضاً أنهم يموتون (ص ٦٥) .

وبقيت على الحياة بقدرة قادر .

– وإن الزوجين الشابين سينجبان أطفالاً آخرين ، والله سيعطيهما ويمنُّ عليهما بفضله . إذا انكسر غصن من شجرة الدلب فليس هذه بمصيبة ، الأهم أن يبقى الجذع سالماً (ص ٧٠) .

– كانت تطلب من الله العفو والمغفرة . رافعة الحمد والشكر إلى الله العلى القدير بهمس ومناجاة على وجود زوجها إلى جانبها . لم تلحق به الحرب تشويهاً مروعاً مستديماً . فإن ما شاهدته جعلها تقاسى الرعب والمعاناة . كان الناس مقطوعى الأرجل والأيدى ، جرحى ومشوهين يرتدون معاطف عسكرية مهترئة وشتى الخرق البالية ، ويسيرون على عكازات أو يقودهم مرافقون .. كان ممكناً أن يتكيفا مع الزمن ويصبحا من أهل المدن شأن الكثيرين الآخرين ، لكن شاء حكم القدر أمراً مغايراً . أجل .. هذا هو مصيرهما وهو المكتوب على الجبين (ص ٧٣ – ٧٤) .

– لأن القبر يجب أن يكون عميقاً جدًّا ، ذا شق فى وسطه وشقين فى جانبيه على طريقة مسلمى آسيا الوسطى .. وإذا وصلوا إلى المقبرة – إن شاء الله – سيختارون مكاناً مناسباً فى المقبرة حتى يضعوا رأس المرحوم باتجاه القبلة . لقد أفتى بذلك « عثمان » المدير ، لذلك ينبغى أن نقدره حق قدره .

– إن السواد الأعظم من الناس يفكر فى الله على نسق واحد عندما تستدعى الضرورة . مع أنه لا يجوز التصرف هكذا .. يقال لهذا السبب إن الملحد لا يذكر اسم الله إن لم يؤلمه رأسه ، وسواء كان هذا الأمر هكذا أو لم يكن . فلا بد أن يعرف المرء الصلاة .

– تأمل « يديغى » رفقاءه الشباب وتأسف أسفاً صادقاً . لذلك أن أحداً منهم لم يكن يعرف الصلاة ولا يعرفون كيف سيدفنون بعضهم بعضاً ، ولا يعرفون بأى كلمات سيودعون الإنسان منهم عند انتقاله من الدنيا إلى الآخرة (ص ١٠١) .

ذات مرة حدث أن ذهب يديغى البورانى لتشييع جنازة فى بلدة قريبة منهم ، فتعجب إذ رأى فى المقبرة نفس ما يراه فى الاجتماعات . وقد تلا الخطباء أمام جثمان الميت خطباً مكتوبة تحدث فيها جميعهم عن الشيء نفسه . ماذا عمل وأى المسؤوليات تحمل ، وكيف اشتغل ومن خدم وكيف خدم . ثم عزفت الموسيقى ، وأغرقوا القبر بالزهور ولم يتفرغ أحدهم ليقول أى شيء عن الموت كما يجرى الكلام عنه فى الصلاة التى تتوج وعى الناس منذ غابر الزمان فى تلك السلسلة من أحداث الحياة ، وكأنما لم يمت أحد فى العالم قبل ذلك الشخص ، ولا ينبغى أن يموت أحد بعده . وكأن هؤلاء المساكين خالدون » .

هذه بعض المعانى الإسلامية الصريحة التى أتى بها كاتبنا المسلم جنكيز آيتماتوف فى روايته « يمتد اليوم ليصبح قرناً » . لقد استشرف آفاق المستقبل فى الاتحاد السوفييتى لا بنظرة سوفييتى حاصل على جائزة لينين ، وإنما بنظرة مسلم آمن بأنه لا يمكن لأى نظام أن يصمد أمامه .

[ثانياً]

البوسنة والهرسك

– رواية : الدرويش والموت .

الـدرويش والموت

(أشهر رواية إسلامية فى أوروبا)

للروائى : محمد سليموفتش

يقول محمود قيراطلى إن رواية « الدرويش والموت » هى أول رواية « فى أوروبا » تستفيد من القرآن الكريم ، ومن المأثورات الإسلامية عبر القرون . وهى رواية تتسم بعمق التحليل الروحى للنفس البشرية فى أوقات قوتها ، وفى أوقات ضعفها واستيقاظها ، وتتناول العلاقات الاجتماعية بين الناس والزمن والبيئة والفكر الروحى بصورة دقيقة نادرة المثال .

وفى الحقيقة إن هذه الرواية تبدو دينية لأنها إسلامية ، تنقد المجتمع الإسلامى بحسناته وسيئاته ، وتبدو ناقدة للقائمين على هذا المجتمع فى كثير من جوانبهم ، وتبدو تاريخية منذ الوهلة الأولى لقراءتها ، فهى تدور فى البوسنة فى القرن الثامن عشر الميلادى ، عندما كانت البوسنة تابعة للدولة العثمانية ، والبوسنة كانت على الحدود البعيدة من قصر الخلافة العثمانية ، وفى هذا الوقت كانت مظاهر الضعف قد دبت فى الدولة وتغيرت بعض العلاقات الاجتماعية تبعاً لذلك .

لكن النقاد شهدوا لكاتبها محمد سليموفيتش بعبقريته الروائية وقوة تحليله الروحى ، ولا أقول النفسى فهو يعرض أمام القارىء الإحساس العميق الذى ينتاب الإنسان عندما يقع فى خضم الأحداث أمام نفسه وأمام الغير . والإنسان عندما يترك الهدوء ليدخل الحياة يراقب نفسه ويراقب الناس ويحاول الحفاظ على نفسه من شرور الدنيا وآفاتها .

وتنقسم رواية « الدرويش والموت » إلى ١٦ فصلاً يبدأ كل فصل منها بآية قرآنية تعبر فى إيجازها المعهود عن الشحنة الروحية الموجودة فى الفصل كله .

مثال ذلك : يبدأ الفصل الأول هكذا : ﴿ بسم الله الرَّحمٰنِ الرَّحيم ۞ نٓ ۞

والقلم وما يَسْطُرُونِ ... ﴾ ﴿ لَا أُقْسِمُ بيوم القيامَةِ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللوَّامةِ ﴾ ﴿ والعَصْرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

وإذا وضعنا نصب أعيننا أن هذه الرواية كُتبت فى أثناء الضغط الذى قاده جوزيف بروس تيتو الديكتاتور الصربى اليوغسلافى ضد المسلمين لأدركنا كم كان محمد سليموفيتش شجاعاً فى التعبير عن القيم الإسلامية .

والرواية يحكيها « قاصُّها » من بدايتها إلى نهايتها .، وتدور أحداثها فى قصبة من قصبات البوسنة ، وقصبات البوسنة لا تختلف فى قليل ولا فى كثير عن قرى الأناضول فى تركيا ، فالجامع هو الأساس الذى تدور حوله المبانى ، والجامع هو مركز القصبة والقرية بل والمدينة . نفس النظافة والنظام والترتيب . وبطلها شيخ يُدعى أحمد نور الدين ، وهو إمام مسجد وقائم على تكية صوفية مولوية . يبدأ روايته بعد بضع آيات قرآنية على أول الفصل – كعادته فى فصول كل الرواية – فيقول : أبدأ قصتى هذه دون النظر إلى شىء ودون قصد إلى كسب لنفسى .. إننى أبلغ من العمر أربعين عاماً .. والإنسان متغير ، والشر كل الشر فى عدم طاعتنا الضمير إذا استيقظ .. لست تمثالاً بسبب وظيفتى فهى فى الحقيقة وظيفة دينية شريفة للغاية .. وفيم يكون التدين إذا لم يكن هناك صعاب يجب أن تتغلب عليها !

والفصل الثانى يبدأ بـ ﴿ ولو يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بِظُلْمِهم ما تَرَكَ على ظَهْرِها من دَابَّةٍ ﴾ .

وفيه يقول : لقد زُجَّ بأخى منذ عشرة أيام فى سجن القلعة .

– وقلت : إن الموت هو الانتقال من دار إلى دار ، إنه ليس فناء بل هو ميلاد جديد .. الموت حالة انتقالية .. إننى أؤمن باليوم الآخر وبالبعث . إن الشابات يحلمن بالحياة ويؤمن بالكلمات ، بينما المسنات يخفن الموت ويسمعن بشوق ولهفة ما يدور عن الجنة .

ويتحدث قاصُّ الرواية عن فتاة من أسرة غنية قابلها ليستعين بها على الإفراج عن أخيه وتستعين هى به لهداية أخيها « حسن » إلى طريق التعقل والحفاظ على اسم الأسرة . هذه المرأة صغيرة جداً وعلى جانب كبير من الجمال ، وهاتان الصفتان لا تتيحان لها فرصة التفكير فى الملائكة التى تسجل أعمالنا .

ويبلغ محمد سليموفيتش الذروة فى تصويره انفراد الشيخ مع السيدة الشابة فى الحديث وأن هذا من الممنوعات ، لكنه حدث فى جو من وجود الخدم البعيدين نسبيًّا .

يقول : « كان لهذه الشابة قوة خاصة مستمدة من العائلة التى تنتمى إليها وكان موقفها حازماً كما كانت حركاتها تصدر بطريقة الأمر ، ولكن هذا كله يجرى بشىء من الخفة وعلى درجة من الرقة لا أستطيع تقديرها نتجت من كثرة التعود ، ومن خفة لمعان العيون المكحولة التى تبدو من فتحتىّ حجاب الوجه . ومن تلك الذراع التى بدت فى وضع منحن ، فأشبهت وثبة الوز العراقى . وذلك عندما أمسكت الأصابع بطرف النسيج الحريرى الشفاف الذى يتشح به رأسها ، وأخيراً من تلك الجاذبية المتميزة التى تنبعث منها انبعاث السحر . إنها بنت إبليس . رأيتها هكذا بوصفى ريفيًّا ولعنتها بوصفى متديناً . لقد وجدت نفسى فجأة فى موقف يسمح لى بالنظر إليها فى خفاء دون أن أؤثر فى شىء من العلاقات ، ظاهراً أمامها بمظهر الدرويش الذى يقدر إرادتها وسمعتها فشعرت بشىء من التفوق على نفسى . نظرت إليها نظرة تتسم بالهدوء والتركيز مدركاً أن لن يجول بخاطرى آية فكرة يمكن أن أتذكرها فى المستقبل بشىء من الخجل » .

ورغم أن الكاتب الإسلامى التركى غالب بوزطوبراق يقول بإسلامية الرواية إلى الحد الذى جعل منها النموذج الناجح الذى ينبغى أن يُحتذى به على مستوى المضمون ثم على مستوى البناء الروائى المحكم . قد يختلف ناقدان حول مدى إسلامية الرواية فى البلاد الإسلامية لكن لا يختلف اثنان فى أن الكاتب إذا أثر فى جيل من الكتاب لينحو منحى إسلامياً مثلما فعل محمد سليموفيتش ، أو أن الروائى المسلم نقل للمسلمين فى بلاده – وفى غيرها بالطبع – عن طريق الترجمات معانى إسلامية يتوق الناس إلى نشرها ، أو لنقل نشر خطوطها العريضة مثلما فعل محمد سليموفيتش فى محاولة نقل الفرق بين الخير والشر والحكم الإسلامى عليها واستخدام كلمات متصلة بالعبادة فى الحياة مثلما فعل محمد سليموفيتش – يكون قد أدى دوره الإسلامى عندما يقول على سبيل المثال لا الحصر : « إننى أجلس جلسة التشهد لأستمع » . و « رحمة وسلاماً على روحه » و « قلت لها مودعاً فى سلامة الله » إنكَ دائماً تقفين بين هذه الجبال

أشبه بالقمر .. بالنهر .. بالشارة فى أعلى المئذنة » و « أتحاشى النظر إليها لكى لا تلتقى أعيننا » و « أدرت بصرى تجنباً لرؤيتها » .

– حامل أنت ؟

– يبدو .

– أحقاً أم يبدو ؟

– حقاً .

– آه ، فليتم الله بخير .

إقتربت منه وقبلت يده ..

بلا شك سوف تكون مسروراً بحفيدك .

– إننى دعوت الله ألا يتركنى عاقراً ، والحمد لله ، والشكر له قد استجاب . كيف لا وكثيراً ما تساعد الدعوات فى مثل هذه الأحوال » .

و « ارعوا صلة الرحم فقد أوصى الله بذلك » .

و « ... كان الرجل الوحيد فى القصبة الذى قال لى كلمة العزاء ، لم تكن مفيدة ، ولكنها كانت صادقة ، وبالتالى فإننى أخجل أن أقول إنها كانت تشبه صدقة الفقير » .

إن محمد سليموفيتش علامة فى تكوين الأدب الإسلامى فى أوروبا الشرقية بل الغربية أيضاً . ويبدو أن « الدرويش والموت » صدرت مبكرة قبل أن تكون هناك صحوة إسلامية كالتى يعيشها المسلمون اليوم ١٩٩٣ م ، وقبل أن تقوم عملية تقنين الأدب الإسلامى والتشجيع عليه .

أحب التنويه هنا أن فى جمهورية البوسنة والهرسك يعيش صربيون أرثوذكس وغيرهم ، ولا غضاضة أن يعبر الأدب الإسلامى أو الأدباء المسلمون فى هذه البلاد عن مجتمع فيه المسلم ومجتمع فيه النصرانى ، والكاتب ينقد هذا المجتمع أو ذاك .

[ثالثاً]

عن داغســتان

- صقـور القوقـــاز .

صقـــور القوقـــاز

(أول رواية إسلامية تصوِّر جهاد الداغستانيين بقيادة
الإمام شامل ضد الروس المعتدين)

– رواية : صقور القوقاز .
– تأليف : سلجوق قُللى .
– ترجمة : الدكتور محمد حرب .
– الناشر : دار المنار – جدة .
– عرض : خالد عزب .
– فى : جريدة الشرق القطرية .

قصة بطولة وتضحية وفداء ، تلك هى قصة الإمام العسكرى الشيخ « شامل أسد القوقاز » صقر الجبال ، الذى دوَّخ روسيا القيصرية وتصدى لظلمها وجبروتها وجيشها ، وخاض معارك شرسة بثُلَّة من الرجال .. صقور القوقاز .. وحقق الانتصارات شاملة مؤزرة صعقت بتخطيطها أرق العقول العسكرية وأعظم القواد الروس الذين كانوا ينهزمون ويجرون أذيال الخيبة والفشل .

إنها قصة مكتوبة بمداد دم الشهداء ، تحكيها كل شجرة فى جبال القوقاز والشاشان . لقد ربط المؤلف بين أحداثه ربطاً فنيًّا محكماً ، وأجرى القصة بفنية سامقة .. تشد القارىء صفحة بعد صفحة .

وفى القصة بعض العبارات الجميلة الآخاذة مثل : أرسل الإمام شامل إلى الجنرال غراب وهو المكلف بتعقبه خطاباً يقول له فيه :

« لقد رصدتَ ضدى ثلاثين ألف روبل وأنا سعيد بذلك ، ولكن اعلم أننى أضنُّ بدفع كوبيك واحد نظير رأسك ، ولا أقول رأسك أنت فقط بل أقول رأس القيصر نيقولا الأول المرصَّع بالجواهر والأحجار الكريمة » .

وحين يقارن الكاتب بين مواجهة الروس للآخرين ومواجهتهم لشامل رحمه الله يقول :

« أما عندما يواجه الجنرالات الروس شاملاً فالأمر مختلف .. فالرصاص المنطلق خلفهم لا يلحقهم » .

كناية جميلة رائعة عن الفرار والذعر والفوضى بين جنود الروس .

إن هناك بعض الصفحات الرائعة يحسن فيها الكاتب رسم شخصية الشيخ شامل رحمه الله تشعر القارىء بنفحة عزة إيمانية عجيبة ، كتلك المقابلة بينه وبين رسول القيصر الجنرال فون كلوجناف فى ١٨ سبتمبر ١٨٣٧ عند نهر صولاق شمال داغستان . وكمثال رائع للشجاعة تجد فى القصة مواقف اقتبسها الكاتب من سيرة الخنساء وأسماء بنت أبى بكر رحمهما الله . فيها أم تودِّع وترسل ابنها الرابع ليقاتل مع الإمام شامل بعد أن فقدت زوجها وأولادها الثلاثة .. أم عظيمة .. ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشبه وصيتها بوصية أسماء ووصية الخنساء .

وإذا كان النثر هو أسلوب قصتنا هذه فإنها مع ذلك لا تخلو من ترنيمات تضارع جمال الشعر كالترنيمات التى يصف فيها جمال الشهادة وعظمة الشهيد فى سبيل الله يقول :

« أنت إنسان كبير ومكانك عند الله كبير . لقد نلت الشهادة . قد لا يكون لك قبر معلوم ولكن هل هناك شاهد قبر أعظم من هذه الشجرة ؟ » .

الصور والتشبيهات :

يقول الكاتب فى وصف بلاد الشاش « الشيشان » الذين تحرَّكوا فى آخر عام ١٩٩١ م ورفضوا الانصياع لأحكام الطوارىء التى فرضتها عليهم الحكومة المركزية فى موسكو حتى اضطرت موسكو إلى سحب المجموعات التى أرسلتها . وقد ثاروا عام (١٩٩٢ م) أيضاً ، وهاجمتهم حكومة موسكو .

يقول الكاتب فى وصف هذه البلاد : « بلاد الشيشن تكون فى قسم كبير من السنة مثل سرير الضيف النظيف المغطى بملاءات بيضاء ، وارتفعت أراضى الشيشن المباركة وأشجارها الطويلة الباسقة الهائلة الحجم مثل أصبع الشهادة فى يد الإنسان .

ويسأل الشيخ قاسم شاملاً : هل تثق بجنودك ؟ فيقول له الشيخ شامل : إنى أثق بالله .

والشيخ شامل رحمه الله يدرس نفسية أعدائه ويضع نفسه مكانهم ليعرف كيف يفكر أعداؤه ويبنى خططه العسكرية على هذه الاستنتاجات والافتراضات التى تحتاج إلى ذكاء خارق .

لقد ازدهانى الاعجاب بوصف المؤلف لرجوع الجندى الروسى الأم التركى الأب إلى معسكر أبيه التركى .. إنه يصف كيف تسللت الأحداث شيئاً فشيئاً ثم يصف الخلجات النفسية لباتوف الذى أبت أصوله التركية الشريفة إلا أن تستيقظ بعد أن رأت الانحدار المعيب والمشين للروس فى القوقاز .. ولقد كانت اللمسات الإنسانية فى معاملة الشيخ شامل للأسرى ، وذلك من تعاليم الإسلام السمح ، هو الذى دفع باتوف إلى هذا القول : بدأت أحب الأتراك ، ليتهم عاملونا بقسوة حتى لا أحبهم .

لقد وصف المؤلف فى حوار شيِّق دار على ألسنة الأسرى الروس عدم إيمان الروس بالمعركة التى يخوضونها ، إنهم يقولون إن المعركة معركة الضباط الكبار .

لقد قال لنا الكاتب أشياء كثيرة فى قصته .. عنده فلسفة يريد أن ينقلها إلينا عبر قصته الهادفة العميقة . إن وجهة نظره فى الحرب بين المسلمين والصليبيين تنجلى فى قوله : « المتصارعان هما الصليب والهلال ويستمر هذا الصراع حتى يوم القيامة » .

[رابعاً]

مـن بلغاريـا

– أيها الشـهداء إنّا قادمون .

أيها الشـهداء إنَّا قادمـون[1]

(من ينقذ مسلمى بلغاريا من أعنف موجة للقمع الدينى ؟!)

للكاتب المسرحى : رمزى أوزجليك

الحديث ذو شجون خاصة عندما يكون عن بلغاريا ، بالذات ، ذلك أن الأعمال الأدبية الجادة التى تُطرح على الساحة الأدبية نادرة ، وتندر بصفة خاصة حين نتطرق إلى الأدب التركي وما قُدِّم منه إلى القراء العرب باللغة العربية . ومن الأعمال الجادة التى قُدِّمت أخيراً مسرحية « أيها الشهداء إنَّا قادمون » .

وهى مسرحية تركية تعبر عن معاناة المسلمين الأتراك فى بلغاريا ، والظلم الذى يتعرضون له وآمالهم فى الخلاص ، وتقودنا المسرحية ، من البداية ، إلى محاولة التعرف على أمجاد الفتوحات العربية الإسلامية فى بلغاريا .

صلة بلغاريا بالإسلام :

ترجع صلة بلغاريا بالإسلام عندما فتح العثمانيون مدينة بلوفديف عام ١٣٥٨ م . ثم فتحوا صوفيا عام ١٣٦٣ م ، ولم تصل سنة ١٣٩٣ م حتى كانت بلغاريا كلها تحت الحكم العثمانى .

وفى سنة ١٨٧٨ م اضطرت الدولة العثمانية تحت تأثير الضغط الروسى إلى إعطاء الحكم الذاتى لأمارة الروملى ، مقاطعة شرق الروملى ، وتوحدت هاتان الإمارتان سنة ١٨٨٥ م ، ثم أعلنت استقلالها عن الدولة العثمانية سنة ١٩٠٨ تحت اسم بلغاريا ، وكونت مملكة قائمة بذاتها ، وبذلك يكون الحكم الإسلامى قد دام ٥٤٥ سنة فى جنوب بلغاريا و ٥١٥ سنة فى شمالها .

---

(١) مسرحية « أيها الشهداء إنَّا قادمون » تأليف رمزى أوزجليك . ترجمها إلى العربية الدكتور محمد حرب . والعرض للأستاذ خالد عزب ، وقد نشره بجريدة المدينة المنورة (السعودية) فى غرة محرم ١٤١٣ هـ .

وفى الحرب العالمية الأولى انحازت بلغاريا إلى ألمانيا وانهزمت معها ، فتقلصت مساحة بلغاريا من جرَّاء ذلك . وفى الحرب العالمية الثانية تحالفت بلغاريا مع الألمان أيضاً وانهزمت مع هزيمة ألمانيا ، فغزاها الروس عام ١٩٤٤ م . وفى عام ١٩٤٦ م سيطر فيها الشيوعيون على الحكم ، فألغوا الملكية وأقاموا جمهورية شيوعية ، وهذا هو الزمن الذى جرت فيه أحداث هذة المسرحية التى بين أيدينا .

ويكثر مسلمو بلغاريا فى المناطق التى تحد مقدونيا فى يوغسلافيا والتى تحد اليونان وتركيا ، وبهذا يكون مسلمو بلغاريا حلقة فى سلسلة مناطق متصلة ذات كثافة سكانية تمتد من استانبول فى الجنوب إلى ما يقارب زغرب فى الشمال .

المؤلف :

مؤلف المسرحية هو رمزى أوزجليك . وُلد عام ١٩٥٠ م فى قرية مينوز ، إحدى قرى ولاية سامسون فى تركيا . وكان دراسته علمية (الفيزياء والكيمياء) وتربوية ، وبدأ اهتمامه بالفن والأدب منذ أن كان طالبا بالمدرسة الإعدادية ، وبدأ هذا الاهتمام بكتابة القصة القصيرة والنقد .

الأصل التاريخى للمأساة :

وعد الحزب الشيوعى البلغارى المسلمين أثناء الحرب العالمية الثانية بإنصافهم فى الحكم وإعطائهم الحريات الكاملة ، فى مجال الدين والعبادة ، ولكنه تنكر لهذا الوعد بعد أن وصل إلى الحكم ، وبدأ حملة إبادة ضد المسلمين ، أعد لها مخططاً رهيباً ، ففى بادىء الأمر عملت الحكومة الشيوعية البلغارية على إجبار المسلمين على الهجرة إلى تركيا ، وفعلاً هاجرت أعداد كبيرة ، ولكن تنبه الشيوعيون أصحاب السلطة إلى أن كثيراً من الفنيين وأصحاب الخبرات قد هاجروا . فأوقفت الهجرة واتَّبعت أسلوباً آخر . خاصة عندما لاحظت السلطات الشيوعية البلغارية أن المسلمين يتزايدون بسرعة ، فعمدت إلى القضاء على المسلمين باتباع عدة طرق منها :

١ - تغيير أسمائهم الإسلامية بأسماء بلغارية مسيحية ، إذ يعطى ولى أمر الأسرة

قائمة بأسماء بلغارية مختلفة وعليه أن يختار منها لنفسه أولاً ولبقية أفراد الأسرة ، ويسجل رسميًّا بالاسم الجديد .

٢ – لا تُصرف رواتب العمال والموظفين المسلمين ، ولا يُصرف تقاعد العجزة والأرامل ، إلا بعد تغيير أسمائهم الإسلامية .

٣ – لا يسجل طلاب جدد فى المدارس ولا طلاب قدامى ، ولا ينقلون للصفوف التالية إلا بعد تغيير أسمائهم ، ويُفصل كل من يرفض ذلك القرار .

٤ – تُجبر النساء المسلمات على الابتعاد عن الزى الإسلامى ، ويؤمرن بلبس الزى القصير كبقية البلغاريات .

٥ – يمنع المسلمون من دفن موتاهم فى مقابر خاصة بهم ، كما كان متبعاً فى الماضى ، ويُمنع الدفن بالطريقة الإسلامية .

٦ – يُمنع المسلمون من الأعياد والمناسبات ، ومن صوم رمضان وإقامة الصلاة ، إذ كلما مات إمام أغلق مسجده أو هُدم .

وقد اتَّبعت الحكومة البلغارية أبشع الوسائل ضد كل من عارض تلك القرارات ، فأُبيدوا داخل السجون البلغارية التى تُقام تحت الأرض ، وقُتلوا بالغازات السامة والكهرباء ذات الضغط العالى ، وبالرصاص فى الجبال . وما زالت السجون البلغارية مليئة بالمسلمين ، غير من قُتل من النساء والأطفال والشيوخ .

وموضوع المسرحية لم يكن حصيلة خيال ، وإنما قد أخذ من الحياة الحقيقية التى يعيشها المسلمون فى بلغاريا ، فقد تضمنت شرح المظالم الواقعة على المسلمين الأتراك فى بلغاريا ، وتصوير اعتداءات الجنود البلغاريين على الفتيات التركيات المسلمات ، واعتداء البلغار بوحشية منقطعة النظير على النسوة المسلمات المؤمنات .

مأساة المسلمين البلغار :

والمسرحية مستقاة من حياة المسلمين الأتراك الذين يعيشون فى بلغاريا ، وتبرز عن

طريق أحداث تقع فى محيط مأساة عائلية ، محاولات هؤلاء المسلمين فى الحفاظ على هويتهم وعلى كيانهم وثقافتهم ، وقبل كل شىء على دينهم .

لقد أراد المؤلف أن ينقل شعور المسلمين فى بلغاريا إلى الخارج ليحدث ارتباط بين الخارج وبينهم ، كما أراد أن يؤكد تشكيل مقاومتهم وفعاليتهم .

يقوم بعض الشباب البلغار بمضايقة « تركان » وينبرى واحد من هؤلاء ، وهو هليمكوف ، بالتدخل لإنقاذ الفتاة وإبعاد هؤلاء الشبان عنها ، ثم يعرِّف نفسه لها ، ليس على أنه بلغارى وإنما على أنه مسلم تركى ، اسمه خاقان ، يحب أحدهما الآخر ، ورغم أنه ما زال طالباً يدرس إلا أن رغبته فى الزواج من تركان جعلته يلحُّ على أمه وعلى العقيد بونيا تفسكى ، الذى يعرفه على أنه أبوه ، أن يذهبا لخطبة الفتاة .

وكذب هذا الشاب على حبيبته ، وأزعجه هذا الكذب ، بل عذبه ، وكان يرى خيال حبيبته تركان فى الغرفة التى كانت مخصصة له فى بيته ، وكان هذا الخيال غاضباً منه ، يقول له : لماذا خدعها وادَّعى أنه مسلم ؟

ويقول الخيال الذى هو خيال تركان : إنها لن تتزوج أبداً ببلغارى ليس مسلماً . ثم يختفى هذا الخيال ، فيدخل فى نفس الوقت أخوه الأصغر شامتروف من نفس الباب الذى خرج منه الخيال ، وفى هذا اللقاء بين هليمكوف وشامتروف ، تبرز كل الجوانب لدى الأخوين ، الأخ الكبير وهو مثالى ، والصغير وهو الواقعى الذى يرضى بالواقع على ما فيه من مسائل ، ويعتبر هذا المشهد أكثر مشاهد المسرحية نجاحاً .

وأثناء زيارة الخطبة يقوم والد الفتاة المسلمة تركان بطرد العقيد البلغارى وزوجته صوفيا ، ويتصور الوالد أن هذه الزيارة إنما هى جرأة ووقاحة ذلك لأن العقيد ليس مسلماً ولا يشفع له مركزه الاجتماعى والأدبى . يُسرُّ العقيد – رغم الإهانة التى وُجهِّت إليه وإلى زوجته – سروراً بالغاً ، وينقل هذا الفشل بتلذذ كبير إلى هليمكوف .

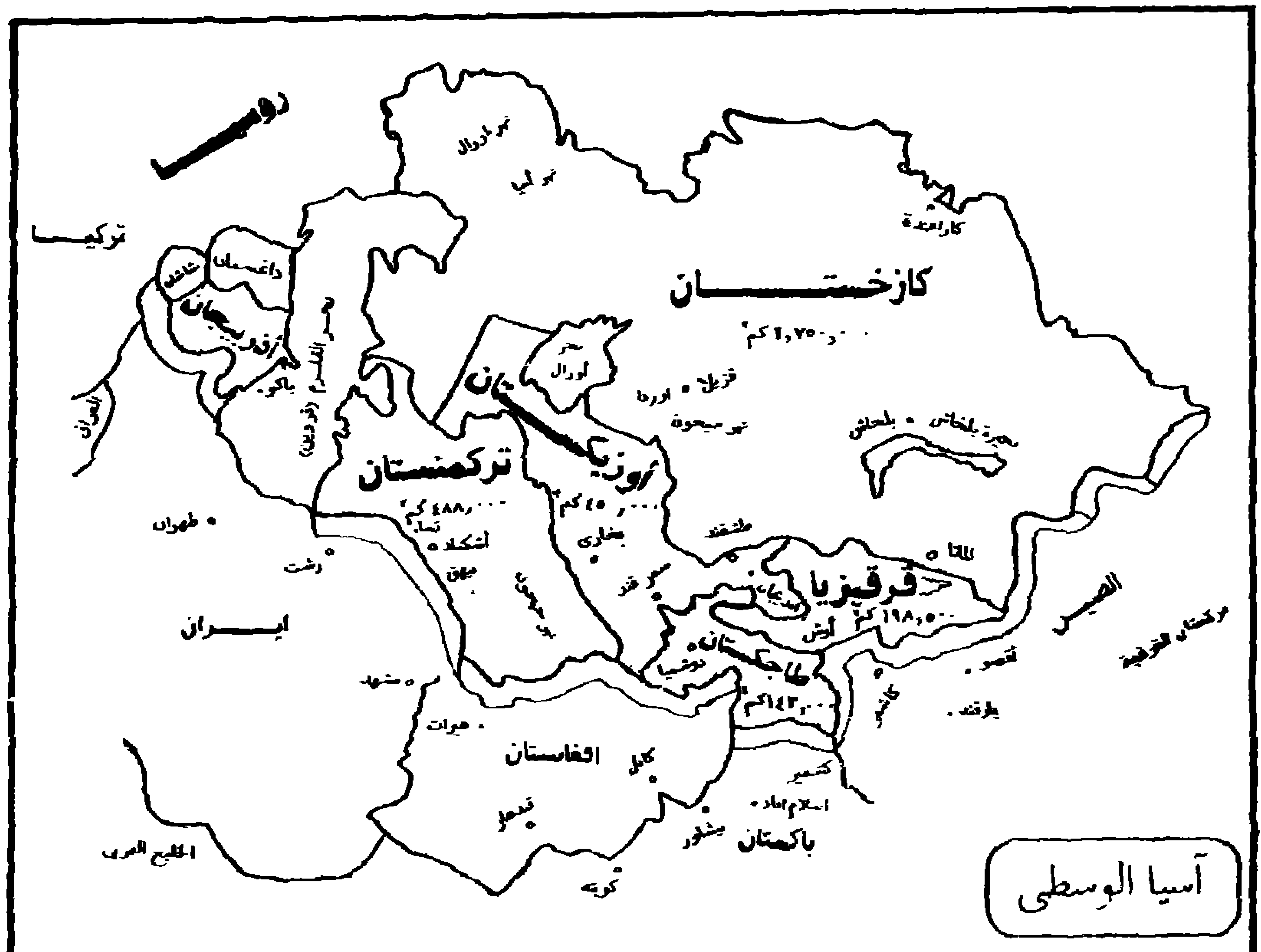
ويلتقى الحبيبان فى المكان الذى تعوَّدا أن يلتقيا فيه . هليمكوف يرجو ويتوسَّل أن يتم الزواج ، وأن تنسى أنه كذب عليها ، فتقول له : إنها تبحث عن خاقان المسلم الذى أحبته ، وإنها لا يمكن أن تحب عدو دينها وشعبها .

يلتقى هليمكوف بأحد الأتراك المسلمين فى بلغاريا . ويُدعى أمين على ، وهو ساعاتى . ويفزع العقيد من لقاءات هليمكوف بهذا التركى المسلم ، ويعبِّر العقيد البلغارى لصوفيا أنها وأمين على قد أيقظا الولدين من شيء أراد العقيد أن ينشيء الولدين عليه لذلك يرتدى العقيد ملابسه الرسمية ويخرج ليتشاجر مع أمين على ، ثم يعود ويصبح العقيد البلغارى والساعاتى المسلم عدوين على طرفى نقيض .

ولم يستطع العقيد البلغارى فى يوم ما - أيام كان فى السلطة - أن ينفى إلى السجون إبراهيم زوج صوفيا والد الطفلين هليمكوف (حليم) وشامتروف . (شامل) .

ولم يكن هليمكوف يدرى عن واقعه شيئاً ، ويحاول أن يثأر لاعتداء أمين على العقيد البلغارى ، فيحاول أن يقتله ظنًّا من هليمكوف أن هذا العقيد والده ، ورغم تضييق هليمكوف على أمين على ، إلا أن الأخير لم يصرح بالحقيقة مرة واحدة .

يستفيد أمين على من رابطة المحبة التى تربطه بهليمكوف ليوجه إليه أسئلة منظمة تجعله يفكر التفكير الصحيح ، وبهذا يوضح أمين على لهليمكوف أنه مسلم وأن اسمه الحقيقى حليم ، وأن العقيد البلغارى قد خطف أمه صوفيا وهى مسلمة وكان إسمها الأصلى صفية ، وتزوجها قهراً ، وربَّى حليم وشامل (شامتروف) على أنهما بلغاريان ، وأنهما ضمن الجيل المسلم التركى الذى تريد السلطات البلغارية أن تنشئهم على فقدان هويتهم الإسلامية وتبلغرهم .


آسيا الوسطى
روسيا
تركيا
كازخستان
تركمنستان
اوزبكستان
قرقيزيا
طاجكستان
ايران
الغانستان
باكستان
الصين
تركستان الشرقية
داغستان
أذربيجان
باكو
طهران
رشت
مشهد
هرات
كابل
قندهار
بشاور
اسلام اباد
كشمير
الخليج العربي
بحر آرال
بحيرة بلخاش
بلخاش
قزيل اوردا
كاراغندة
طشقند
بخارى
سمرقند
ألماتا
كاشغر
يارقند


البلقان
ليوبليانة
سلوفينيا
زاغرب
كرواتيا
رياكة
فوجفدينا
طوزلة
بانجة لوكة
البوسنة والهرسك
بلغراد
الصرب
سرايوة
موستار
نيش
الجبل الاسود
قصوة
شكودرة
تيرانة
البانيا
درازو
اسكوب
مقدونية
صوفية
بلغاريا
ستارة زاغورة
روس
رومانيا
دبروجة
محمودية
قسطانطة
مجيدية
وارنة
بورغاز
تركيا
ادرنة
اسطنبول
تكيرداغ
جليبولو
كوملجنة
أسكجة
سموليان
سلانك
اليونان
جنينة
أثينة
مورة
الخندق
اقريطش
رودس
إيطاليا
رومة
نابل
سالرنو
باري
برينديزي
اوترانتو
تارانتو
مسينة
بلرم
ريجو
طبرمين
صقلية
قطانية
سرقوسة
مالطة

فهـرس

الباب الثالث

دول البلقـان

الباب الرابع

الأدب الإسلامى فى آسيا الوسطى والبلقان

الباب الخامس

المركز المصرى للدراسات العثمانية
وبحوث العالم التركى
ص . ب ٨١٧٤ مدينة نصر ـ القاهرة



عيون عربية ، ترصد - عبر نافذة إسلامية - واقع
المسلمين في تركستان الشرقية ، ودول آسيا الوسطى ، وشعوب
في القوقاز والبلقان ، بما في هذا الواقع من مرارة مشاكل الإستقلال
الكفاح لاستعادة أسس الشخصية المسلمة ، وعمق التعبير الأدبي
محمد

